



الذَّكْوَرُ شَوْقٌ ضَاقَ بِهِ

عَهِزَ الدُّرُودُ وَلَهُ مَارَاتُ

الشَّامِ

تاريخ
الأدب
العربي

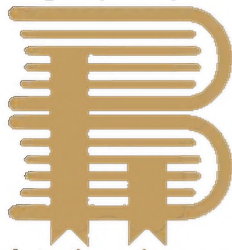


عصر
الدول والإمارات
الشام

تاريخ
الأدب العربي
٦

عصر
الدول والإمارات
الشام

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب:	تاريخ الادب العربى (ج ٦) ۞
المؤلف:	شوقى الضيف ۞
الناشر:	ذوي القربى ۞
الطبعة:	الأولى ۞
تاريخ الطبع:	١٤٢٨ ۞
الكمية:	١٠٠٠ نسخة ۞
المطبعة:	ستاره ۞
شابك ج ٥:	٩٧٨-٩٦٤-٥١٨-١٨٩-٣ ۞

مركز التوزيع: قم - پلساز قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣-٢٥١-٩٨+

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمته

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعتها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عدنى بن الرقاع العامل والطرماع الطائى والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول لشعرائها الأفاضل: منصور النبري والقشبي وأبى تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى لشاعريها البارعين: البحتري والصنوبري. ومنعاً للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعاً في هذا الجزء وقصرته في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسى الثانى.

وقد بدأت الجزء ببيان يجعل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربى لها وقبام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يظل العالم الإسلامى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى، ثم ما كان من تحول الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسست بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شاليها بحلب ثم إمارة بنى مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجرى، وجهاد عباد الدين زنكى في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم ضربات قاصمة وسحقه لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شر ممزق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهايا. ويدور الزمن دورات، فتتزلها - مع مصر - جحافل المنانيين وتظل ولاية عثانية إلى أن تشرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامى - حين الفتح العربى - يضم أخلاطاً من أم شق آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوناً منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت

فيها - زمن الدولة الأموية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تنعم بعيش رغيد لما فيها من أنهار وعميون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الحزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المالك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا، وعُرِفَتْ - مثل شقيقتها العربيات - كثيراً من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقه المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية ودروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألمت بما كان بها - قديماً - من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحدثت عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربي - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. وألمت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعاً عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابيين في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجليين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريراً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جوع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في السنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء ناهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يقدون على دمشق لمديح الخلفاء، ونبع في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين: الأول والثاني.

ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجرى وتوَجَّه بهم حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، ويترجم الثعالبي في كتابه «الهيئة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباهرزى في كتابه «دُمَةُ القصر» لطائفة من مشهورهم في القرن الخامس الهجرى، ويترجم العباد الأصهباني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدورى فتكثر بها المسطعات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشَّاح. ومنذ أبى قام بِكثَر شعرائها من الهديميات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات. وأخذتُ أحلل شخصيات شعراء الشام في عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجرى، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته الشعرية المخصصة، والفلسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعرى مفخرة الشام الذى لا يماثله أديب سابق ولا لاحق في الأدب العربى شعراً ونثراً، وللتشيع أعلامه يتقدمهم كُشَّاجِم بلوعاته وأَنَّاته لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبدالمحسن الصورى الذى نُوهَ به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلاً في ديوانه، وللغنى أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمداني بروميَّاته التى جَسَّدَ فيها الفروسة العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام في شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جميعاً ما يَتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء في الشام خمسة وثلاثين شاعراً فذاً وذكرت بينهم في كل غرض من أغراض الشعر شاعراً مجيداً من الشعراء في أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمت لهم كتبُ الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح في تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومنَ تطوَّروا به وتركوا فيه بصَّات واضحة جعلت لهم حظاً كبيراً أو قليلاً من الشهرة والمجد الأبدى. وفسحتُ لدراسة الشعر الشعبى وترجمت لأهم أعلام الزجاليين بالشام: أبى العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترقى الرسائل الديوانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقالدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طُوى فيها من رقى إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعفى بهذا

الديوان وتختار له كتاباً بلقاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتاي في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللبلغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلفت أبو العلاء أن يهdy إلى قراء العربية رسائله الشخصية الغضة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكراً أو مهنتاً أو معاندة أو معزّة، وهى - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أدهب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريري في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو نهار، وهى بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء، وجميعه تسبيحٌ ونحميد وتمجيد في الله العليّ العظيم، وتجري ابن غانم على لسان الطيور والأزهار جحكاً بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نظرية رائعة، في مقدمتها رسالة الغفران لأبى العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراف ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتي الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينها حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعية والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أننى عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى في الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعيها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشداً بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أننى صوّرت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله وليّ الهدى والتوفيق.

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحلب^(١) الأولى

(١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلي يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طرسيانة جنوبا ، ومن البحر للمتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، ويردئ المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذي يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبْرِئة . ويجنوى دمشق هضبة حوران . وفي شمال الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبها الشرق جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزْرَعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهياً ذلك أهلها لكي يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هياً البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شمالها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلي . وقد استولى نحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

نقري بردي وللغرب (قسم القسطنطين) لآين سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لظهوزن وتاريخ العرب - مطول لفليلب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم و زمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفليلب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع في فصولها وتاريخها الإسلامي تاريخ الطبري وابن الأثير ، ومرجع الذهب للمسعودي والنجوم الزاهرة لآين

إخناثون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وقد على الشام حجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي حجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكون الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحل بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبل وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوّنوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا ومردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجاري لهذا الشعب الفتح الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الإمبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة النبط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا في الجنوب وشرق الأردن وبُصْرَى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَنْتُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أُذَيْنَة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، ففقدوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوب دمشق ، وهي قبيلة الفساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جَلْق أو الحلب ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمراتها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَلِيمَة بالقرب من قَنْسَرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خُر المنذر صريحا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جيلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق بيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُنْزَأَ خطرهما . وهو ماجمل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبنى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسّر في سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرق من فلسطين ، وكسب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيش الشام ، فلقق بها وتولى قيادتها ، وقَّع بُعْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدق الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وضحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الحلاية - جنوى دمشق على مسيرة يوم منها - وهى إحدى عواصم الفساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ودهانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرثهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخلّ القدس من اليهود وأجابه متمسكهم ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيها بعد لهده الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان وإلى دمشق ، وولاهها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيد الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفتون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وهزله . فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين على بن أبى طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرضوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأقيم حكام للفصل بين الطرفين : أما جند على المراقبون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « يا عمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى فأجد الحز وطبقت التفصيل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حدس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقق دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجى أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايحه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبى سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموى نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سبوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزباد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زباد أن يقضى على معارضة على في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى ييزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعملها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشئون المالية للمشرق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الحراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بمخيدته ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبدالله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي وانجه إلى العراق ، فلقية طلائع جيش لمبيد الله بن زياد وإلى العراق قبيل دخوله الكوفة في «كربلاء» غربي القرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعه ، ولا يخلو ضربه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السكوني ، ففضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففك عنها الحصار وعاد يمينه إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتشر القرصه مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من البنية وأبى بدوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مرج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر في العودة إلى العراق على رأس جيش فتضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي وإلى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير وإلى أخيه عبدالله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبدالله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبدالله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يسبيل في قتال القوم حتى خثر صريبا . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعمير إدارة الدولة واستطاع أخوه عبدالعزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

وبعد زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة ثم هباً لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هباً للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالصران وأن يقيم بها الجامع الأموي العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدثهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زينت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْساء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتراويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، قُتِلَ قتيبة ولم يعرف مصر موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسّته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد أُلْغِيَ سبُّ علي بن أبي طالب على المتأبر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخُفِّفَ من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوّى بين العرب والموالي في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذي لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهي ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذي اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقُتِلَ وصُلِبَ ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنَى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبي فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفي هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفي بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانفض عنه بدو الشام ، ونشبت فن كثيرة أضحت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعية . ولم تكد هذه الفتنة تبدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمال العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة ونجته إلى الشام وتخل عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوسير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأيدوا بوحشية ، وتُبشّت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والكنال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(ج) زمن الولاة العباسيين

سقطت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الأعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فغريهم منهم ونسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام ، مما هيأ بعد نحو عشرين عاماً لثورة القيسية في قيسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفياي ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفر السفياي إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر . ونمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفياي جديد هو علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفياي ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته. أهوان الأمين واختفى بالجزيرة بالقرب من دمشق وأقام بها أياماً ومات . وفي سنة ٢٢٧ لهمد للمعتصم ثار بفسطين المبرقع أبو حرب الجبالي وزعم أنه السفياي المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكة لادعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وجبسه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن علي بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق فضحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً في منجبة مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولي الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وجسه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبدالله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا والياً لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سبباً في أن لا يُعتمد الولاة بالتهوؤ ببلدانهم من جهة ، كما كان سبباً في أن يحاولوا الإثراء سريعاً قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثورتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمانية لم تمنع بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينها نار العصية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزَل طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منها . وأخيراً أرسل اليها هرون الرشيد وزيره جعفر البرمكي ، فأطفأ نار العصية المحتدمة بين الطرفين بتجزيتهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفساً ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المتصم فيرسل الواثق خلفاً له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفاً وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحياناً ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . وما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيراً من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتة ذاهبة إلى شمالي الشام آتية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في اثنتائها على ثلثة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر نيقفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقّاً وأوطئوهم دَلّاً وصَغَّاراً إذ هدموا أنقرة وحرقوا عُمُورَها وأمنع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة . وبظل غزو البيزنطيين صيفاً في أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور في شمالي الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمني والفارس المغوار عمر

ابن عبد الله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبه ، وبقي له قصراً بالعوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا بروايتهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سائرأ عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلت بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(٢) الطولونيون - القرامطة

١- الطولونيون^(١)

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يفتى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليا في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غالباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه للمعتد ، غير أنه كان مشغولاً بشورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهر ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكتب للموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتبليته ، فأرسل إلى الخليفة المعتد وكان كاهن مجبور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتد على اللحاق به وتبى للموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يتقاضى الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولما

(١) الإسلامية وتاريخ النحوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي وماترة الماروف

للمعهد ، ولم يرّد على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى ثولوجيشا لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق في فقراء دمشق والقوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلّفه ابنه خنارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، ففى خنارويه بالهزيمة ، وتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجاب ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرّ خنارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها بروج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خنارويه بالقتل فانفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو الصاكر جيش » وعكف على الشرب واللهو ففقر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بسبعة أشه ، وكان لا يزال صبيّا ضعيفا ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فسادا في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتنن وأغاثنهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أي مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلّفه عنه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدّثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبدالله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري ،
وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق لليخاندادي .
ودراسات في المنصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الموري

القُتّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في «سَلَمِيَّة» بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطي يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه . وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قَرْمُط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم ينبع إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنو العَلَيْس . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فابيعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . لمّا آتته له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يمشون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه اللثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمرة فقتل ونهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعاني ضحفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكني ، ولهي استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأُسر هناك وصُلِب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبْرِئَة فانتصر على أهلها ودخلها وقتل بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرَى وأذرعَات ، وتعبّته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهي حركة

زكرويه وأولاده ودعائه في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سلیمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولادة مختلفين .

(هـ) الإخشيدون - الحمدانيون (سيف الدولة)

١ - الإخشيدون^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُفَّج ولي مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تَحُلَّتْ محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، وابتلى به الإخشيد في القُرمَا ، ويتم بينها الصلح . وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتصيان ثانية في العرش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شاليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتزح الفرصة الإخشيد وجهاز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى القسطنطين في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوف بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرا ضخما ولقبه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما يده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فظل لأنوجور . وينزل المنتهى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المنتهى لما يخلفه أخوه علي ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين علي

خلكان وخطط القريزي ٦١٧/١ ومصر في مصر
الإخشيدون للدكتورة سيدة كاشف.

(١) انظر في الإخشيدون كتب التاريخ المذكورة في أول
الفصل وخاصة النجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
لأبن خنري برميه وانظر ترجمة الإخشيد وكافور في ابن

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي بانفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورّقه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولى بعده على بن أحمد بن الإخشيد . وكان صبيها ، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب . وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين .

٢ - الحملاتيون^(١) (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة مardin في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مرنا - غير أن للصريين ردوه على أعقابهم فاكثى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ماسلوه من أهل الشام . ويُكتب له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة بالمتنبي الذي نزل بلاطه حيثئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

سامي الدخان) وراجع البنية للتألي ١٥/١ ومايلهما ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحملتين وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحب في تاريخ حلب لابن المديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصب عليهم فيها سنويا كلعصار محرق مدمر ، وشاعره المنتهى من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة تادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مَرْعَش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبتق ولا تذر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوفاً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والحزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لابلوى ، وأسر صهره بينا كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستر بيني حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبرون ويهتلون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى بمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمال الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفي شمال الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهم الجوبين المنتهى وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحرفى فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يتركهم ماثوذا من التكنيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصى نهض البطل من فراشه وصد بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لُبى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على كَبَّةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُقِذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب بتقديمهم المنتهى ، وعقد لهم التعاليم في كتابه « بتيحة الدهر » فصولا طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُهُم للصباحة ، وألستهم للفصاحة ، وأيديهم للسباحة ، وعقولهم للرَّجاجة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجرد ، وقبلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلقة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل آية على حصن قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرأ أبوفراس في ميدان الحرب صريعا . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قَرَعُوبه الحاجب وأسر وأظلت منهم وانهمز أصحابه وخرَّب نفقور كثيرا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصططح مع سعد الدولة الذي ظل أميراً لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما ثورث مولى جدما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آباءه ولم يلبث أن فر إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجري ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة الهجيد

٢

الفاطميون - بنو مرقاس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكي (نور الدين) .

(١) الفاطميون^(١)

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحولت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر له سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في الهرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤمنون في الشام - بأمره - « حتى على خير العمل » شارة الأذان الشيعي . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البرهسي أن يولييه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمدّه عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بصاكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

الوزارة لابن الصيرفي وذييل تاريخ دمشق لابن القلانسي (طبع لبنان) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ وانحاطت الحفا بأخبار الحلفاء للمعريزي وكتابه المخطوط ٢١/٢ والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة: ابن الأثير وابن خلدون وابن تيمر بردي وابن خلكان في تراجم الحلفاء وجوهر الصقل والمغرب لابن سعد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن مبر والإشارة إلى من نال

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالي أن يثري بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانًا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كتورة قسام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبان ، ولا تزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعلى الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربهوته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبعًا في عهد هذا الخليفة الشاذ المجهول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدا الجزيرة العربية الشماليين من طيى ورؤسائهم بنى الجراح ، ونزى حيثل حسان بن المقرج بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبا الفتح ، غير أن الحاكم يفرى ابن المقرج بالأموال فينفذ يده من أبي الفتح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولاغنى طويلا في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلاني ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المقرج الطائي ويصمغان الجموع ويستوليان على الأقاليم في الشام ويتنيان إلى غزة ، ويلتقي بهما جيش فاطمي ،

(١) انظر في بنو مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب

من تاريخ حلب : الجزء ين : الأول والثاني .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وقتل بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفي نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفي سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، وبواقع الروم وهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجলوق ويستقر بينها الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوباً من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعاً بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(ج) السلاجقة^(١)

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دقة الحكم في غراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاباً قوياً لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلاً . وكان طبيعياً أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أئمز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تش بن ألب أرسلان من أئمز دمشق وأصبح نائباً فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنططوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

ولين ولها بعده حتى استيلاء نور الدين عليا ابن خلكان

٢٩٥/١

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلائسي وانظر في أئمز تاريخ دمشق

لابن حاكم ٣٣١/٢ وفي تش ابن حاكم ٣٤٠/٣ وفيه

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوى صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوقي وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شير شمال الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخُر صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى في حرب مع ابن أخيه بَرَكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفي دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُنْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد يضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفي سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سبي السيرة محبا لسفك الدماء توفي سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدا أخوه محمد ، وتوفي فخلفه ابنه مجير الدين آق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولّى تركانيا بسمى أرتق بيت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفي سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولدها سُكَّان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجبالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

(د) الصليبيون^(١)

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ) . وحاول بدر الجبالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لمؤلفين

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن نغرى بردى وابن خلدون وما كتب عنهم حديثا في الرعية

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه لإساحتها الجنوبية . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما مضى دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرمنية في يث المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها يزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال التَّصْرِيَّة محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على يث المقدس متخفين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رق عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريمونددى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيدا وبيروت وقاومه مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين الزنكى أمير حلب

من للتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والكواكب
الدربة في السيرة النورية لابن قاضي شهبة (طبع بيروت)
وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨١/٥ .

(١) انظر في آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة
الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس
لابن خلدون والكتاب السادس من التاجم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلماتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمال الشام مثل حماة وحمص وبعليك . ومضى يتنازل الصليبيين واستولى منهم على مَعرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك عا عار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضي سنان على ماحق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثمائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى حماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتنى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم ثوا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بجى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن قايمة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهاره ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغاماً وشارعاً وشارعاً ، ولجأ إليه شاور مستغيثاً ، فأعجبه بأمرين أبييين : شريكه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثها بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ما بين يتنازل حملة الصليب ، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا زاهدا ورعاً ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبهارة دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

الأيوبيون (صلاح الدين) - للمالك - العثمانيون

(١) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فساد بحمر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمرة وكفرطاب، ويولي على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه كركشاه ويستولى على منبج وإزاز ويواقع الصليبيين في السنوات: ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما. ويستولى على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل يتأزلم عشر سنوات طويلا، وتبعه حلب ويولي عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمرة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيوالي هذا التوزيع. وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين لأن باطلا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكده تمضي سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويُفكر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتنين.

ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيمحان ملك بيت المقدس وتتلقى سرية له في حيفا يجهاة من الداوية والإسبانية الذين نلروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية، ويتلقى الجمعان في سهل حطين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتلقى أعتاق حملة الصليب دقا شديدا ويفر على وجهه ريموند

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط القرطبي ومرآة الزمان لسيوط ابن الجوزي وفتح الكروب لابن واصل والروضتين ونبذ الروضتين لأبي شامة والفتح القس في الفتح المقدسي والبرق الشمس للهاد الأصمعي وسيرة

صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين في العربية حديثا وفي اللغات الأجنبية.

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصليبيات ، ويؤمر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال أبو شامة : « من شاهد القتل قال : ما هناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ما هناك قتيل » وما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وضحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوب لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصغد والكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخمين عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ هـ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاء المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حط عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيهارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيا مدارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعليك لبرام شاه وحمص لشركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يجرح أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلعت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ هـ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنع أخيه فجمل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان للعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحده والفاخر والأشرف موسى . وبغزو حملة الصليب مصر في سني ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر . ونغني إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعرض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فرديك القدس قامت قبالة الناس ظم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى باغا مذموما مدحورا . وتوفي الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفي على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائباً له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائباً له على مصر فرأى أمرأؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يرضي ذلك الملك الصالح فتحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتزعه إسماعيل صاحب بعلبك القرصة واستول في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بجملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفاً آثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بتزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على عتفة لشدة مرضه ، واتجه توجاً للقاء العدو بالمنصورة شألى الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لجى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مرتبنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقاً ذريعاً ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسئلت له شياطينه أن يلعب إلى حملة الصليب في الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أهدرت بمصر ويق بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهوراً . أما توران شاه فجزاه ممالك أیه جزاء ستمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ودرجت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيلك مملوك أیه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين :

(ب) للمالك^(١)

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المالك ، وعُدَّهم الحكام الأيوبيون في الشام مفتنسين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعماء الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المزيك التركاني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينها لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضي قائد هذا الوفاء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسيول التار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وغرَّبها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر ومثلك حرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شامى دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التار على حلب معقلين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وقرَّ الناصر يوسف وأسرته التار ، وبقى معهم في ذلِّ وهوان مابعد هوان .

ومضى التار يقتحمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد يتظرهم على يد المصريين والبطليين العظمين الملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحرقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس قلوبهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة المالك (ماعدا حماة) لأن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاه قلاوون ابنه تق الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المريد أبي القدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليا بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمالك يولون عليها من يشاؤون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم ويتنازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

(١) تاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبك في ذيل السلك للسفاوى وأخيرة المالك لابن زنبيل وبروكلمان ص ٣٦٥ .

(١) انظر في الممالك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلك للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي القدا والبداءة والنهاية وديان الزهور لابن إياس

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية وبافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسطبارية الذين نفروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صفد ورتين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبُغْراس والقَصْر وحسن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التبتون . وأعظم أنجاده الحرية ضد حملة الصليب أخذَه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه مما هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأفق من حيث أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث أن استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطراطوس ، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراهه يحملون الذل والفضة والمهوان والصغار .

وقد قسم المالك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان للملوك في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجل سلاطين مصر يكثر من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (فييت) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقبيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم تاروا على السلطان فرمهم خارج الحدود اثنان وسبعين خمسة وأعدم خمسة وعُفي عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ماسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتاب السرى والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المالك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهري بمرس في سنة ٦٩٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المالك .

وظل التار يتنوّن من عار الهزيمة الفاضحة في عين جالوت ، وظلّوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلّموا بتحريك بيبرس فولوا مديرين . وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنجج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عينتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقّت بهم الهزيمة جميعا . وظلّوا يعاودون المناوشة وهاجموا البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظلّ التار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويوهون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقبه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بمجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المالك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهب جنوده التار ويشعلون فيها النيران وتأتي على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثلها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والمهنة والمعار وصنّاع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفن حدثت في الشام لعهد المالك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصراع ما حدث من تحول الملك من المالك البحرية إلى المالك البرجية الجراكسة على يد برقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من التزاع المستمر بين أمراء المالك ، حتى كانوا يقتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم

المالِك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم الثاني على أبواب الشام في مَرَج دابق .

(جـ) العثمانيون^(١)

قضى سليم الأول العثماني على دولة المالِك في الشام ومصر بعد هزيمته لقائصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقبه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرهما . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سلباً ومن خلفوه من سلاطين آل عشان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حوّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحوالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكانوا توَسَّم أهل الشام أن العثمانيين سيمهدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فرَّ إلى سليم من المالِك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين . وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وغرَّ صربها عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نهايات على رأس كل نهاية باشا : أولاها نهاية حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نهاية طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثها نهاية دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيدا وناہلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيدا ببنية مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نهاية طرابلس في لبنان .

لساطع المصري . ومقدمة تاريخ العرب الحديث لمحمد الكرمي
خرابة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ١٤٤٨ ،
وتاريخ العرب (مطول) للفيصل حني .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن لابس
وأخرة للمالك لابن زبيل وتاريخ الجبريل والمخطط
التوفيقية لمل مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . ويحاسب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنع أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أوريون من أجناس مختلفة كانوا يُربّونَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلا كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المالك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حروفش يعطيك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالي إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثماني واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يؤلون ويعزلون من الولاة ، حتى ليؤلى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدروز . وتنتهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . وغضى إلى سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م فيسط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالي بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م . ويلبى بعده أحمد الجزار ويلب دورا شييا بدور ضاهر العمر ومحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تزدى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثماني ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجمع^(١)

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسية الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحبيشيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الفساسة وغير الفساسة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذي هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسي في وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامي جميعه في وحدة عرية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عوناً في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنهز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموي في رخاء لم يبلغه هذا الاقليم في أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قح وغير قح . ومن قديم أيضاً عُنى أهلها بالصناعات : صناعات الحزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والمهارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضاً على المهارة في التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسية وأوروبا من قديم ، وظلت تجاراتها تكون مصدراً أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال الصليبيين لديارها ، فقد كانت من أعتى

(١) الشام لم يذكر على الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في مجمع الشام كتب التاريخ العام وشرح البلدان للبلاذري وأدب الكتاب للصول وذييل تاريخ دمشق لابن القلانسي وغمرات الأوراق لابن حجة الحسوي والمجابهة

الأزمة إلى نهاية زمن المالك الباب الكبير لمرور نوابل الهند وعروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل . وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الفسائية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التهرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكونون شطرا منها في سكان الشام ، وكان الشطر الثاني ، وهو الأكبر ، متحضرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقربون زعماء البدو ، ولكي يدروا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجواري أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم في الجيش العربي . وهي بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الحامية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرققوا بالربعة فيما تؤدي من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولي - خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنشرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفياه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استئجار ، وكان عثمان بن عفان أول من سن هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قرش

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُني عناية واسعة بأهله ونفقائه . وبني لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنُّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد الثَّوروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تتم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموي بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مرُّ بنا - لصنع التَّسْيِيساء في جُدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من ييزنطة ، غير من استقدمهم في تشييد ونقشه من مصر وفارس ، وقد مثَّلت فيه أشجار وقُرعت أعصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعہ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنَح السخرة منها باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتبنى في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عن أسلموا من الموالي بحيث ينسوى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوقى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادهو في دمشق والبادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتي تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجاري .

وكان العباسيون في القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاية الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدد في استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : ولبت الشام وهى جنات وعيون وجملتها أجردة من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته في مصر أخذت تتمتع وخاصة في عهد خنارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس في رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينقعه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة ^(١) .

وتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمته في أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات تزهق الشعب الشامي إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الإرهاق غايته في ولاية الملح بن حيلدة الكتامي لما سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم في الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حيثند في الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تندب بيبائه وروثه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم قاذح في جمع الضرائب دون أن تستخدم في مصالح الرعية كما صور ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وমানصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحصر الحكم الفاطمى إلى

والثغور وإنما كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .
ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حيثند على العواصم

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستول على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُفُتُكِين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثان في الأمصار كانت بطريفة فيقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية للجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طُفُتُكِين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالي الشام ، وكان قد أصبح غرابا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلاّت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحماة وبلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والحب واللين . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشق الأمراء من سجن كبيه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ما صبأ في حجور الناس من القناطير المقتطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهد بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بلبك ودمشق حين أظفلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فجار المسلمون يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل يتزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعها جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لآفة من تواصل الحياة بين العرب المسلمين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشغولون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - في عافية : يتعاضون ويتبادلون السلع وحُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض في سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل في البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان في المجمع الشامي طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعياً والشام دائما حاملة للسيف أن يشع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس في إحسان الرماية . وكان أهلها يجارشون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تخرج بالأقنعة الحريرية وبالطيب والعمود . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عهد الملك بن مروان الذي استقبل ابن مِسْجَع مغنى مكة وغناه الغناء المتفن على نحو ما أشرنا إلى ذلك في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْعًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيْج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جواري المدينة المغنيات ، وهما حَبَابَة وَسَلَامَة الْقَسَّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجي ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قَوْمَتُ بَأْلَف دِنَار .. حَبَابَة عن يمينه وسلامة عن يساره . ونشأ ابنه الوليد في هذا الجو المشبع بالتلف والخنمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته في كتاب الأغاني ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخنمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا في المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له في قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج في ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقِّع بالطلل ويمشى بالذُّف على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب في أن شيئا من ذلك كان ينمكس على أهل الشام في دمشق وغير دمشق . إذ يوجد في كل زمن منحرفون ينفسون في اللهو والخنمر وشرب الدُّنَان ، وكان يهين لهم ذلك في الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون في الطيعة بين الأزهار وغناه الطير وفي قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزرجس والأصحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر في تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ جِبَّة الحموي في كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر. فنزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأضوا في منزله ليلة ماجة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشايتهم ، فشرىوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودقاقة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلى وسألهن في الصباح أنحبون الذهب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والتزود أو القراءة في الكتب . والخبر تدخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترققات . ويبدو أنهم كن من عوامل شيع الإغناء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد قتيبا دمشقيا توفي سنة ٦٣٢ هـ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المحرقون بالمجتمع في لهوهم حيثن عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الخشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الخشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين يمثل هذا الأمر ، ولكن المجان كانوا يعمدون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليا تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذنه عنه الملحنون وأهل الملاهي .

وظلت الشام تفيض في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠٦ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لذك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مر بنا - نهباً وسفكاً للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسي جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في جبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مرّ بنا من صفوة صناعتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق للحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عاثرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمى الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمرأهم وبعض نسايتهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومرّ بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرًا ، وتابى بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والحقائقات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر يبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مرّ بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيئ إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التضييق السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيا ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية النعمة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستثمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل هم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدرزية - الإسماعيلية التزولية أو القداوية أو الحشاشين .

(١) الإسماعيلية والإمامية

مُرَبَّنَا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبدا لله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمِيَّةَ قُرب حِماة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثنى عشرية الشيعة . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن قُرُ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعائهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تُقَصِّرُ إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق المثل للعقل الكل وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يجتمعون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعه ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقاً وعدلاً ، ويسمونه فى أثناء غيبتهم الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذى ينتقد العالم من مفاصده وشروره . وعند الإمامية أن أنتمهم وحدهم يتميزون بمعركة المعاني الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أنتمهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يسيئهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتقبيها من الشام سبباً فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون فى حلب وأيضاً بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالي الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالبة هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالقداوية والحشاشين .

(ب) النصيرية^(١)

فرقة شيعية غالبة غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النصيرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلاً بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكته العالى ، ولا يلصقون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعل بن أبى طالب ، ويحلفون بعل قاتلين : وحتى على العلى الأعلى ، كما يحلفون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشرعية فى الإسلام لجورلدهنر ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانهم للدوس طبع باريس .

(١) انظر فى النصيرية فرق الشجرة للتونجى والمثل والنحل للشهرستانى وصبح الأضنى ١٣/٣٥ ، ٢٤٩ ، والتعرف لابن فضل الله العنبرى ورحلة ابن بطرطة وحديثه فيها حين زار

قاتلين وحتى النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كمعصر النور وعناصر مسيحية كمعصر قداس الحمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعل : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول النوبختي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يحلون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق يديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيير : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعائهم لنحلهم الغالية المفرطة في الظواهر هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناهم يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته في الشام أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمرهم أن يعمرُوا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يحووا منها المحصور وكل ما يتصل بالآثام ، وصعدت قراهم لأمره .

(ج) الدرود^(١)

الدرود فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيل أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأقوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لا هو ت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنفذته منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وديان قرية بانياس غربي دمشق ، وأخذ ينشر دعوته في منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا في القسم الجبلي من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادي وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو في جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيب بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كركم بالقرب من صفد في فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم في أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم في أيدي عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يمحاهدونهم في زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين في طردهم من الشام . وألبوا بلاء حسنا في حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا عُصّة في حلق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدمة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل في كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزي وتلميذه بهاء الدين أن يقتنوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّدُ إلهي وأنه يتشكل في صورة بشرية هي الصورة الإنسية التي عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله في الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندي عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بيهبته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة في رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره في صورته اناسوتية ، . وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة في العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص يتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل في أجساد تهبط به في الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطائفة في قولهم إن الطائفة هي المولدة ، والموت بقاء الحرارة الغريزية كانهفاء السراج بقاء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسطة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جملوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولم دعية خاصة ينتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلائم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبادقه التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجعاعة .

(د) الإسماعيلية^(١) النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مر بنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وسأله من الخليفة بعلك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسمت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجبالى أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستمل . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستمل وقسما شرقيا في إيران يمثلهم الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ و ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها .

عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح

الأعشى ١٢١/١ و ١٢٦/٤ و ١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن

بطرطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المهدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لاف أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم النجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تثنى السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيال سنة ٤٩٦ هـ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن قامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفتدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ هـ صاحب الموصل آق سقر . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من ألمات ، وتقرب من طغتكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردخاني وزير بوري (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتكبيته من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ هـ لتنفيذ المؤامرة وفضن بوري قتل أبا الوفاء ووزيره المردخاني ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون الترابيون في بانياس يمتدون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلاص الأمر لرشيد الدين ستان منذ سنة ٥٥٨ هـ أخذ ينظم هذه الجبهة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهي مصياف والرصافة وقنقوس والحواري والكهف والسيفنة والطبقية ، مركزا للدعوة . وبعده دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلح والعنادر ، وكان ستان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في تنازله ولكنه توفي قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين ستان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليقبضوه ونجى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرّد لهم في سنة ٥٧٢ هـ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيع عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليضرب مريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك قلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالي رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بمضى القلاع سنة ٦٥٨ بينا ظل الدروز يقاومون التار - كما مرنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر يبرس بعد قضائه على التار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانياً يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر يبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعاً ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاء حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بليزان ، بل أبى عليهم ليفيد من سفاهتهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم نفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لمهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يعصب من يمدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه دينه ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه ففى له ، وإن أصيب ففى لولده » . ويقول القلقشندى نقلاً عن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخاف بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يزال أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فحين عن قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهائية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهائى الخطير الذى كان يعتمد عليه يبرس هو « شبة » المدفون بمياط .

الزهد ^(١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتأبعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبة . وتمتلك كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حتى عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة قانع الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزازر حبيب جاء على قاقة ، اللهم إنك تعلم أبى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكزى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأحلاق الخطيرة فى ذكر أنراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدعان) ورويات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض للتصوفة والزهاد وابن تفرى بردى والبد الطالع للشوكافى وروى الرياحين للياضى وخلاصة الأثر للمحى وسلك الدرر للرمادى وتاريخ الجبلين وجولة تسير ودائرة الطارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من صبيانهم ، وراجع فى معاذ تهبب النوى وفى أبى الدرداء البيان والتبيين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلى والطبقات الكبرى للشمراوى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحميد عمود) وكشف المحجوب للهجرى (الترجمة العربية) ونهذب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للقسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصفة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتغمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُفْقَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخط ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع ^(١) ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدى الله لأبدرى أيومري إلى الجنة أم إلى النار . وأخذ يتكاثر بعد جبل الصحابة في الشام العباد والأتقياء ونلتقي بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتشف الزاهد الذي يخشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومربتا أنه رفع للكوس وضرائب السود والمباير عن الناس وأنه سوى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحط عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعث جاييا . وبفيض ابن سعد في ترجمته له ببطاقته في بيان زهده ورفضه لتنازع الجباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطلب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النكس والتعب حتى اصفر لونه ونخل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلعبون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سالت الحدائق - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتي بذكر بعض من تخرج بهم كعب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النكس ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا وأخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها بتعبه الله .

ونسبح كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعب ^(٢) ، ومنهم من كان يتعب الله في جبال أنطاكية والمصيبة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

جبر^(١) . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بحوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغري بردي : « كان من واسط ونحو إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماماً حافظاً كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أننى عليه الأنمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول المجويزي : « كان ربحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجعلاً عنه راضياً ، ويذكر بروكلمان له كتاباً في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراً . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبد الله ، وذكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ربحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابداً تقياً صالحاً توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباده وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكانما اتخذوه رباطاً للحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مراراً في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يحاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان تغير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

مضى سُمّ للقام بحد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجردى
(شأن الوصل) يلقى بها المريدان للقطيع إلى الله عز
وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبر في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان
الحجر يتال على الغرباء من الخطباء وللطمين لاق دمشق
وحسناً بل أيضاً في القرى والضياع ، ومن سُمّ للقام فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضاها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحقان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تفرى يردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فالتقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء . » وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو متره عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى القسطنطينية ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقه للتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فاجاباني ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما على السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقمته الصوفية فنظر إلى ورد السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل وما بينى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصى (تعي) ظمأ كان وقت العصر قلت له : عطشنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقدا على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والناسك يؤثرون جبال الشام ويقومون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعر برى ويلبسون الصوف . وينبئ أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية . ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن ينخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري . وغيرهما كثيرون مثل الخنلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ هـ وهو أستاذ المجهوري الغزنوي الأفغاني ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى لنسك والتقوى والعبادة .

وواصل إلى سنة ٤٨٨ هـ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائع الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحللول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شمواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورأى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأنتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فائحة الشام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخاناتها للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تشل خانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي وناوهم وأمرأهم ببناء الخاناتها والرُّبُط في ديار الشام ووَقَف الرواتب والأموال التي تتفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاصة بدمشق خانقاهاتها وحدثها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عديرا طائفتها بلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرافعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي .

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد باق أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الإيراني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمتها بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكميم الصوفي من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ هـ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة في إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنكبون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويعلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان يحيى الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وقد تلقى تعالجه في إشبيلية وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل في مكة فترة ثم بارحها مغطوفا في البلاد العربية ودخل الأناضول ، وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ هـ . وكان إماما في التصوف الفلسفي للمقائل بوحدة الوجود وصنف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجز من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيها بعد لكى يظل التصوف الفلسفي - على قلة - حياً بجانب التصوف السني ، وكانت عباراته في كتاباته تحتل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي ، وجعل ظاهرها كثيرين يرونه من جهة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشمراني .

وتمتد دولة المماليك بالخانقاهات والربط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتي القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسساها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام غيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيها يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهي حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدعته واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضددهم نارا حامية ظل يذكرها بوقود جزل يزيدها لهبًا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد ترعد وتصوف فصحه جماعة من الأراذل ، فهون لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى ، وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاخفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السيمسابة بدستق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي ، وشاع أمره فقبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزني والذهبي ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسساها محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلوية ولا تقيم وزنا للسان والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمد يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انغرفوا عن الطريق السيئ . ونحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونعنى إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحَّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو ما نجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد قلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفيلسوف وغير الفيلسوف ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تستقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها في مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل في شواطئها فتشارك في الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلال الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تعمق الثقافة الهيلينية في زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا في تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعلت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور في مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة في صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة في مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان في بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بثلث المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية في الأدب اليونانى ولمع في صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديبا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا في عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهينة التي أسسها أحد قساوسها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزوة لقرها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر المملوكي تُعدّ ثالثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

وما يدل بوضوح على مدى تأثير المبلينية في الشام أن نراها تتعمق باديها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامعة إليها في عهد أذينة . وحين خلفته في الحكم أرملة زنوبيا اتخذت لونيغينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أحلعه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو بوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغة كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها نراث يوناني ومسيحي^(١) بعدها للمشاركة سريعاً في نشاطها العلمى والأدبى بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذى كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعُنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فينبوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مربنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفى ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستائة ونيفا ، وكان يحملهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم بصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف فى شيء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا^(٢) . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطناً ، ثم

(١) انظر في هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النباهة في طبقات

« تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لتلييب حتى - الجزء الأول - الترجمة العربية .

القراء ، لابن الجزرى (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١ .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ ولها معاوية ، وطبيعى أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس فى شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومن يعظمهم ويبلغ تأثير وعظه شفاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتنونهم فيما يحسد من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسطه أو نحو هذا فاكبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه . ومائتلب بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن تلقى بفقيه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب ملعب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ييموت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا يفتقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يطمعون الناس العربية فى المساجد حتى لا يخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصر الخلفاء وأمرأ البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا تؤدى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من يتاييها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية »^(١) .

وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجمل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لا تقصّر ، بل دائما تُجبرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللفظية .

ويُظَلِّ الشَّامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إذارات الرواتب على العلماء ويُطْرَد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن حُمَيْد بن شُرَيْة الجهمي ، وجعلها حيد موضوعا لسره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طُبِعَ له في حيدر آباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختفون في الشام ، على نحو ما ستضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣-٣٥٦ هـ) حين أظَلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرها من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الحارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سدا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَلَّ بهم وبمجموعهم مرارا وتكرارا . ويجانب هذه البطولة الحارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاص من الفلاسفة أمثال الفلذاري للملم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جنى وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرمي علماء الطب وألفاظه ، كما يرمي بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول التتالي ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه البتيمة أمثال التامى والبيضاء وألؤلؤاء الدمشقي والمحالدين والسري الرقاء وكشاجم وابن نباتة السعدي . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكنى أنه نزل عنده لمدة

تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمنه : انتهى الذي ملأ الدنيا بوصفه لبطلته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفي أثنائه يتخلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر في يدها لأوائل القرن الخامس الهجري حتى استولى عليها بنو مرداس كما مر بنا في الفصل الماضي ، ولا يبق معها في العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم في تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أبنائنا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التي كان ييئها للفاطميون ونوابهم وولاتهم للعلماء الشام . ولكن يكفي أن تكون الشام أنتجت في هذه الحقبة أبا العلاء أكبر مفكر متفلس إسلامي . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه ، يكفي ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، وبصور ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حيا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفهم الحاكم ، فأنشأ بها دارا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها في تنوع الدراسات بها وفي جلب الكتب الكثيرة إليها ^(١) ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا في الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قلدوا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهي لا تزال ناشئة في المهد .

وبدخل أكثر الشام في حكم السلاجقة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس في المدن الكبيرة لدولتهم في إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربي بجميع فروعه شيعيا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرة^(١) بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتاك الماسكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة^(٢) للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجة بناها حاكمها الأرتقى بلر الدولة أبو الرّيح سليمان

ويُظَلُّ الشام لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بجروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم المالك بحيث تردهم في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقومون فيها للراحة والنوم . وكانت تلتحق أيضاً بالمدرسة خزائن كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورُه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة ، بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرها من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدّ ابن الشحنة منها في كتابه الدرر للمتحب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعُد لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الحظيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة خنبلية . وبالعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

بجلبا مدرسة سميت الجاروعية وانظر في حديثنا عن المدارس للمصنفين السابقين .

(١) الأعلاق الحظيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والمدارس في تاريخ المدارس للشمس ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمانة نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يَينَ للمذهبيين الآخرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يحتفظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبك ومنبج »^(١) . وبجانب مدارس للمذاهب الفقهية عتوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولى مشيختها الحافظ القورخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النووي .

ويدون ريب بحث هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء في كل علم حتى ليموى العماد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزع في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستائة دينار فخص كل عالم دينار واحد^(٢) ، أى أنه كان بها حيثئذ ستائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضره . ومابالنا إذن بما كان يتفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لابد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته : ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إضرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فنضب من ذلك غضبا شديدا وزجر صاحبه زجرا عنيفا . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته ما يطيعه الفرصة لحضور مجالس العلماء مها بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السلتي الحافظ المشهور^(٣) واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بصمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضا

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ . (٢) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على

العلق أيضا : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

(٢) الفتح القدسي ص ٤٨١ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو^(١). فسلطين بنى أيوب كانوا مثقفين^(٢)، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة.

ويُعدُّ صاحب الأخلاق الخطيرة للمشرق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس. وظل هذا الحشد المائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن المالك وأخذوا يضيفون كثيراً من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعريّة. وحققا كانت كثرة المالك غير مثقفين، وهم من هذه الناحية يخطفون عن سلاطين بنى أيوب، ومع ذلك عتوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدرسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلاطين: بروق والمؤيد شيخ وقابنای والغوري.

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المالك، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ للتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وقته بصير بالشعر، ولكن كان بينهم دخلاء مشحونون جعلوا العامة يتلقون بالأولياء، ومنحورهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ مايريد المتوسلون بهم. ويقف المستشرقون عندما نزل باين^(٣) تبيّة من محن، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلاً على جمود الفكر الديني حيث لا ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماماً حنبلياً يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية. ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحرراً فكرياً، وقد حارب الصوفيّة في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدانية الوجود، وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأنتمهم من العصمة وتمثيل العقل الكلي وما يتصل به من تجسد الإله

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها

(٢) بما يذكر عن هؤلاء السلاطين أنه كان لهم بعض مؤلفات، فكانا كان للمظلم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للتصوف محمد الأيوبي صاحب حياة كتاب في تاريخها ومن زادها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الأجدد الأيوبي صاحب بطلك بمحضر دروس الحافظ البيهقي، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفاً ما بعده شرف.

(٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الولايات ٦٢/١

والنجوم القزاهرة ٢٧١/٩ وللنبل الصافي ٣٣٦/١ وذاكرة الحفاظ للجبلي ٢٢٨/٤ والتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٨/١ والقول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لفضل الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمحمي الكرمي وابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة وابن تيمية للتذكير محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة وذاكرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى بفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجائه . وهى هجمات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حاة عما في القرآن الكريم من آيات قد تغيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها كمثل : (الرحمن على العرش استوى) و (يدُ الله فوق أيديهم) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة : أن واجباً أن تؤمن بما جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بال مخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ما اتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفضوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المهنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرقاعية ومايموه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدّعونها ، وشكّوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مربنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فآله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضعاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكوا عليه بالسجن وظل فيه عاماً وبضعة أشهر . ولبت في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما أوقع به خصومه بدهوى حَمَكه على أصحاب المتزيع الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رُق عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردَّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق ونشرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله بكثرة عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدُّ طلقة واحدة . حيثلث ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أُجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصعد السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا في سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لهاكمته ، وسُجن ولبت في السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصي ، فاحتُقل بسبب هذه الفتوى وجُمِل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنِع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهاداً منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولست بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبت أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلاً - كما مر بنا آنفاً - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً على مصاريمه طوال زمن الماليك حتى بين الحناابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية براعها بعد أربعين سنة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تفرى بردى يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثبتا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكاني قوله عنه : « العلامة الأوحيد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقلوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوجد علماء الدين .. محيى السنة ومن عظمت به فقه علينا الميثة » .

وعلى هذا التحركات الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطلما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أطل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جفوة منها متقدة في بعض المدارس والجوامع وخاصة في الجامع الأموي بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومُرِّباً أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءاً شديداً ، وأخلت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذى وضعه الظاهر بيبرس وظل قائماً طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضى عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العرية في دواوين الولاية ، واستخلموا مكانها التزكية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العرية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها : صور وصيدا وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية طيبان من الأطباء المتميزين في دمشق حيث ذها ابن أنال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة^(١) ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية^(٢) . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لحالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتب الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتابا ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »^(٣) . ونمضى بعد خالد فلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٤) وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه^(٥) ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التي عنيبت قديما بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة (٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١

الحياة ببيوت) ص ١٧١ . (٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥ بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

أبجر ، ويتخذ طيباً^(١) له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضاً أنه أمر بنقل كتاب القس أمرون الإسكندري في الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه^(٢) البصري . ولو أنه فكر حقاً في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفاً - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالماً رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية^(٣) ، ويذكر بروكلمان أنه ترجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم^(٤) . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعاً بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل المعنيون بطوم الأوائل يتفننون في هذا الجبو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعني بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها في القرن الثاني للحكم^(٥) بن أبي الحكم ، وكان أبوه طيب معاوية وقد عُمر طويلاً حتى لحق القرن الثالث ، وكان طيباً مسيحياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى^(٦) - على غراره - طيباً ، واستقدمته أم ولد للرشد لمعالجتها ، وله في الطب كناش كبير . ويبدو أنه أسس في دمشق مرصد كبير ، إذ نرى للمأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرساد تمت في بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال^(٧) ويطبق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير .

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح^(٨)

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف)

٩/٤

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجاً

نحيها بالكواكب تول الرصد للمأمون على جبل قاسيون

بدمشق، انظر القفطي ص ٣٥٧

(٨) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودوى بور ص ٢٢

وطوم اليونان لأولوى ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتمد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغايط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطيبي ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابا منسوبا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أوروبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندري ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونغضى إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسطا^(١) بن لوقا المولود ببعلبك في أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيون . وذكر له ألدوميل ترجمات أخرى : وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة في العمل بالكرة الفلكية ، والجامع في الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حشيش^(٢) بن الحسن الأعمى الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله في كثير من ترجمه ، وما ترجمه عهد بقرط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد^(٣) ابن يعقوب الدمشقي وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجي (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدول لأرسطو ، ونفى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفي مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لابابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتابا لجالينوس . وهذه الأسماء التي ذكرناها إنما هي رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة في عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب في زمنه يلمون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاده في حلب أكبر فيلسوف عربي في زمنه الفارابي^(٤) ، وقد ظل عنده حتى لبى نداء ربه سنة

(٣) انظر في سعيد ابن أبي أصيبعة ٢٨٢ وبيروكلمان

١١٨/٤ وألدوميل ص ٢١١

(٤) راجع في الفارابي ولفظته ومراجعته كتابه العصر المباني الثاني ص ١٤٠ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة قسطا القفطي ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة

٣٢٩ وبيروكلمان ٩٧/٤ وألدوميل ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع في حشيش القفطي ١٧٧ وابن أبي أصيبعة

٢٧٦ وبيروكلمان ١١٧/٤ وألدوميل ص ١٤٣

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيا وفكريا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبى والعلمى والفلسفى بالشام لتلك الأيام مذكره القفطى عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسى كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لطعين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية ^(١) . وذكر القفطى بينهم فى موضع آخر من كتابه ابن كسكرايا ^(٢) وكان طبيا مشهورا عنه فيما بعد عضد الدولة البرمى باليارستان للنسب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم ^(٣) الرق ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل فى بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة فى حلب ودمشق ، يدل على ذلك مايلقانا من أطباء مختلفين فى تلك الديار مثل البيرودى ^(٤) فى القرن الخامس وظافر ^(٥) بن جابر السكرى ومبشر ^(٦) بن فانتك فى نفس القرن ومثل ابن الصلاح ^(٧) وابن البندوخ ^(٨) فى القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباءهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخيرة شديدة ، وسجل على الصليبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ماصور ذلك فى كتابه « الاعتبار » .

وندخل فى زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى ويمن يعالجه من الأطباء ، وتنشأ لهم بيارستانات ، يتزولونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٤

(٦) القفطى ص ٢٦٩

(٧) القفطى ص ٤٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٦٣٨

(٨) ابن أبى أصيبعة ص ٦٢٨

(١) القفطى ص ٢٥٠

(٢) القفطى ص ٤٠٣

(٣) القفطى ص ٤٢٩

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٠

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته بيارستانين رأهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفظها وأكبرها وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المتهوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكرّون إليه كل يوم ، ويتفقّدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسب ما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن للارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجدي أكثر ، ويذكر أن للمجانين للمعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موقوفون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيارستانات تبتنى في ديار الشام حتى لتتقارب مارستانات في صَرْخَد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلمهم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بـشمس^(١) الدين اللبدي التوفي بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في البيارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخْوَار^(٢) مذهب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بيارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفراد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فضلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقَفَّها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسما ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، ونحو كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، وتلقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد^(٣) الدين الصوري للتوفي سنة ٦٣٩ وُلِدَ بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقنص ستمين يعالج الناس في بيارستانها ، ثم انتقل إلى

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر في الدُّخْوَار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ ولغات

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

الوليات ٥٦٣/١ وألوميل ص ٣٢٠

دمشق وقُرِئتْ إليه رسالة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّينُ (جمع لينة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيرها مما به نبات يختص به ، وبشاهد النبات وبحقيقه ، ويُرى للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوره . وسلك في تصوير النبات سلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصور في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت يسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم ^(١) الدين اللبدي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فيسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة ^(٢) الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الموامش ، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغِفَ بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في اليعازرستان الناصري مدة ؛ ثم جذبته إليه أمير صرخند بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاية العلوم والآداب المتعديين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونغصى إلى زمن الماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا وبلغنا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف ^(٣) المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

ص ٣٣٠

(١) انظر في اللبدي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ ونسخت

(٢) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ والنوميل

الشام لكردي على ٤/٤٦٦ ، ٦/١٠٣٦ والنوميل ص ٣٧١

ص ٣٢٢ ، ٣٢٦

(٣) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩

وابن سكتي ١٣/٢٥٧ والشفرة ٥/٣٢٧ والنوميل

آبى أصيعة ، وكان طبييا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض فى حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة فى صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن ^(١) السويدى إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيدالة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله فى الطب « التذكرة الهادية » وفى الصيدلة « الباهر فى الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء المؤثوق بهم فى هذا الموضوع كالبيرونى والرازى وأبى حنيفة الدينورى . ولا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات فى بلدان الشام المختلفة ، وبقيض ابن آبى أصيعة فى الحديث عنهم ، وأيضا لا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن آبى أصيعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزياء والرياضة والمهنة أو الفلك . وقد مضت الأجيال فى زمن الماليك تهل من موارد هذه العلوم واضحة نصب عيونها ممارسة الطب فى البيمارستانات المنتشرة فى بلدان الشام .

ومن نبغوا فى الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين ^(٢) بن الشاطر المؤقت فى الجامع الأموى بدمشق وله كتاب فى الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن ^(٣) الهائم القرصى شهاب الدين المدرس بالقفس فى المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة فى الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعنى كثيرون بالتأليف فى علم المنطق . وألفت كتب كثيرة فى ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفى بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين فى العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسى الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية فى الشام من تدهور فى أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يترأى من حين إلى حين فى الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافى وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حيثئذ تذكرة ^(٤) داود الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهى مهمة فى وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل فى الطب طبع مرارا .

(١) انظر فى ابن السويدى فوات الوفيات ٥٤/١ والنيل

الصفاح ١٢٤/١ وأندوسيل ص ٣١٩

(٢) راجع فى علاء الدين الشفراء ٢٥٢/٦ وأندوسيل

ص ٥٥٣

(٣) انظر الفقه اللاع للسحاوى ج ٢ رقم ٤٤٩

والشفراء ١٠٩/٧ وأندوسيل ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع فى داود الأنطاكى البدر الطالع للنوكاف

٢٤٦/١ وعلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وأندوسيل ص ٤١٧ .

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولائها ، من ذلك رحلة تسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تسب إلى عبادة بن الصامت وإلى حمص للمتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان^(١) . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لا تدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالى الأهم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجيب من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب الجيغنى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينبج أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصه المقدسى^(٢) محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجده أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيها عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودون مطوماته فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمه من الثقات ، وما وجدته فى الكتب المصنفة ، واتباع فى وصفه لكل قطر منها ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنفود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والحزاج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بروس ٨٢ والخفارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لجز ١/٢ وأندوميل ص ٢٢٧

كراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى

(الدرجة العربية) ص ٥٣ وما بعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان

٢٥٣/٤ وما بها من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شاليه فالشام فصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جملة للمشرق ، يبدأ ببلاد الحياطة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخورستان فقارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرق ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقافات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدتها حتى لكأنما يصورها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا ييأري في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقتفي في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر ^(١) بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لا تعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كُتب سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كُتب عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . ونلتقي في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي ^(٢) بن محمد بن شجاع الرعي المالكى المتوفى سنة ٤٣٥ وله كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والباق الشريفة .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسياً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذهب الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوروه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدى لذلك من الجغرافيين المشرف ^(٣) بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٢) انظر في للمرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي

٢٢٤/١ .

٥٠٨/١ وما بعدها .

(٣) رابع في الرعي بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حساسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر^(١) بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر^(٢) المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعب . كل ذلك ليحيط مدينته بحالة قدسية كي يدافع عنها أبناءها والعرب ضد حملة الصليب حتى النماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب يبق منهم ولا ينذر . وتكون لذلك فرحة مابعد فرحة في قلوب المسلمين . ولا يكاد يضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ التورخ الكبير المسمى باسم القاسم^(٣) ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يلعب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على^(٤) الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عاصتيه بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فتشيد له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لطلما بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن يتزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . وتلقى حيان^(٥) النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن عماني وحين حاكما لمحافظة القيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

والهداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر في القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨

والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ وهجر

٣١٤ وشرحات قلبع ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع في الهروي ابن خلكان ٣٨٩/٣ وشرحات

٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر حيان النابلسي في كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

(٢) انظر في الجبراق التورخ الحافظ ابن عساكر معجم

الأدباء ٧٣/١٣ وغريدة القصر (قسم شعراء الشام)

٢٧٤/١ وللتعظيم ٢٦١/١٠ ورملة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة

الحفاظ ١٣٢٨/٤ وصر القهى ٢١٧/٤ ورملة الجنان

٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان

٣٠٩/٣ وشرحات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

ترتب بلاد الفيوم ، ويؤلف ^(١) ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلام الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والحقائق والمزارات والحمامات ، وقد رجعتا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالمعاجب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب غيبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس ^(٢) الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطيبي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وقُدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطيبي أن يعنى إبراهيم ^(٣) بن الفركاح للمتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابه : « الإعلام بفضائل الشام » ، و« باحث النفوس إلى زيارة القدس المهجوس » . ويلقانا أبو القدا الملك للمؤيد ^(٤) إسماعيل الأيوبي صاحب حياة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، وهما الثاني وعنوانه « تقوم البلدان » وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عرقي حتى العصر الحديث ، ودالما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب ^(٥) الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر ^(٦) بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة المعجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا لطيفة في كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد ^(٧) الرحمن المليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية

١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والتجريد الزاهرة

٢٩٢/٩ وكرايشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١

وكرايشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع في عمر بن الوردى ابن لباس ٦٠/٢

وكرايشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر الطيبي في كرايشكوفسكى ٥١٥/٢

(١) انظر في حر الدين بن شداد تاريخ ابن القرات (طبع

بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشرحات الذهب

٣٨٨/٥ وكرايشكوفسكى ٣٦٩/١

(٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كرايشكوفسكى

٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشرحات ٨٨/٦

وكرايشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك للمؤيد في غزوات الوفيات ٢٨/١ والدرر

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حيث نشأوا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن^(١) طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامي » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر^(٢) الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية في المنازل الرومية » وتلاه محمد^(٣) بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه « زبدة الآثار فيها وقع لجامعه من الأسفار » . وتلقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأطلغان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد^(٤) بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف^(٥) محمد^(٦) بن أحمد بن حافظ الدين القدسي المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة في كتابه « إسفار الأسفار في أبحار الأفكار » كنه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى التابلسى الصوفى الذى سترجم له فيها بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس ويطبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد^(٧) المنبى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها الغنى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والتقدم والبلاغة

أعلنت الشام ثغرى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

-
- | | |
|--|--|
| (١) انظر في ابن طولون ترجمة شخصية له طبع بدمشق | (٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢ |
| بنون : القلق المشعرون في أحوال محمد بن طولون وراجع | (٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢ |
| الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشفوات النعب ٢٩٨/٨ | (٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ |
| وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ وما بعدها | (٦) انظر في المنبى سلك الدرر للرامدى ١٣٣/١ |
| (٧) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢ | وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢ |

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لا تعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيْة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال ^(١) رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخبارا يسمى علاقة بن كرم الكلالي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال ^(٢) والحكم . وأخذ بنشأ حينئذ معلومون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمرأه البيت الأموي فرودتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ^(٣) أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب ^(٤) الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى الجهن ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهني مؤدبا ^(٥) لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافة الزهري المحدث مؤدبا ^(٦) لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن غرَّجوها - نخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني ونخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحرى - وضعا أُقيِم مجموعتين من الاختبارات الشعرية ومنها ، وسمى كل منها بمجموعته باسم الحماسة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخلافة - تجلب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سفيان الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حجب متطاولة ،

(١) أظني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٢) البيان والبيان ٢٥١/١

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

(٤) الفهرست ص ١٣٢

(٥) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في

الأمثال لصاحب البدي معاصر معاوية .

(٦) البيان والبيان ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معاً ، وقد يكون شامياً أصيلاً وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير تلقى به في الشام الزجّاجي^(١) عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجمل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلاً عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تشرح بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجّاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحته أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جبيلة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النخيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب^(٢) عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب في الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه^(٣) اللغوى النحوى واتخذ سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله في اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله في النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب في القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألف كتابه « ليس » في كلام العرب ، وعقب عليه المحافظ المصرى مغلطائى في مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع في آرائه مترع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

النحويين وبغية الرواة وبيروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر في ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومصمم الادباء ٢٠٠/٩ وبغية الدهر ٨٨/١

طبقات الشافعية للسبكى ٢٦٩/٣

(١) انظر في الزجّاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابتها المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبيروكلمان ١٣٣/٢

(٢) راجع في أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخبة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السيساطي وعلى بن محمد العدوي وعبد^(١) الله بن عمرو الفياضي ، وكان معهم النامي الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويًا في بلدته البصيصة ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كشاجم على شاكلة النامي لغويا وشاعرا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب في اليزرة وكتاب ثان في أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف في الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومي . ولمع جيتو في سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني . وقد تحدثنا عن نشاطها اللغوي والنحوي في كتابنا « المدارس النحوية » وصمنا هنا أن نذكر أن ابن جني لزم المتنبي في بلاط سيف الدولة وبعد ذلك في بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسها بُنيت شروحه فيها بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعري ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزي سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت^(٢) بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفي ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بني مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التي بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلدًا عربيًا لم يظفر بما ظفرت به الشام في أبي العلاء الشاعر اللغوي العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشعرية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله في أشعاره وفي رسائله وكتابه النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكان ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكتها في أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروجا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوم السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان في مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهي في الزهد والعظات شرحًا ، أنشأ في غريبها وسماه « السادن » كان في

(١) انظر كتاب (أبو الطيب المتنبي) لبلشير (ترجمة) (٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشرين كرايس كان ينبغي أيضا أن يُفَرَّدَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتظم في تضاعفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها وبوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران المذكورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لتعزيز الدولة فانتك الذي كان واليًا للفاطمين على حلب ^(١) من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السُّنْدِيَّة إلى والي حلب الذي خلف فانتكا : سند ^(٢) الدولة بن عثمان الكُتامي . ولعل في الرسلتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطميين في المدة القصيرة التي تمت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرحون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّبنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحرى وسماه حبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتباً لغوية مختلفة ويشتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كرايس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماما كبيرا في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المرى » ^(٣) ويعدد الصفدى من رُزِقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا ^(٤) ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في المرية » ^(٥) . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه المرجع ص ٥٣

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المرأة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر^(١) ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان مبثوثا لافي مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا في مدنها وبلداتها الصغرى .

وفي كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناس ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء ، أحمد^(٢) بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافته بها القدر . وكان يعاصره عالي^(٣) بن أبي الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية في صور وصيداء وتلقى من شراح المتنبي بالوآواه^(٤) الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوآواه الدمشقي شاعر سيف الدولة ، كما تلقى في شيزر بمهراف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح^(٥) على ديوان المتنبي ، وتوفى معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد^(٦) بن الحسن نحوي دمشقي المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار ، أولهم يعيش^(٧) بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليها شرحه على كتاب المفصل للزمخشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي علي الفارسي ، وهو بذلك يسلك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتتفقد إلى آراء جديدة في هذه المسألة أولئك ، وفي كتابنا المدارس النحوية ، توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . . .

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٢) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباه الرواة ٨٩/١

(٦) سذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

(٧) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

(٤) انظر في الوآواه الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

الزوري ١٧٦/٢ والشلرنا ٢٢٨/٥ ونبذة الفحاة ص ٤١٩

والعلم الثاني لم يكن شاميا بل كان مصرياً ، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعلم في البلدتين ، وكثيراً ما دُرِّسَ وعُلم جِلَّةُ العلماء الحليين والدمشقيين والمقنسيين في مدارس القاهرة وماسجدها مثل يحيى بن معطى التوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها للمصريين . وكثيراً ما نزل بيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأنفصوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفعلون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب ^(١) عثمان بن عمر التوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصرى . وصمنا هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيًا ، فترل بزاوية المالكية في جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتايه الراتمين في النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأمل شرحين لها . وتواتر بعده لغاستها الشروح عليها بين حرية وقارسية حتى بلغت حل الكافية - كما استقصاها بروكلمان - سبعة وستين شرحا ، وحل الشافية - ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا في دمشق وطلاب الحرية مكثبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أنخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلة شقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان ينحطب الجمعة في المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معنا بذلك احتجاجا على عمله المزرى ، وردَّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والتَّمُّ الثالث لم يكن مصرياً ولا شامياً ، بل كان أندلسياً ، وهو ابن ^(٢) مالك محمد بن جدد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلدته جَبَّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو في الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متولياً بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صبه في آفاق الشام ، قصده الطلاب من كل فجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم في النحو ألفية المشهورة ، وتواتر بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ما حل بعض شروحها من حواشٍ . وألف في النحو بجانبا كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله في

(١) انظر في ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن
 فرحون ص ٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية
 (٢) انظر في ابن مالك ومصادر كتابنا المدارس النحوية
 ص ٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥ - ٢٩٦ .
 ص ٣٤٣ .

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، ونخفة المودود في المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومتر ، وأوضح في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السُّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نخبة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء^(١) الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع موطنه ابن يعش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتف الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ وبُنِسَبَ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار للعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصانع^(٢) محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحّة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء^(٣) الدين بن حنبل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيخه الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين التازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضا في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضا

(١) راجع ابن النحاس غزوات الرغبات ٣٥٠/٢ وبعية

الرعاة ص ٦ والتفريات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصانع غزوات الرغبات ٣٨٠/٢ والبدابة

والتهابة ٩٨/١٤ والنجوم الزلعة ٢٤٨/٩

(٣) راجع في ترجمة ابن حنبل الدرر الكائنة ٣٧٢/٢

والبعية ص ٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٥٥

في كل العالم العربي الا وهي نغى بدراسة اللغة والنحو. وظل كثيرون من شيوخ العربية يصفون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته.

ونغى إلى زمن العثمانيين وظل دراسات العربية بالشام نشطة، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء ناهيون في مقدمتهم الشيخ ياسين^(١) بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام. والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكده يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التي تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل مع الوامع للسيوطي والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان. بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش، وتجاوزه إلى من سبقوه، من أئمة المذاهب النحوية، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لا تزال نشطة تَحَقُّقُ بغیر قليل من الحبيوة لم نكن مبالغين.

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والتقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث في الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصططنه فيه الشعراء من المحسنات المصنوعة واللفظية مما سمي فيها بعد باسم البديع، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتاتى الشاعر الشامي لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار^(٢) زعيم المحدثين في العصر العباسى الأول. وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميا حتى ليتخذها كالمذهب له، وما لبث أبو تمام الشاعر الشامي أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية للمتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني. (هو فينا زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي)^(٣). وأثرنا في كتاباته الفن ومذاهبه في الشعر العربى أن نسميه مذهب

(١) انظر ترجمة مسلم بن الوليد للتحفة بنويته نشر

الدكتور سامى الدخان

(٢) انظر في الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمصنف ٤٩١/٥

وحاشية طبعته بمصر مرارا

(٣) البيان والبيان ٥١/١

التصنيع أى التتميع حتى يشمل البديع وألوانه الحسبة المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام^(١) . على كل حال شاعر الشام أبى تمام التوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية^(٢) . ومن ذلك غخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرق بيلاعة الكلام نثرا وشعرا كما عند المتألى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير متأخر .

وكانت تقدم طويلا فى القرن الرابع المجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبلا متقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارث شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مطار ، وسرعان ماالتفت حوله وحاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللفوفين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المنتهى تسع سنوات طويلا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال التامى والكاتب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبى على الفارصى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سئل عن لفظة فى شعره أو تبييره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده^(٣) :

وفاؤكما كالأربع أشجاء طاسية بأن تُسيدا والدعُ أشفاء ساجية

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبى الطيب : اسكت فاصل الأمر إليك^(٤) . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) الفن وملابه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف) ص ٢٣٩ .

للغليل كما أن الربع أكثر شجا للمحب إذا درس .

(٢) الفن وملابه ص ٢٤٧

(٣) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

(٤) يخاطب المتن باليت صاحبين له على عادة العرب .

(طبع ونشر دار النهضة مصر) ص ٢٩٨ .

أشجاء : أحزنه . طاسه : دارسه . بأن تسعا : بالمساعدة

مايينها طوال مقام المنتهى عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤبِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المنتهى يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان ينمقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المنتهى في حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تتعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ماكانوا يتحاورون في سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقين مستحسنين تارةً ومنهجين أخرى . وجميعها صور من النقد الذى يعقل الملكة الأدبية ، وصورٌ ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصب ، فقال : « ماقت قلبى وشحد فهمى وصقل ذهنى وأرهف حدَّ لسانى وبلغ هذا المبلغ فى إلاتك الطرائف الشامية واللطائف الحلية التى طقت بحفظى وامترجت بأجزاء نفسى ، وغصنُ الشباب رطيب ورداء الحدائة قشيب »^(١) .

ونلتقى بعد هذه الحلقة بأبى العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوى ، فهو يضمها شروحه لدواوين أبى تمام وسماه ديوان حبيب وديوان المنتهى وسماه معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحرى مرارًا نافعًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحرى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثلاثة عما في أشعارهم من غريب وماأخذهم من غيرهم وماأخذ عليهم ، وأحيانا يتصرههم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبى تمام والمنتهى أخطأ فيه . ولأبى العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجمله يلقى الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العريضة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أجد الطرابلسى كتابا بعنوان : « النقد واللغة في رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطًا في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعى^(٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفسيين في النقد والتاريخ الأدبى ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و« الصبح المنى في الكشف عن حيشية المنتهى » وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضًا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيها ، ولايكاد يترك خبرًا منها يتصل

(١) البنية للصابي (بنحيق محمد محي الدين (٢) انظر في البديى خلاصة الأثر ٤/١٠١ .

بسميتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارها مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب ^(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بمحدث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويغوص في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . وولتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالهسنات البديعة ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويعصف الزمكاني ، الدمشقي عبد ^(٢) الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بطوم المعاني والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وولتقى سريعا بيدر ^(٣) الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه « المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذيلًا لعلوم المعاني والبيان ، بل جعله علمًا مستقلًا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب ^(٤) القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصًا دقيقًا واضحًا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والنبذة
ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ »
ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤
والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع في
تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥
وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر في ترجمة الزمكاني السلوك للمقرئ ٣٨٩/١
والسبكي ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ ونبذة الرواة ص
٣١٦ وراجع في تحليل كتابه « بلاغة تطور وتاريخ » ص
٣١٤ .

(٣) راجع في ترجمة بيدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن ينيح بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُني بيسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنف ابن قيم ^(١) الجوزية دمشق المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُني بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحتام في التورية والاستخدام وبنار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصيح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهى قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ بديعة في مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشروحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصرى والشامى في تلك الحقبة ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبى مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام المماليك ، ولعبد الغنى النابلسى الذى سنترجم له في غير هذا الموضع بديعتان ^(٢) ومع كل بديعة شرح خاص بها .

٤

علوم القرامات والظفر والحديث والفقه والكلام

أعلنت الشام ثَمَنِي بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأنفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قراءتها في الصدر الأول أبو البرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومُرَبَّتَا ذكر ذلك وأنه كان

ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ

٣٦٤ وما بعدها

(١) راجع في ابن القيم الدرر المكنية لابن حجر ٢١/٤

والبريد الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات

الحنبلة للشطرنج ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ »

يحمل الناس عشرة عشرة ويحمل على كل عشرة عريفا ، وعدُّ يوما من بقرونه عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوّنون به في مساجدها . وخَلَفَ أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد^(١) الله بن عامر البجلي المرقى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماحه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، قرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقتسمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزري في ترجمته : « لا زال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى^(٢) بن الحارث اللّهماري الدمشقي إمام الجامع الأموي المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب^(٣) بن نعيم الدمشقي المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد^(٤) الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثاني عراك^(٥) بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام^(٦) بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأول أخذها عن أحمد بن يوسف التخلي ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثاني فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقي ، قرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته^(٧) ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر^(٨) الفسافي عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويطلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

(١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة

لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١

(٢) ابن الجزري ٤٢٣/١

(٣) ابن الجزري ٣٦٧/٢

(٤) ابن الجزري ١٧٢/١

(٥) ابن الجزري ١٠٤/١

(٦) ابن الجزري ٥١١/١

(٧) ابن الجزري ٣٥٤/٢

(٨) ابن الجزري ٤٩٩/١

(٩) ابن الجزري ٣٥٥/١

ومر بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له في توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد ^(١) للنم بن غليون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر ^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير للشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد النم بن غليون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي علي الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصف عبد ^(٣) الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتهى في القراءات . وثلثي بالحسن ^(٤) بن علي الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلموه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلموه مستمرا في الشام حتى نلتقي بآب ^(٥) الطحان عبد العزيز بن سلمة نزىل حلب المتوفى حول سنة ٥٩٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وثلثي في أيام الأيوبيين بأبي اليمن ^(٦) الكندى زيد بن الحسن نزىل دمشق للمتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعتمدين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥/٩٠

(١) انظر في عبد النم بن غليون طبقات القراء ١/٤٧٠

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ١/٣٩٥

وطبقات الناصية للسبكي ٣/٣٣٨

(٦) راجع في أبي اليمن ابن الجزرى ١/٢٩٧ ومجموع

(٢) راجع في «طاهر» ابن الجزرى ١/٣٣٩

الأديب ١١/١٧١ وخطط الشام ٢/٤٧ والبداية والنهاية

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ١/٣٥٧

١٣/٧١ وإنشاء الرواة ٢/١٠ وابن خلكان ٢/٣٣٩

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ١/٢٢٠ والنجوم

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثاً وعشرين سنة . ومن تلاميذه علم ^(١) الدين السخاوى على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفاً وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة فى القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدروا القراءة فى دمشق أبو الفتح ^(٢) محمد بن على ولى مشيخة القراءة بترية أم الصالح ، وأبو شامة التوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضى عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالترية الصالحية بعد وفاة شيخها أبى الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام فى القرن الثامن ابن ^(٣) جبارة المقدسى ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحط ثم استقر فى بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفى سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان ^(٤) الدين الجعبرى استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفى سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنف فى القراءات كتاب نزهة البررة فى القراءات العشرة . وولتقى بابن البارزى قاضى حماة ومضى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشريعة فى قراءات السبعة . وما تزال نقرأ عن مؤلفات شامية فى القراءات حتى نصل إلى ابن ^(٥) الجزرى محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر فى القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسى فى الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورجل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولى مشيخة الإقراء بالجامع الأموى حتى توفى سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشطة أيام المماليك حتى العصر الحديث ، يتجرد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالنفسية أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عتبت الشام بالقراءات عتبت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبرى

(٤) راجع فى الجعبرى ابن الجزرى ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والنشرات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزرى لنفسه فى كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحق بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوى ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية

(١) انظر فى علم الدين السخاوى معجم الأبداء ٦٥/١٥

وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنهاء الرواة ٣١١/٢ وطبقات

القراء ٥٦٨/١ والسبكى ٢٩٧/٨

(٢) راجع ابن الجزرى ٢١١/٢

(٣) انظر فى ابن جبار ابن الجزرى ١٢٢/١ والدرر رقم

٦٦٧ والنشرات ٨٧/٦

تفسيره أكتب عليه ندرسه ، ويلقانا لها مفسرهم هو عبد الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من آيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعانى الألفاظ القرآنية . وولتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير ^(١) للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » ^(٢) . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو هالي ^(٣) بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيراً كبيراً في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم ينمه وهو مطبوع . وللغزير عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين قهواء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزي وابن تيمية ، أما هبة ^(٤) الله فكان قاضياً لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مربنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في للتفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجمعناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفسير وعلى المعتزلة والشيعية الباطنية اللذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن غير طرق التفسير بالقرآن بالقرآن لأن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين اللذين عايشوهم وعرفوا منهم معنى القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إقتان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تلوه لخصائصه البلاغية يستطيع للمفسر أن يمتد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتى المؤمنتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطرطا ص ٤٩ والهداية

والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر في ابن البارزي الدرر ج ٢ رقم ١١٠٣

وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشرحات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين

السيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وروكبان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكردي ٤١/٤

(٣) تكملة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

وخصّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مفسونها من خلال القرآن جميعه .

ونجح نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « البيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين^(١) الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدرر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . وملتقى بابن^(٢) كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل الحوائج وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فإوهى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفسيرين إن لم يكن أحسنها » ويصف الطيبي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيراً للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشُغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوي مكمل الدين القيم وميمنة وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحنثون به الناس من أمثال مكحول^(٣) مقلد الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد^(٤) بن شهاب الزهري أول من دُون الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب

٢٨٩/١ والشرقات ١٤٦/١

(٤) انظر في الزهري صفة الصفوة ٧٧/٢ وابن خلكان

١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩

وطبقات القراء ٢٢٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١

والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشرقات ١٧٩/٦

(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر ج ١ رقم ٩٤٨

والشرقات ٢٣١/٦ والدرر الطالع ١٥٣/١

(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعنده في الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة واليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثوري فقيه العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مرّ بنا ذكره بين القراء . ومن حمل عنه الحديث القاضي عبد ^(١) الصمد بن عبد الله قاضي دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث . وملتقى بغيضة ^(٢) بن سليمان الطرابلسي أحد الحفّاط الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولا تلبث بلدة طبرية بالشام أن تنقلم سليمان ^(٣) بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير . وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا . وكان يعاصره الحسين ^(٤) بن محمد الماسرجسي الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار . صنّف المسند الكبير مهذّبا مملّأ في ألف وثلاثمائة جزء ولم يصف في الإسلام أكبر من مُسنّده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء . وملتقى بحافظ من صُداء هو أبو الحسين ^(٥) محمد بن أحمد القسائي المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسناء الرواة . وعلقنا حافظ من صور هو محمد ^(٦) بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات . وعلقنا حافظ بيت المقدس محمد ^(٧) بن طاهر المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني . المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) انظر في الماسرجسي التجوم الزاهرة ١١١/٤

(٥) راجع القسائي في التجوم ٢٣١/٤ وروكان ٢١٤/٣

(٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة

الحفاظ للذهبي ٣١١/٣ وروكان ٢٣١/٣

(٧) راجع في ابن القيسراني للمصنف ١٧٧/٩ وابن خلكان

٢٨٧/٤ والواق للصندي ١٦٦/٣ وميزان الأحصا

٥٨٧/٣ وجر للذهبي ١٤/٤ والنشرات ١٨/٤

(١) راجع في التجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في زرعة

النجوم ٨٧/٣

(٢) انظر في خيشة تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر

آباد) ٧٥/٣ والنشرات ٣٣٨/٢

(٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن حساكر ٦/٢٤٠

وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وجر للذهبي

٣١٥/٢

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم^(١) بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها الأطراف ، جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله ورله ذلك أمال كثيرة . وجاء بعده جلد^(٢) الغنى الجماعى للمتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه « صعدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن غير الأئمة » وكتبت له الأجيال الطلبة شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزرى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطائى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وتلقى بآب^(٣) الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . وليفانا محي الدين النورى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأدكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعمون النووية وكتاب التزويج في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرس بدار الحديث الأشرية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النورى البونى على^(٤) بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر المروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيل وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقرامة السمعاني . وكان يجواره في تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جمعه فيها بعد يلى كتابا مستقلا

الحفاظ ١٤٣/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداهة والنهاية

١٦٨/١٣ والفتاوى ٢٢١/٥

(٤) راجع البيهقى في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسير

٥٢٤/١ والتجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والفتاوى ٣/٦

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجاهلي تذكره الحفاظ ١٦٠/٤ وطلقات

الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن الحضرة ٣٥٤/١ والعبير

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٨٣/٣ وتذكره

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجاله المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخاري للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهي نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بجماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بجماعها منه . وهي ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا « البحث ^(١) الأدبي » .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري الميزي ^(٢) يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف ، طبع في الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من مفاخر دمشق في زمنها وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين اللوذعيين . ومن محدثي القرن التاسع بدر ^(٣) الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القاري في شرح صحيح البخاري » والخيفري ^(٤) الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخاري المسمى بالفتح الباري . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخاري وشرح اننوي على صحيح مسلم .

وطبيعي أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية ، وفعلا تكون للشام إمام أنشأ مذهبا قهها ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) انظر المزي في الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشملات الذهب ١٣٦/٦ والبداءة والنهاية ١٩١/١٤ والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥١٧ والمعارف في أخبار المدارس ٣٥/١

وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبداءة الطالع ٣٥٣/٢

(٣) انظر في العيني حسن الحاضرة ٤٧٣/١ والفتاوى البية

٢٠٧ والفضو اللامع ج ١ رقم ٥٤٥ والنفرات ٢٨٦/٧

والبداءة الطالع ٣٩٤/٢

(٤) راجع في الخيفري الفضو اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي ^(١) صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بعلبك ومنشؤه ببيروت ، وانحدرها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن بلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيوضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي ^(٢) . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد ^(٣) إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملها وأنها كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تيمية يرى أنه توفي لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد ^(٤) بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حياً في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة ^(٥) ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالاً عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاء لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاء في الدولة الإسلامية كان لا يبول قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمتبعين إلى مذهبه الحق ، ونظن ظناً أنه كان يوجد في دمشق أحياناً قاض حتى بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق على ^(٦) بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظناً أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ،

٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفي

السبكي ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لابن تيمية ترجمة الدكتور حسين

مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد

والأسباب للسعدي ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ

بخداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب

١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ وعلم الساسي في منال

الأوزاعي (طبع بالقاهرة) صفته مؤلف مجهول سنة ٨٥٠

وضعي الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٣٢٦/١

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم ^(١) التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيها حنفياً بارعاً . وولتني في حلب بأحمد ^(٢) بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جراد هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكتب على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سند ذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يقرنوا اعتناهم ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حتى . ويلقانا المفضل ^(٣) بن محمد المرعي الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء ببعلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني ^(٤) محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاء قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يملكوه وعزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخلت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرة سنة ٤٩١ ويعده ابن شداد من قهاتها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفياً ، وذكر النعمي بعده قهاتها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعاً وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء قهاتها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفة منذ أسست فيها المدرسة الزجاجة سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مر بنا . واشتهرت فيها أسر بنوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري ^(١) الذي انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني : شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز ، ومع ليمازاه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتعلقة بالزوات والحرب ، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعلم في المذهب حتى ألف فيه كتابا ^(٢) . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتظلّ الشام أيام المماليك ويقرر الظاهر يبرس أن لا يُقْتَصَر في مصر على قاض شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعمم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بحوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار يبرس عبد ^(٣) الله بن محمد بن عطا الأذري المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاء الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذري المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتكاثر أسماء فقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطا وافرًا أداه فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان ^(٤) الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملقى

مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر في الأذري للنجوم الزاهرة ٧/٢٤٦ والسلوك

للمفريزي ١/٦١٩

(٤) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية

وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٤٣٣

(١) راجع في الحصري الفوائد البلية في طبقات الحنفية

٨٤ والمجاهر للفتية لابن أبي الوفاء ٢/١٥٥ وتاج التراجم

رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة

٢١٣/٦

(٢) انظر في المعظم عيسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر

الأبهر في فروع الفقه الحنفي ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين القرطاشي الغزي المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، وبأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأموية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البهارستان النوري ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهتمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرّ بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي وعلم الأصول ، ودرّس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغرى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد ^(١) السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رئاسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرًا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشي في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر يبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوي المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية بدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى ^(٢) بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي . لمصنفها سخنون ناشر المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون ينتقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي . وبأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين في التضاؤل والشحوب .

وكان أول من أدخل مذهب الشافعي - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة ^(٣) بن عثمان الدمشقي ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولى القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

(١) راجع في قضاء دمشق لابن طولون (طبع)

دمشق) ٢٢ والبداءة والنهاية ١١٢/١١ والفتاوى ٢٣٩/٢ .

والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(٢) راجع في عبد السلام الزواوي النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧

وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداءة والنهاية ١٣/٣٠ والسلك

٥٤٢/١

(٣) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي في كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حذّام. قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرّ بنا . ومرّ بنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفى سنة ٣٢٥ . ويطلب أن يكون هذا شلوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد ^(١) الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين ^(٢) بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو ^(٣) يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر المتأبجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض للمذهب الشافعي ودرسته في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد النعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مرقى حلب بسلوك السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري ^(٤) الحسن بن حبيب الهمشي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقبنا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو ^(٥) الخير المروزي يستوطن المصرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . وتلقى من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد ^(٦) الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر ^(٧) بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفقه ويحدث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة يتشرب فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأيوبية في سنة ٥١٤ وبعده ابن شداد في

(٥) انظر أبا الخير في السبكي ٢٩٩/٤

(٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي

١٠٠/٥

(٧) انظر نصر بن إبراهيم في تزيين الأسماء واللغات

١٢٥/٢ والسبكي ٣٥١/٥ والعبير ٣٢٩/٣ ورمّة الجنان

١٥٢/٣ والتجزم الزاهرة ١٦٠/٥ والشرحات ٣٩٥/٣

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١٥٧/١١

والعبير ١٦٢/٢ والسبكي ٣٢٠/٣

(٢) راجع الحسين في السبكي ٢٨١/٣ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٢٩٨/٣

والشرحات ٣٢٦/٢ والعبير ٢٢٢/٢

(٤) راجع في الحصائري السبكي ٢٥٥/٣ وكان مع ابن

غلبون في السبكي ٣٣٨/٣

كتابه «الأعلاق الخطيرة» من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق معظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابئين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابها ، وأطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيها أحصاه بعدها النعمى فى كتابه «الدارس» وأيضًا فيها قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر يبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاضى لم يحدث أثرًا عكسيًا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن ^(١) أنى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبني له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعبلك ، وبني هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه «صفوة المذهب» فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العزيز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محى الدين النوى ^(٢) المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النوى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية

٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة

٢٧٨/٧ والمبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك

٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أنى عصرون غريدة القصر (قسم شعراء

الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥

ونكت المبيان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والمبر ٢٥٦/٤

والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية

والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

خمس وأربعين عاما ، ومربنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المهرر للرافعي القزويني ، واختصر المناهج فيها بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء^(١) الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الأزمكاني خفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفي سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جُلّة من هؤلاء الفقهاء ، ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا يتزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المالك والمعاينين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل أشياعا وأنصارًا من المذهب الشافعي والحنفي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخِرقيّ عمر^(٢) بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دُوت شهرته هو المختصر في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج^(٣) الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعقوب صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيها حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرها من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : الميخ والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن

خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣

(٣) فذل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق)

٨٥/١ وما بعدها

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكائنة ١٧٦/٣

وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات

١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٥٤/١ والفتاوى ٣٤/٦

(٢) انظر في المخرق تاريخ بغداد ٣٣٤/١١ وطبقات

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد ^(١) الوهاب بن طالب النجدي نزير دمشقي وإمام مسجد الرحمان .

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ هـ ونخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابقة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه «الأعلاق الخطيرة» بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النجدي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر يبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير يجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط ويتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق ^(٢) الدين بن قدامة الجماحي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المعنى شرح به مختصر الخرق المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد نبليغ نهاية القرن السابع أيام المالكي حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن ^(٣) تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانباً من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضع ، ومرّبنا حديثاً عن منهجه في التفسير القرآني ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديماً في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

إليها كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان ونجته القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخوه من أيام الماليك مجير الدين العلي بن محمد قاضي يث المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « للنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتمل بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى سنلم به في حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام في أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت في بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذاهب . الشافعي والأشعرى في كل مكان . ولم يلبث أن خاصمها الحنابلة الآخرون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تنصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتنصب تنصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضع . وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما نشأ بفخر الدين بن عساكر في رده المفتح على الحسن بن علي الأهوازي المار بين القراء في كتابه « تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكي

يصفى^(١) الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصره المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له مجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصره الشافعية للمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المالك والعثانيين .



التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صوره من السيرة المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . وبدأ حديثنا بالسيرة المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو^(٢) زُرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعن بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . ونلتقى فى أيام العثانيين بشمس الدين الدمشقى محمد^(٣) بن يوسف المتوفى سنة ٩٨٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتبقى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . ونلتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول ما يلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حنى وكان قد نشرها قبله فيرنبورج . ولأى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن حساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التذهيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين القلندر ٢٤٩/٨

(١) راجع فى حق الدين طبقات السبكي ١٦٢/٩

والوفاء بالولايات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرتة

الجنان ٢٧٧/٤ والشذرات ٣٧/٦ والجبر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زُرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصمباني وفيه ألف كتابه « البرق الشامي » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفخواته وأحداث الشام في عهده ، وهو في سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفتح القسّي في الفتح القدسي » صُوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء^(١) الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوار السلطانية والحامض اليوسفي » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طي . ولابن عتيم الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة^(٢) للملك العزيز سمّاها التاريخ العزيزي : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد^(٣) الجلية في الفرائد الناصرية » . وللنوّي المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعي ، ولابن عريشاه^(٤) اللمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيّمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودوكت ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور في نواب تيمور » مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل ومارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جُحمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » . ولبلر الدين المنيّ المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد ، ولبلر الدين محمد^(٥) بن أبي بكر اللمشقي المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباي . وله سير كثيرة في العصر . ولابن طولون الذي ذكرناه أنفاً بين الجغرافيين سيرة لابن العربي المتصوف . وصنّف شمس الدين اللمشقي المار ذكره سيرة لأبي حنيفة ، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية . ولحمد بن يحيى الخنيلي سيرة صنفها عن عبد القادر الجيلاني المتصوف ، وهي مطبوعة ، ولمرعي^(٦) بن يوسف الكرسي المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها في مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في

٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عريشاه في ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته في الضوء اللاع ١٥٦/٧

(٦) انظر في مرعي الكرسي خلاصة الأمر ٣٥٨/٤

(١) راجع بهاء الدين في ابن خلكان ٨٤/٧ والبي

٣٩٠/٨ وتاريخ ابن الدردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ

١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبدابة والنهاية

١٤٢/١٣ والمفسر لأبي الفدا ١٥٦/٣ والتجويد الزاهرة

٢٩٢/٦ والنفرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة (الطبعة الثانية)

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفصائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ . ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفروعها وخطوطها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشراء والكتاب . وهنّبه بمحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تجميعه سبعة مجلدات ، حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر في المراجع باسم تجميع تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخزائنها وروابطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومامدحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عني ابن شداد بحلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم ^(١) عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأيمدّي وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولابن خطيب ^(٢) الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المختب في تكملة تاريخ حلب » وأكمل محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ ومضى تكملة « نزهة النواظر » . وعني بكل ذلك أيام العثانيين ابن ^(٣) الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزيد والقرّب (عمل النحل) في تاريخ حلب » مع تكملة إلى سنة ٩٥١ . ولجبر الدين العلّيمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئيس الجليل في تاريخ القدس والتحليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكر أولا حلب ثم حمص فالجليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فمستقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الفصول اللاحقة جـ

رقم ١٠١٦ والشرحات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشرحات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشرحات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه « زبدة الحلب »

في الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .
وتترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسي حمزة^(١) بن أسد
المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيل به على كتاب التاريخ
للالصافي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره
العظيمي^(٢) الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ومحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها
وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم^(٣) الحموي قاضي حاة المتوفى سنة ٦٤٢
وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى
للولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة
الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليفة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة
وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر
آباد قسماً من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء
السالف . ولموسى^(٤) بن محمد اليونيسى البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرأة في نحو النصف مع
ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير
هو أبو القدا صاحب حاة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار
البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة
٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديماً إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى
المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .
ونلتقى بالنهجي^(٥) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير
الأعلام في ١٢ مجلدا رتبته على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والفتاوات ٧٣/٦

والبهاة والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر في النهجي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت المسيلان ٢٤١

وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبهاة والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ

ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنات

٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفات بالوفيات ١٦٣/٢

والنجوم للزاهرة ١٨٢/١٠ والفتاوات ١٥٣/٦ والدرر

الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر

٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥

والفتاوات ١٧٤/٤

(٢) انظر في العظيمي بروكلمان (الترجمة العربية)

١٣١/٦

(٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ

ابن الوردى ١٧٥/٢ والفتاوات ٢١٣/٥ والمختصر لآل القدا

١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الجهاد في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى يقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطانه ويتأول له ما يمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كلاما الحرميين الجوفى والغزالي وأمثالهما لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول مَنْ طعنَ فيه ، ويبعد ذلك ويبدله^(١) . وكان يبنى أن يكون منصفاً في تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ الجيزه والإمام المبجل لما بالك بعوام المؤرخين » . وللنهي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتب على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر النجاشي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرّخد ، وله كثر الدرر وجامع الرُّر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . وولتقى بابن كثير الذي مر ذكره بين الفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عُنى فيه بالسيرة النبوية ممجزا بين الوثيق واللتهم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة^(٢) الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . وولتقى بعده بيدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفق على أبيه وكان قاضيا حننيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختطف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب عظيمة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

والشراوات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع في ابن الشحنة الفصول اللاحقة ٣/١٠

ومن نلتقى بهم في أيام العثانيين الجنائي مصطفى ^(١) بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنائي يؤرخ فيه ثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أركتابا جملعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرمانى ^(٢) أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتباً فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَحُصْرَةُ الْقَطْرَةِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البندارى سنة ٩٢٣ بكتابه « زبدة النصر ونجدة المعصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة ^(٣) الحافظ المقرئ الموزع للمقبسى الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٩٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حمة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحطري تصويراً رائباً ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحطان الصليبين سحقاً فريداً لا يكاد يبق منهم ولا يلبس . وكتب للروضتين ذيلاً من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي ^(٤) القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقنى لتاريخ أبي شامة » انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذبله تلميذه الحافظ مدرس التورية تقي الدين محمد ^(٥) بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن ^(٦) وأصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٩٩٧ وله « مفرج الكرب في أخبار بني أيوب » نشره

(١) انظر في الجنائي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد

المخطوطات بمجلة الدول العربية مصدران من كتبه

(٢) راجع في القرمطى خلاصة الأمر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل

الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحافظ

١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداءة والنهاية

٢٥٠/١٣ وقيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء

٣٦٧/١ والفتاوى ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحافظ

٦٥٠/١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢

والفتاوى ١٢٧/٦ والنجم الزاهرة ٣١٩/٩ والدرر الطالع

٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والفتاوى ٣٣٤/٦

(٦) راجع في ابن واصل نكت المصان للصفي ص

٢٥٠ والفتاوى ٤٣٨/٥ ومضمة كتبه مفرج الكرب

ومخطط الشام لكردي ٤٨/٤ وله تجميد الأغاني لأبي

المفرج جرده من أسقيده ، ونشر في القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ الممالك حتى أيامه كتابه «درة الأسلاك في دولة الأتراك» ابتداء به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزعة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتني بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامون لم يخصوا قطرا هربا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينا ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزاءه . ومنهم ابن^(١) شاعر الكهني الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فات ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لطماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدي خليل بن أيك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبهم الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الفضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلدا نشرت منها طائفة . وله بجانبه «نكت الهميان في نكت العيان» في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكتفاء في العالم العربي على توالي الحقب ، وأيضا «أعيان العصر وأعيان النصر» في مشاهير معاصريه في نحو نسخة مجلدات ، وهو حرى بالنشر . ويعنى نجم^(٢) الدين الغزالي المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وحُيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المهدي^(٣) محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر» كما يصنف المرادى^(٤) محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» .

ويؤلف المهاد الاصماني كتابه «خريدة القصر وخريدة العصر» وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنفت بعد الصاد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد^(٥) بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

(٢) انظر في المهدي سلك الدرر ٨٦/٤

(٣) راجع في المرادى تاريخ المجلد ٢٣٣/٢

(٤) والشعراء ٢٠٣/٦

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

(٦) راجع في الغزالي خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

صاحب حياة التوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثل من أيدي الزمن .
 وما وصلنا نفحة الرحانة وورشعة طلاء الحانة للمحبى المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق
 وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طبع في مجلدين كبيرين .
 واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن
 أبي أصيمة الذى مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن
 وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتضمنت الشام بكتب الرجال من رواة
 الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجتماعلى - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »
 عن رواة الحديث النبوى في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المولى المار ذكره بين المحدثين
 تكمالات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنوى كتاب في رجال
 صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين . وعنى الذهبي باختصار
 هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسعى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في
 خمسة مجلدات . وللذهبي كتاب المشبه في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المشابهة في
 رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوى رتبة
 على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوى وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات
 ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكمالات وأبقى لصنيعه الاسم ،
 والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية
 النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء للتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتروى في
 الموامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون
 المذكور بين الجغرافيين للتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللغفهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،
 وقد صُنّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فلأحناف كتبهم وكذلك للشافعية
 والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن قضاةهم ، ولعل في هذا مايدل على أنهم ظلوا
 في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلاين طولون السابق ذكره كتاب
 الغرف العلية في متأخرى الحنفية .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متناولة ومشهورة مثل الجواهر المضىة في طبقات الحنفية
 لعبد القادر بن أبى الوفاء وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووي ورتبه على حروف المعجم
ومن أشهر كتابه في تلك الطبقات السبكي وكتاب مذكور مرارا وتكرارا في الهوامش. وكتاب
ابن^(١) قاضي شهبة المسمى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو
مطبوع. ونشط المناظرة في كتابة تراجم فقهاءهم ولابن رجب^(٢) المسمى الحنبل المتوفى سنة
٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات المناظرة لابن أبي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع في مجلدين.
ولمحمد^(٣) بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع، ونظم كلامنا في هذا
الفصل بالإشارة إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنجمي^(٤) المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور
الحركة بل النهضة العلمية التي ظلت أضواءها تنع في الشام، حتى مع ماغشيا من سحب
العثمانيين.

(١) راجع محمد بن عبد القادر في الدرر لابن حجر

١٣٨/٤ وبيروكلمان (الدرجسة العربية) ٣٩/٦

(٢) انظر التيسير عبد القادر بن محمد في الكواكب

السائرة ٢٥٠/١ والفترات ١٥٣/٨

(٣) راجع في ابن قاضي شهبة المسمى الإجماع ١١ رقم

٦١ والفترات ٢٦٩/٧ والدرر الطالع ١٦٤/١

(٤) انظر في ابن رجب فيل طبقاته الحفاظ ص ٣٦٧

والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشعرات الذهب ٣٣٩/٦

وطبعة الدكتور سامي الدغمان لطبعة الذيل بمسقط

الفضل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربى لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التى نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط فى مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فصحها الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفتها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلاسل رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لهمداهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومثقف انحلوا الإغريقية لسانهم وأداتهم فى التعبير الوجداني والفكرى .

وهياكل ذلك لأن تعدد اللغات فى الشام قبل الفتح العربى الإسلامى ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل فى الشام من قديم ، لاجلوارها للجزيرة العربية وموقعه شامى الحجاز وغربى بادية السجوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وجفاهه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أوتريد قبل الإسلام ، وهى دول الأباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها فى فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط ^(١) . أما دولة الأباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٢ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد الطي الجزء الأول وكتابتها العصر الجاهل ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر فى هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي فى مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لليبيب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان ولسطية » ١٩٦١ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُعْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسي ، إذ كانت تضم شمالي الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبي فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطلع القرن الثاني للميلاد . والأنباط حرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولأرب في أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التي سيطروا عليها أخذت تتعرب وتتلق بالعربية لمهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبعديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلامتها العربية ، ومضى خطهم يتطور في بيتهم وشمالي الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والذي يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية كثر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالي الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها في منتصف القرن الثالث الميلادي لعهد أذينة الذي بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية في دولته التغلغل في ديارها ، وكان عاملا في تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الزمان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة في عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكشف ثانية التأثير اللغوي العربي في ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليه في عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الفُساسنة ، وقد أخذت في الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالفُساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقت بعد خراب سد مأرب ، واستقرت في شرق الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالا إلى حوران ، واصطلحت في تلك الأنحاء بقيلة عربية تسمى الضُجاجهم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول في هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جددا الأهل كان يسمى جُفنة بن عمرو مَرْتَقِيَاء ، ولذلك يسمى النسابون الفُساسنة أحيانا باسم آل جُفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحه الدولة البيزنطية لقب فيلارك أي شيخ القبائل وأميرها ، كما منحه لقب البطريرك وهو أعظم

الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادمي أسقفا على الكنيسة المونوفيسيتية السورية ، وكانت تحالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونُصّب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالة البعثة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حيثئذ من ثمر بضع الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة البقوية . وكان الفساسة كثرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة مادي ملوكهم من الشعراء ذكر جُلُق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بردى المشتهر بساتينه ، وأشهر من جُلُق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

وأما أطناً في بيان ذلك كله لنل على أن الشام كانت قد أخلت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولأرب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الفساسة وقضاة وغيرها ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبهوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعتهم السخة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا يصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروريا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة لرهقا لا يطاق ، بينا رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير متأثرين لأنفسهم بشيء ، مما يكن قليلا أوتافها . فلاحظ أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل عطفة شالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيل طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عتائر ويطنون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لآخذ طريق الإقامة والامتيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سليمة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعراجه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مربنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية ، ولا كان لها جمالها في الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها للمسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكب كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغي أن لانسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة البقوية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشؤون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفي بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذ معاوية مستشارا له في الشؤون المالية مع بقاءه معتق لدينه المسيحي ، وكان حفيده يوحنا الهمشي يشرف على الشؤون المالية بدوره لمهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء ^(١) . ولا شك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحفون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداها ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها ^(٢) .

(٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢٢٨/٢

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٢٨

ولم تحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وما ترجم إليه منه براهب رومي ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين ، ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الفساسة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . وملتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرقاع العاملي اليمني والطرماح الطائي اليمني ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي بين شعراء بني أمية ، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بني أمية تكتسب بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء المدبجهم وأخذ نواهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق بمدح هذا الخليفة أوزاك ، والخلفاء يُقدِّرون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجبرير وعبد الله بن الزبير وذو الرمة والعجاج وابنه ربيعة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثيرون والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعي الثميري . وكان الأمويون يعدونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلواهم في العطاء ، وكانوا ما يزالون غادين عليهم وأنحن بقصائد طائفة يروونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قلناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشراء لعهدي أبي أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المئين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يسترقه الغزل والتغنى بالخرق حتى بعد خلافته ، مما أعد بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتستغل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصعدون في شعرهم عن الترهات التقليدية التي تُنظم الشعر العربي على أنصاتها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمحت أسماؤهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميين البغائي وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حَنْوُشار بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غرارته تلميذه منصور العربي الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابيين شاركوا في نهضة وازدهاره . بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التمينق الحسي والفكري ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا للمذهب الذي أعطاه صبغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحرني ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في التفوذ إلى دقات الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليد في الصياغة ، وكان لا يراى في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبت الأجيال التالية في العالم العربي على دراسة ودراسة أستاذة متخلدة منه نموذجاً للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذة نموذجاً للبديع الحسي والمعنوي الذي يرضى للتصنيفة والمتعمقين في المعاني . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفيين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبي تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحتري ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ونشرف بعد البحتري على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصنوبري وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونغضى في عصر الدول والإمارات ، وقد عُني بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبي في بيتته ، متحدثا عن الشعراء التائبين في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . وبلاحظ في فواتح كتابه أن كَيْفَةَ الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجع على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خُفَّتْ وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل بيتته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر فربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبهذه من بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق مجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم لإياهم .. وروّزوا ملوكا وأمرأ من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهدون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويستقده ، ويثيب على الجيد منه ثيبجلد ويفضل » . ولستأ نريد أن تناقش الثعالبي في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبئ عنها الأبواب التالية في البيتة ، فقد جعل الثعالبي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشمال الشام وملح شعره وغزواته الحربية للظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور . ونخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمرأ الشام وقضائهم وكتائبهم . وأفرد الباب الخامس للستبي شاعر سيف الدولة للبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومر بنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جني وغير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايمنا الآن بيان ذلك إنما يهمننا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أنماها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى يقول الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبّاحة - والخالديان - وكانا خازني مكتبه - والسّلامى والسّرى الرّقاء والوأياء الدمشقي والثامى المصيصي وابن نبانة السعدى والبّقاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبي ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعرفون بالمعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثين .

ومضت الشام في نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصوري وأبى الرصعق والواساني وجميعهم ترجم لهم الثعالبي ، ويعنى الباخريزي في دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقي نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء الممرى وابن سنان الحفاجي تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهاني في الخريدة . ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثاني من القرن الخامس ومطلع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين في تلك الحقبة ابن حيوس وله ديوان ضخم في مجلدين . ويعرض العماد الأصبهاني في خريدة القصر تراجم مستبصرة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة في أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونزاه في مطلع هذا الجزء بشيد شعر الشاميين ويرفقه درجات حل شعر أهل العراق ، بالضغط كما صنع الثعالبي ، يقول : « شعر الشاميين أصبح وزنا ، وأوسع مُزنا ، وألحن صيغة ، وأحسن صيغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم معنى » ويُشيد بطائفة من قدامتهم مثل البحتري وأبى تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصوري وابن سنان الحفاجي وابن حيوس ، وكأني به نسي أباه العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم في هذا الجزء لابن الحيايط الدمشقي تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك يجزه اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبهم الشام في القرن السادس الهجري من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسي والقيسراني وعرقله وديوانه مطبوع وفتيان الشاهوردي وديوانه مثله مطبوع وابن قُسم الحموي وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد ديوتا وشعراءها كبيت آل الممرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَيْن ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الحُرّاط . وكان العماد لم يترك في الشام لزمته شاعرا كبيرا ولاصفيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ وال تراجم بشراء الشام بعد زمن العاد في أيام الأيوبيين والماليك
والممانيين ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاذي الكبي والوافي
بالوفيات للصفي ومطالع البدور للغزولي والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي
وربحانة الألبا للخضاعي ونفحة الرحانة للمحي وسلك الدرر للمراي . فكل هذه الكتب تحمل
عشرات من شراء الشام في حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من ناسهم في تلك الأزمنة والحقب أيام
الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاني والصاحب شرف الدين
الأنصاري وأيدمر الهبوي والشاب الظريف وأبيه حفي الدين التلمساني وابن الوردى وابن النقيب
الدمشقي ، ونموذج لوفات المكتبات في العالمين العربي والغربي بدواوين كثيرة لشاميين لا تزال مخطوطة .

٣

شعر دوري - رباعيات - موشحات - بدعيات - قصيدات

(١) الشعر الدوري

منذ ابتدع الشعراء في العصر العباسي الأول الشعر المزدوج الذي يتكون من شطرين متقابلين ،
وتتوالى فيه الشطور المتعاقبة ، والشعراء يكثر من في جميع الأقاليم الإسلامية ، وهياً ذلك لظهور
أنماط مختلفة من الشعر الدوري الذي تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويطلب أن يكون
كل دور يعين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند
أبي نواس وأضرابه نمط المسطحات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس
تتحد قافيته في كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافي في الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ،
وكان الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوتة في عقد تلتق عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه
القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا في العصر كثرت هذه المسطحات ، وهي قد تكون
رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هي للمكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية
أو تساعية ، ومن هنا بالنظم فيها أسامة بن منقذ في ديوانه منها أربعة مسطحات خماسية ، ومن
قوله في أحدها ^(١) :

جد المجد ص ٤٠ .

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع للطبعة الأميرة
بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوي والدكتور حامد

كَمْ رُضْتُ نَفْسِي بِالسُّلُوفِ فَاثْمَعْتُ وَكَمْ أَضَاعُوا مَوَائِقَ الْهَوَى وَرَحْتُ
وَمَا نَقَمْتُ عَلَيْهِمْ غَدْرَةً فَصَفْتُ^(١) وَلَا أَضَعْتُ لَهُمْ عَهْدًا وَلَا أَطْلَعْتُ
عَلَى وَدَائِهِمْ فِي صَدْرِي الْثَمَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن للمسقط خماسي
الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسقطات في دواوين ابن الساعاني والصاحب شرف الدين الأصبغاري
وأبدمر المجهزي زمن الأيوبيين ، ومعنى الشعراء في الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين
الصفدي ، ونظال نلتقي بها في الحقب للتأخرة .

(ب) الرماحيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تتألف بيتين ، وتتحده الشطور : الأول والثاني والرابع في
القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف . وللرباعية وزناتان هما :
« فُطُنْ فُطُنْ مَسْطَعُنْ مَسْطَعُنْ » و « فُطُنْ مِطَاطُنْ فُطُونْ فُطُنْ » وقد أدخلت تشيع على ألسنة
الشعراء في هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قسيم الحموي المتوفى سنة
٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفي خاتمة ديوانه منها اثنا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفوف الجاسر ما أحسنه ولو بقلب قاسر
بيتر كأنه قضيبُ الأمر سكران ولم يلقَ حبياً الكاسر

وذكر ابن خلكان أنه كان للمهاد الأصماني ديوان صغير جميعه كُويّيات أورماحيات ، وطلاقة
فيها كانت بلدان نور الدين في الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل
قوله^(٢) :

لا راحة لي في العيش إلا أغزو سبي طرباً إلى الطلى بيتر^(٣)
في ذلٍّ ذوى الكفر يكون المرء والقدرة في غير جهاد حَجَر

(١) صفت : مالت

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (طبع سطحة

وادي النيل) ٢٠٧/١ .

(٣) الطل : جمع طلاء أو طلبة : المتق أو صفحة .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دويئات ، رآه ابن خلكان وأُشيد منه في ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْهِكَ زاوِ زاهرُ والسُّحُرُ بِمَقْلَبِكَ وافرُ وافرُ
والعاشقُ في هواك ساوِ ساهرُ يرجو ويخافُ فَهوَ شاكِرُ شاكرُ

ونظّل نلتق بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام الممالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وسهاء الدين العامل وعبد الغنى النابلسي وغيرهم من الشعراء^(١) ونحن شأحت التورية بشأ الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا^(٢) :

لما حُجِبَ الكَرْنَى عَنِ الْأَمَاقِ وانقاد مع الجِثَا على العُشَاقي
ناديتُ وقد تزايدتُ أَسْوَاقُ ياغُصْنُ رَضِيتُ مِنْكَ بِالْأَوْدَاقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوداق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد^(٣) :

(ج) للموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها للشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خَرَجَ يَسْتِي بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسطلات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإصبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسط نظمته ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يمرى على هذا النمط^(٤) :

قَوْلُ لَطِيفِكَ يَشْنَى عَسْ مَصْجَمِي عِنْدَ التَّامِّ

عند الرقاد عند المجرى عند المجرى عند التوسن
فمسي أنام فتنطق نار تأجج في المظلم
في الفؤاد في الضلوع في الكبود في البدن

ويستمر المسقط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروي جديد . وكأنما وقع هذا المسقط الغريب أو قل هذا الموشح القريد لتقديم بن معاني شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد الروافى (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب هذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى الشرق الأندلسيون للمهاجرين إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوائنها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصارعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناصبيا ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد النعم الجلباني الأندلسي الطيب نزيل دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وقاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودويّات » أوربا عيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نثقي بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توشيح ^(١) التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا . لشمس الدين محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٢١ . ويقول ابن شاكراً إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان . فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون ^(٢) . ويسوق نفس الموشح الذى ذكره الصفدى . ويستعمله بقوله :

بأى عُصْنُ بَانَةٍ حَمَلَا بَلَّرَ دُجَى بِالْكَالِ قَدْ كَمَلَا أَهْبَنُ
فَرِيدُ حُسْنٍ مَاسِ أَوْسَفَا
إِلَّا أَغَارَ الْقَضِيْبَ وَالْقَمَرَا
يُبْدَى لَنَا بِابْنِ سَامِهِ دَرَا

(٢) راجع ترجمته في فوات الزهراء ٤٩٢/٢ والوفاء
٢٠٩/٤ وانظر فقه الأئمة للتراجم ص ٧٧ .

(١) حقق هذا الكتاب أمير حلقى ونشره بدار الثقافة
بمروت .

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدي بجانب هذا الموشح موشحا
لجمال الدين يوسف الصوفي المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعبارة وجمال اللفظ والصور
كقوله:

ساحرٌ بالدلائل ساحرٌ بالعُصْبُ فاتقُ في الكنان لائقٌ بالحُبُّ
بَشَدًا المسك فاح نحرُ هذا الخزان
باسمُ من أفاخ كفر يدِ اللّان
رُدَّ نورَ الصباح كظلام اللّيلان

وأشدد الصفدي لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات
مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، وقلا يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها ، ويطلب التكلف
على موشحاته ، وفي أحيان قليلة يمس في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة
موشحة لابن البائنة الأندلسي :

بات بَدْرِي وهو معتق أحسنى فاهُ وأرثقُ
وبه أسيت مُحمدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بلر السما كَمِدا

وقد أشدد النواجي في كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحتين
لابن حجة الحموي^(١).

ويلقانا وشايعون منتظفون في زمن العثانيين على نحو ما يذكر الهبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر
العصفوري^(٢). ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين
ابن الخطيب استله بقوله^(٣) :

يا ليلي السَّحْبُ من عهد الصُّبا يأسَى مثاقيلُ صوبُ الدُّبَمِ
كم تسرَّفتُ بها بين الرُّسَى خلَّتْ مرث كليلو الحُلَمِ

(٣) ديوان ابن النقيب نثر المجمع الطبى العربى بمسند

(١) انظر فهرس عقود اللآل للتراجي

(٢) نسخة الرحانة المحبى ٢٢١/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشاحين مهينين هما أيلمر المهيوى والمخار الحلبي .

أيلمر المهيوى^(١)

لأنعرف شيئا عن نشأة هذا الشاعر ومراه ، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدا بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان على شتونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحات في المديح يستلها بغزل بلديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَرُ عِطْفَ النَخْصِ مِنْ قَامَتِ
مُطْلَمَا لِلشَّمْسِ مِنْ طَلَعَتِ
ثُمَّ نَادَى الْبَدْرَ فِي لَيْلَتِهِ
أَيُّهَا الْبَدْرُ تَغَيَّبَ وَيَحْكَا مَا احتاجُ النَّاسَ لِلْبَدْرِ مَعِي

وعلوية موسيقاه واضحة في هذا اللوح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولا يفارقه هذه العلوية حتى حين يمتنع إلى التكلف على نحو ما نلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وسُماره النجوم	ساهر	فمن تَرَى	عَلِمَكَ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصاى	صاى	لا يعلد	
فجته خافق الجناى	ناى	مبيل	
والطُرف من دائم انكباب	كاي	مخبل	

(١) ١٠٩/٤ وخطت للقرنيزي (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه طبعت دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيلمر غوات الوليات ١٤٠/١ والانتصار لواسطة ضد الأسماع لابن دلفاق (طبع مطبعة بولاق)

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الفصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكون من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصاى مستخرج من التصاى وبالمثل نالى مستخرج من الجناى ، وكاى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

للحكاك^(١) الحلبي

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ بَمَحَر الكنان أى بفلسه ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيها ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيلمر الهبوى في موشحته المذكورة آنفاً ويستلها على هذا النمط :

ماناحت الورق في الفصون إلا هاجت على تغريدها لوعة الحزين

هل ماضى لى مع الحبايب	آيب	بعد الصدود
أوهل لأيامنا النواهب	واهب	بأن تعود
بكل مصقولة الثرائب	كاهب	هيباء رُود

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالاً بديعاً للتلحين والتنظيم على نحو ما يتضح في كلمات « آيب - واهب - كاهب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى للمار ذكره في العراق ، افتتحها بقوله :

مذُيْمْتُ سَنَا البروق من نعمانٍ باتت حَلَقِي

(١) انظر في المحار غزوات الرقيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، وانظر توشيع التوشيع للصفيدي إذ توارد مع صاحب القوات على أُرْسَةِ من الموشحات وانظر عقود اللآلئ رقم ٥٢ ، ٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والجرم الزاهرة ٢٢١/٩ والرقائق ٤/٢٨٠

تَذَكَّى بِمَسِيلِ دَمْعِهَا الْمَثَانِ نَارَ الْحَرْقِ^(١)
 مَا أَوْمَضَ بَارِقُ الْجَمَى أَوْ خَفَقَا
 إِلَّا وَأَجَدْتُ لِي الْأَسَى وَالْحَرْقَا
 هَذَا سَبَبٌ لَهْنِي قَدْ خُلِقَا

وتصويره لمسيل الدموع للتدفق بأنه يضمم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المخار على هذا النمط تجمع الأذن والقلب والخيال بصفاء موشيقاها وورقتها وما يُطَوَّرُ فيها من جمال التصاوير .

(٥) البديعيات

مرَّبَّنَا أَنْ الشَّامَ - منذ أواخر القرن الثاني الهجري - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر وشبه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد في فن الشعر سميه في كتابه الفن وملاهبه في الشعر العربي ، باسم مذهب التصنيع أى التثنيق الناشئ عن استخدام محسنات البديع للمروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لا تكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام في المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد فحوره في الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى في هذا الإكثار وإن ظل يستعمله كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ولجند الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبي فراس الحمداني^(٢) :

وما السلافُ دهني بل سَوَافُهُ ولا الشُّمولُ دهني بل شِثَالُهُ

ولعل شاعراً شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٣ هـ وكان يتابع أبا تمام في الإكثار من المحسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العهد الأصبهاني في الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجل ذلك مراراً على الشعراء

(١) تذكى : تضرع .

الفرنسي بدمشق ٢٠٢/٢

(٢) الديوان لمحمّد . د . سلس الدعان (طبع للمهد

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيصراني وفيه يقول :
 « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » ^(١) . وعلى شاكلتهم شعراء الحريدة لافي
 استخدام الجناس وحده بل في استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من
 الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية
 وأشاعتها في شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين
 وميلهم من قديم إلى النكته ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية
 ابن قادوس وابن قلاقر ، وحمله بعدهما القاضي الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار
 الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة
 المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن جنيّة الحموى في خزانته إذ
 ذكر السابقين في المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم
 وتأثرَ نصرهم » وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز
 الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ النهجي المتوفى سنة ٦٨٠
 وبجير الدين بن نعيم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن الضيف المتوفى سنة
 ٦٨٨ وعجى الدين بن قرناص الحموى للمتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة في خزانته بأشعارهم في
 محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا في باب التورية ، واستطاعوا في أحوال كثيرة
 أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التي تلقانا في توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ ^(٢) :

يَمُرُّ بِي كُلُّ حَبِيرٍ وَكُلُّ مَرٍّ يَحْلُو

وهو لا يريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر في أول البيت ، وإنما يريد مر من
 المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن نعيم ^(٣) :
 أَيَا حُسْنُهَا مِنْ رَوْضَةٍ ضَاعَ نَشْرُهَا فَغَادَتْ عَلَيْهِ فِي الرِّيَاضِ طَبِيرُ
 ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضيوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

(٣) غزوات الوفيات ٥٤٢/٢

(١) الحريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

يضع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه ^(١) :

ولقد أتيتُ إلى جَنَابِكَ قاضياً باللُّثَمِ للعتَبَاتِ بعضُ الواجبِ
وأُتِيتُ أقصد زورةً أخطفُ بها فُرُودَتُ - يا عني - هناك بمحاجرِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البُوابُ المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزانته باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله ^(٢) :

قال لي العاذلُ المُنْعَدُ فيها يومَ وافتِ فسلُمتُ مُخْتَالَةً
قم بنا ندْهي النبوةَ في العثِ حق قد سلُمتُ علينا الغزاة

وللغزاة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبة الجميلة التي تشبه الغزاة وهو المراد .

ويتبع ابن حجة مأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتبع ما أخذه الصفدي من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدي يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعة وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدي - كشعراء مصر يعنون ب تلك المحسنات بقية زمن المالك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وهى بن أيك اللمشق المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمنين شطوَر أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل «سورة الشمس» في قطعة غزلية له مستهلاً لها بقوله ^(٣) .

قسماً بِشَمْسٍ جَيِّنِهِ وَضَحَاها ونهارٍ مَبِيبِهِ (إذا جَلَّأها)

(٣) ديوان صاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع

اللسان العربية بدمشق - تحقيق د. حمر موسى) ص ٥١٥

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٢٤

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوال قوافيه : (يَغْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشْقَاهَا) ، ومن طريف الاختباس في الغزل قول فتح الدين بن الشهيد ^(١) :

في صدرها رُمانٌ نَهْدَ زَانَهُ حَلْيٌ (يُوسُوسُ في صدور الناسِ)

ويريد يوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لا نفع فيه الذم (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمن لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجمر الدين بن نعيم مضمنا لبيت من أبيات المتنبي في وصفه لزهرة اللوز إذ يقول ^(٢) :

أزهر اللُّوزُ أنت لكلُّ زهرٍ من الأزهار بآتيت إمامٌ
« لقد حستُ بك الأيام حتى كأنك في قَمَرِ الدَّهرِ ابتسامُ »

وعُنى كيمون باقتباس الشطور الثواني من معلقة امرئ القيس وتضمنها في قصائدهم . وسنلتق بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هى التى أعطته صبغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم اليبانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » ، وما نصل إلى أبهى العلاء العربى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم ، وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تتظم حروف المعجم حرفا حرفا ، وفى كل حرف يأتي بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزمانها في حمية شديدة . وليس هذا كل ما فى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بمرض كلمات غريبة لا تكاد نحصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله ^(١) :

أشراك ذنبك وللهيمن غافر ماكان من خطي سوى الإشراف

ومعنى أشراك : أخراك وأوقطك في الإثم . ويكثر هذا الجنس للمعد في لزوم ما لا يلزم أوفى الزوميات ، ولا يكتفى أبو العلاء بتحد الجنس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب تحقنا أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من تلك وغير تلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل ^(٢) :

بقائ الطويل وغيب البسط وأصبحت مضطربا كالرجز

والطويل والبسط والرجز من مجرّد الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعطل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرمى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفضه على دعائم متينة لاق قصيدة واحدة أو قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيوس متغزلا ^(٣) :

أوصاب جسي من جناية بئدكم والصبر صبر بئدكم أو صاب

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مر . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عتّين ^(٤) :

عسبروها بأنه ما عسدى لسو عنها ولو مات صلا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العائنين . ويقول الحموي في خزائنه : « كان الشيخ صلاح

(١) الفن وعلامه في الشعر العربي (طبع دار المعارف

(٢) الديوان ٨٨/١

الطبعة العاشرة ص ٤٠١

(٤) الديوان (لحقق خليل مردم طبع دار صادر) ص

الدين الصفدى يستحسن ورمه ويظنه شحا فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دقاتره (شعرا. وترا) ويأتى فيه بتراكيب تخف عندها جلايد الصخور . ويسوق من هذه الجلايد أمثلة لعل أخفها قول الصفدى ^(١) .

وكم شئت لما قئت مقدار وُدكم بوارق بأسر في بوار قياس
والجناس في الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يخططان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه غير قليل من التقل فا بالنأ بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولا نعلم أن نجد بين الشعراء من يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها تصك الآقان صكا حيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة ٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا في نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره ^(٢) :

إذا أُشيتَ نظمَ الشعرِ فاخترَ لنظمتك كلَّ سهلٍ ذى امتناعٍ
ولا تُفصدَ بجانسةٍ ومكُنْ نوافيه وكنهه إلى الطُّباعِ

وقلبون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء في القرنين الرابع والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم في ذلك كثير من الألفاظ . وينشد العباد الأصمى في غريدته صورا كثيرة من هذه الألفاظ ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العباد بصورة مقدمة من تصنعه في القوافى إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا ^(٣) :

قل للأمر أخى التدى	والتائل	المطاليل	للشعراء	والقُصائد
لازلت تنهك الجدا	بالذابل	المسالو	في الاحشاء	والأكباد
ووقيت من صرف الردى	والتازلو	للمخالو	للأعداء	والخسائد

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

التصنع والتعقيد . وينشد الهادلا بن قُسيم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولواها من صاد وثانيها من سين أو المكس^(١) . وما أنشده الهاد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون^(٢) ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المرة قطعة نُقرأ على سبعة أوزان^(٣) . ولابن حنين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان^(٤) في مدحيه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسَنَ سِرِيئَهُ وَقُدُسَ سِيحَتُهُ وَسَمَا بِأَسْلَافِهِ سِرَافُهُ شُوسُ^(٥)

يينا تشتمل كل كلمة في ثانيها على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألفاظ والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو ما يلقانا في ديوان ابن حنين وأيضاً في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثانيين . وظل غير شاعر يصنع للملا يلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه^(٦) .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في القرون الثلاثة الأولى من القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضوع . وقد أصبحت المديح في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مداحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي ولساني وأدبي ، على نحو ما أثر بنا ، وغدت مقصد الأديباء وحلبة الشعراء ، وجامعها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزج جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله يثرون عليه قصائدهم

(٥) السخ : الأصل ، شوس جمع شوس : الشجاع

القدام

(٦) غرات الفوايات ٩٨/١

(١) الحريدة (قسم الشام) ١٤٧/١

(٢) الحريدة ١٥/٢

(٣) الحريدة ١٠٨/٢

(٤) الديوان ص ٩٦ . ٩٨

ومدائهم بالعشرات - إن لم يكن بالمئات - مسجلين للبطل العربي مجده الحربي العظيم ، وقد صودنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المنتهى فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغدادى ، فكتاب البنية للشاعري يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بدعية . ويكفى أن نشير إلى من حقوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والأواء التمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد البصيصي المشهور باسم النامي ، وكان عند سيف الدولة يطربأبا الطيب في الخترة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه (١) :

أَمِيرَ الْمَلَأِ إِنْ الْعَوَالِي كَوَاسِبٌ حَلَامِكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
يَمُرُّ عَلَيْكَ الْحَوْلُ ، سِفْكُ فِي الطَّلَا وَمَرْكُكَ مَا بَيْنَ الشُّكْبَةِ وَاللُّبْدِ (٢)
وَيَعْنِي عَلَيْكَ الدَّمْرُ ، ضَلُوكَ لِلْمَلَأِ وَقَوْلُكَ لِلثَّقْوَى وَكَمْكَ لِلرَّفْدِ

سيف الدولة دائما محارب يديق أحقاد البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكي السلاح ويصره مصوب إلى فرسه الذي يهلك باستمرار شكيبته استمداذا للترال . وما الإنسان إلا فضل وقول وسيف الدولة دائما للملا ومنازله الرقيقة وقوله للتقوى وحفاة الله ، أما كنهه فللمعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومربنا أن نعرض هنا **قصة الشيعة الفاطمية المعروفة** - كما مر بنا - من ألوية علي بن أبي طالب . ويمكن لأكثر المصلح في القاموس استطلاع **قصة الخليفة الفاطمي** علي فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ وقرى نفرا من شعراء القاموس يترنون القاهرة معتقدين - علي ما يبدو - تلك النحلة ويعتزون بمصباح الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلثوم وفي مقدمتهم أبو الرقيم أحمد بن محمد الأظفكي ، وله في الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله في ابن كلثوم بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ خِصَّ عَدَاؤًا إِلَّا وَأَخْمَدَ نَارَةَ

القاموس

(١) البنية ٢٢٥/١

(٢) البنية ٣١٠/١

(٣) الخلا : جمع طية أو طلاة كما مر . وهي الحق أو صفحة الشكبة : الحديقة المخصصة في قم القصر من

كل يوم له على نوب الدُّم رِ وكَرَّ الخطوب بالبذل حارة
ولأبي العلاء المرى ديوان معروف يسمى «سَقَط الزُّند» أكثره مدائح نظمها على سبيل
البرين لا قصداً للمديح شخص بعينه إلا ماندر، فهو لم ينظم أكثرها طلباً للكسب وبذل العطاء،
وإنما على سبيل التدريب اتباعاً لشعراء المديح المشتريين بزمنه في كل مكان، ومن قوله على
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند:

مَكْلُفٌ خَيْبُهُ كَصَمِّ الْأَحَادِي وَجَاعِلُ غَايَةِ الْأَسَلِ الطُّوَالِ
نَكَادُ يَمِيهِ مِنْ غَيْرِ رَامٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ قُلُوبِهِ الثَّالِ

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتصر بنفسها الرجال. وإنه لأسد حثاً غير أن
هرينه ليس غائباً بل رماحاً طويلاً تخطف الأرواح خطفاً، وإن يَمِيهِ لتصيب أعداءه في الصميم
دون رام يترقع عنها النبل والسهام، وهي مبالغة مألوقة عند أصحاب المديح لأبامه.
ومرَّبنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب، وحُثي منهم خاصة محمود بن نصر يجمع
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كخمسون منهم عبد الواحد الحلبي الرمي وابن حَيَّوس الدمشقي
وابن النحاس الحلبي وابن ستان الحفاجي. وحدث أن قطبان أنطاكية أوبطريقها استولى في
شعبان سنة ٤٦١ على حصن وأسفونا، ونكّل تنكيلاً شديداً بأهله، فحاصره محمود بن نصر
وفتق بجميع رجاله، وكانوا نحو ألفين، وردَّ محمود الحصن على أهله، وهنَّاه ابن ستان الحفاجي
بهذا النصر للبين قاتلاً في إحدى قصائده^(١).

إِنْ أَظْهَرْتَ لِمَلِكِ أَنْطَاكِيَّةٍ حَزْناً قَدَّ ضَحَكَتْ عَلَى قُطْبَانِهَا
لَا أَطَّلُ لَهُ لَوَائِكَ خَافَقًا حُرُفَتْ وَجْوهُ الدُّلَّ فِي صُلْبَانِهَا

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قلَّم له كخمسون من شعرائها
مدائحهم، وكان وافر العقل بصيراً بتدبير الملك شيوخاً بعيد النظر، فأسس الدولة السلجوقية خير
سياسة، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران، وله يقول محمد بن أحمد
الشاطري الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب^(٢)

(١) زبدة الخلب من تاريخ حلب لابن الدج ١٤/٢ و ١٤٩ (٢) صبة القصر ١٩٩/١

بعدما والحيوان طبة ههوت ص ١١٣.

بأخبر من خفت عليه رايةً وأجل مقود عليه لواء
لك كل يوم مئة سبابة في الحافقين وغارة شعراء

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة طرابلس ، وكانوا يُقرّون منهم الشعراء ويمزّلون لهم في العطاء ، وذكر الهاد الأصماني في الخريدة نقرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلاف الممرى ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم ^(١) :

بمخاطك التوفيق لا يألوك في تسهيل لك كل صعب أوعر
دامت لك النماء موصول بها توفيق منصور اللواء مظفر

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناعة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلاف - فيما يبدو - شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وله يقول في إحدى مدائحه ^(٢) :

ليزدد علوا ملك مصر فإنها به حرم الله العزيز المحرم
لكة مصر ، والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت ، والليل زمر

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بني عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر المثنى ابن الحياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمرأ حصن شهيد : بنو مقلد بن مقلد على شاكلة بني عمار في طرابلس يتردد مدحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن مقلد « شير » من أيدي الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هـ هدمها من قواعد وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم عمرها في القرن الخامس على بن مقلد ويخلفاته في حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقبسرافي .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو النزي إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ هـ وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

إلى كزمان وشيراز في فارس وهرات في أفغانستان وكلما ألم بيلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كزمان مدائح بدیعة من مثل قوله ^(١) :

مادحونه من بنى الشعر إلا أَمَلَّ الذُّمُّ نفسه للشهاني
جُمیع الأُمْدُ والكواكب والأب حَرَّ والتأثر منه في إنسان
واستجاب له مناقبُ شکی لم تُجَلَّ في خواطر الإمكان

ويتبه البطل المغوار أتابك الموصل حماد الدين زنكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تحاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعة إلى تخويف البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لا بد من جمع كلمتنا تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا في سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويصف بهمجوعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حيث من سباته الطويل . ويتبارى الشعراء في مديحه والإحادة بانتصاره ، وفي مقلعته ابن منير والقيصري . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح للدين ، وفيه يقول ابن منير ^(٢) :

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافترَّ تَبِيبُهُ واهترَّ عِطْفَاهُ
أين الخلائف عن فتح أتيح له مظللُ ألقِ الدنيا جناحه

ومضى ابن منير في القصدية يعل - نحن - هذا الفتح على فتح المعتم لمعوية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زنكي على الملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق . وبدا حيث - في الألق - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مها طال الزمن .

وامتدت إلى حماد الدين سنة ٥٤١ بد آتمة في الظلام فتكت بالبطل الباسل ، وحمل الربة بعده ابنه نور الدين ومضى يحاهد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فنادى إلى الرها ، واستردّها

بأواحد في النصر غير مشارك
كم وقعة لك في الفرنج حديثها
و جعلت في أعتاقهم أخلالهم
وسحبتهم هوناً على الأذقان

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصورة في الجزء الخاص بمصر، وما وافق سنة ٥٨٢ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامى، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادى وموفق الدين الإربلى والشاتالى الموصلى وابن الساعاتى الدمشقى وله مدائح كثيرة متاثرة في كتاب الخريدة، وللعماد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصل فى مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين الساترين^(١):

وإني امرؤ أحبيكم لمكارم سمعتُ بها والأذنُ كالعين تمشقُ
وقالت لي الآمالُ إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنْتَ للوقفِ

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عتَم الدمشقى فيه وفى ولديه العظيم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة في العادل يستطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول^(٢) :

العادلُ الملكُ الذى أسماؤه في كل ناحية تشرف ينبرا
نسختُ خلاقه الكرمُ مأتى في الكُتب عن كسرى الملوك ويُنصرا
ملكٌ إذا خفتْ حلومُ ذوى الثَّقى في الرُّوع زاد رزانةً وتوهُرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذى يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شحنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

وهو ممدوح فتبان الشاهودي دُيِّع فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حاة الأيوبيين ، وكانوا ملحقين . ومن أسبغ عليهم مدائحه صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البلاء ، وثوّه صاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلاً بمثل قوله ^(١) :

بَعَيْنَ جَالُوتَ خَضَّتْ بَحْرٌ وَغَىْ يُخَالُ فَلَكَا بِالْأَسَدِ مَشْحُونَا
وَكُنْتُ لِلْجَيْشِ غُرَّةً شَدَحَتْ أَنْوَقَهُمْ فَانْتَشَرُوا مُؤَلِّينَا

وطوال أيام الممالك كان يرتفع صوت الشر للتويه بأعالمهم . وكان لانتصاراتهم على التار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشر ، ومرَّبنا في قسم مصر أن الظاهر يبرس كان دائماً يتعظيم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئ الشرق فخاص إلى لَجَبَةٍ وخاضها جيشه معه ومزقههم شر مُزَقٍّ ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الممشق ^(٢) .

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ
اِقْتَحَمَ الْمَاءَ لِبَطْنِي بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنْ الْمُثَلِّ

ولم يستول الظاهر يبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلبل الشر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شر المديح في الشام يتحوَّل إلى شر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمدة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريين من إستامبول وكانوا لا يزالون غادين عليها رانحين ، مما جعلهم يكثر من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بشفيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة (٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مابلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلطن سليمان وسلميم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حيث مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثر من المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يحيطون ذلك في آخر شطر بالمقدمة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجددير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح التابئين .

ابن الحياط^(١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التظلي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لحياط اشتهر بنسبه إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب لدمشق . وداعما بلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت متاحها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيئا ، وكانت للمساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكبات خاصة بالكعب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا حصر لهم .

وشهد ابن الحياط في صباه دمشق نائرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقفه وتناثرت فصوصه الملحبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائما في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تثنى آخر السلطان آلب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سواءا شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزها تثنى مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الحياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولّى وجهه نحو حماة ، ووفد على أميرها يسمي محمد بن حالك فقربه منه واتخذة كاتباً له ، فُرف باسم ابن الحياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جَوْدُهُ عَيْشًا كَأَنِّي ظَفَرْتُ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِرَاقًا

خلكان ١٤٥/١ والثلاثرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ترجمة ابن الحياط وشعره تهذيب تاريخ ابن حساكر ٦٧/٢ وذييل تاريخ دمشق لابن القلاسي ٢٣٤ والخريدة (ببلدية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حُبوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حُبوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع توبه بشره . وأوصاه أن يقد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله بقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جالاً ظلو كانت يلك كنت السَّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيزر ، فانصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لخصمهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزَّ حَضَاءَ أرضهم أَعَزُّ مثالا من نجومِ البَهابِ

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حُبوس ، فيترك طرابلس قاصداً بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليته ، وفيها لحسن فرحة ببقائه من مثل قوله :

كني يَدَي جلال الملك حَبَا إذا نزلتْ قَرَارُهُ كُلُّ وادٍ
فمن ذا مَبْلَغِ الأملِكِ هنا وَسُؤاسِ الحواضرِ والسُّبُودِ
بأننا قد سَكنا ظِلَّ مَلِكٍ مَخُوفِ البأسِ مَرَجُو الأبدِ
لما نَحْنُ محاربة اللبائِ ولا نَسْجُو مَسَالَةَ الأهدى

وهي بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأبناء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدتها الطيبة البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أعني فخر الملك قصائد لا تقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أأرجمي غيرَ عمارٍ لناجٍ إذن فلا تمشي كهُمُ الثَّوبِ

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له متاعاً لضاق به ذرعاً وإن رَجَا
البازلُ المالَ مسئولاً ومبتدئاً والصائِنُ المجدَ مودوناً ومكسباً

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحرق كل ما كان بها من أثاث ، فعزن حزناً شديداً.

وعث بابين الحياط الحنين إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاته بها أيام الشباب ، فساد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه من وزيره هبة الله بن بدیع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ودخل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ واستدع أمير قبيلة بنى كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبن أبوابه فمدحه بقصيدة بالية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما أبقي إلا حَباً مُتَهَلِّلاً إذا جَادَ لم تُقْلَعِ مواطِرُ سُحْبِهِ
أغرُ غياثٌ للأنام وعصمةٌ يُعَاشُ بِغُفَاهِ وَيُحَمَى بِذِيهِ
ولم يَرِ يوماً راجياً غيرَ سَفِيهِ ولم يَرِ يوماً خائفاً غيرَ رَبِّهِ
حَيْثُ حَبَاءٌ فِي سَاحِرٍ كَأَنَّهُ رِيحٌ يَزِينُ التُّودَ نَاصِرَ حُسْبِهِ

والقصيدة رالمة حقاً ، نوه بها القلماء طويلاً كما نوهوا بغزلها واستشهد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأغلوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُجُكَيْن صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْدَاء ، وفي ديوان ابن الحياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستفزاً دمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إِرَنْجِيهِ جيوشُ كمثلِ جبالِ تَرْدِي
أَنُومًا على مثلِ هَذِهِ الصَّفَاوِ وهزلاً وقد أصبحَ الأمرُ جِدًّا
وكم من فاقو بهم أصبحت تُلَقُّ من الخوفِ نَحْرًا ونَحًّا

فحاموا على دينكم والحريم حمامة من لا يرى الموت فقد
قد أبتعت أروسُ المشركين فلا تُغفلوها قطاً وحَصداً

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد في حرب حملة الصليب ستنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مر بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعراً حاسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظناً أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصُرُوا في استتارة الأمة ضد حملة الصليب حيث . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترشد ابن القلائس المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

لَه فِقَرٌ لَوْ تَجَمُّدَنَ لَمْ يُفَضِّلَنَّ إِلَّا بَيْنَ الْعُقُودِ
فَيُظَلِّمَنَّ إِنْ قِيلَ نَوْدٌ نَخِيرٌ وَيُحَسِّنَنَّ إِنْ قِيلَ دُرٌّ نَفِيدٌ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتأدمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزْهٌ سَكِيمَةٌ في الخوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب الرُّدِّد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العمد الأصمعي في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الحياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغراب أو ما يشبه الغراب ، ومع جمال للموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة القليلة .

ابن القيسراني ^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بمكة سنة ٤٧٨

الدين زنكي وابنه نور الدين محمود والشهوات ١٥٠/٤
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للذكر محمود
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -
بمركز الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الحريدة (قسم
الشام) ٩٦/١ وابن القلائس : ٣٢٢ ومروءة الزمان لسبط
ابن الجوزي (طبع جيل آباد) ٢١٣/٨ ومجمع الأدباء
٤٥٨/١٩ وغير اللهي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤
ونجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ في حروب حماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية^(١) ، فَنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في القتال بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ما تشبكت مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ . ويعود طُغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ . واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والاتصارات العظيمة لطغتكين لاجئ لها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشد أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدنته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جنةٌ ففارقوها وفي أيديهم المدمُ
وغادروا أكثر القرى والمجفلوا وغطفوا أكبر الصُّلبان وانهمزوا^(٢)

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلائه منهم على المرة وبيزن ، وتأكيد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) المجفلوا : تشدروا

(١) كانت نغرا كبيرا من نغرا فلسطين .

خَلَارِ مَا وَأَتَى بِنَعِ الْحَمْرَةِ وَفِي الصَّوَارِمِ لَاتْنِي وَلَا تَلْزِمِي
وَأَيْنَ يَنْجُو مُلُوكُ الشُّرْكِ مِنْ مَلِكِهِ مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقِتْرُ

ثم يكون نصر حماد الدين العظيم باستيلائه على الرها من يدجوسلين وهو حار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آمليين في الانحصار منها إلى الجنوب ، وإذا حماد الدين يستولى عليها بيموشه ويطولته الحارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

سَمِعْتُ قَيْلَةَ الْإِسْلَامِ فَخَرَا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَكُ بِسَمِ الدِّينِ لَوْلَا حِلْمُهُ^(١)
مَصِيبُ سِهَامِ الرُّمَى لَوْ أَنَّ حَزْمَهُ رَمَى سُدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَصْحَى سِدَادَهُ^(٢)
قَتَلَ لِلْمُلُوكِ الْكَفَرِ تَسْلِيمًا بَعْدَهَا مَالَكَهَا إِنْ السَّيْلَةُ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العباد إنه زارها حاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمر أو كانت حاجة شخصية ، ويطلب على ظنت أنها كانت حاجة سياسية ، ولهم أنه شب بأفرنجيات وبرايات ونمادى في هذا التشيب ، وسذكر طرفا منه في حديثنا عن شراء القزل . وعاد من رحلته إلى حماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقتل حماد الدين بيد آتمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتفرجوسلين الأمانى ووقوف الأومن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكلا بالأومن ، ويهني ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا :

لَيْهَنَكَ مَا فَرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ
وَإِنْ يَكُ كَبَحُ الرُّهَا لَجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسرد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامي جميعه . ويحدث حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم في بقعة تسمى « بقرى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

مظفر في دمه ضميم طيه تاج الملك معقود
وصارم الإسلام لايتنى إلا وشلو الكفر مقدود^(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « أنب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاني ، ولم يفلت من القتل إلا من خبر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :
هذي العزائم لا ما تدمي القصبُ وذى الكارمُ لامالأت الكبُ^(٢)
أغرث سيوفك بالإفرنج راجعة فؤاد رومية الكبرى لما يجبُ^(٣)
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته القصبُ
من كان ينزو بلاد الشرك مكسبا من الملوك فنور الدين مُحْتَبُ^(٤)
فأنهض إلى المسجد الأقصى بلدى لجبى بوليك أقصى المني فالقدس مرتقبُ^(٥)

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحريين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامى على أصحابها المسلمين . ودائما يحوط بهالة إسلامية هو جليدها ، فقد كان يحارب في سيل الله لايتنى مفتا ، إنما يتنى ماعدت الله من الأجر والثواب ، حتى يقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .
إلا تكن أحد الأبطال في فلك الـ تحوى فلا تتارى أنك القطبُ

وكانه يعلو قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعش ابن القيسراني حتى يمجّد بقية انتصاراته المجدية على الصليبيين ، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقل وفي مجير الدين آقإ صاحب دمشق . ويقول الهماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الحياط فهو تلميذه وخرجه وراوى ديوانه .

(٤) محب : يجب أجره على الله

(٥) فوجب : الجيش . الحب : الصباح والجلبة .

(١) الشلو : الضمير وقية الشعر . مقدود : مشقوق

(٢) القصب جمع قصب : السيف القاطع

(٣) راجعة : تفتة ميم : يجب : يخفى

ابن^(١) الساعاتي

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رسم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنتم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرًا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية ويعمض ضروب اللهو مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتْ شُمُ الممالك بعد الزنْبُع والمِلْ
فليعلم القدسُ أن الفتحَ مستظرٌ حلوله وعلى الآفاق قَلْبُلُ^(٢)

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حَفُّوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :
موقعة جِطْلين على حافة طبرية ، وله يهته بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يبقوا بعدها أبداً ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِيثَا	وقد قَرَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهُ	وَصَدَّقْتَ الْأُمَانِي وَالظَّنُونَا
فَأَلَمْتُ بِالسَّوَاهِلِ فَهِيَ صَوْرٌ	إِلَيْكَ وَأَلْخَنَ الْهَامَ الْمُتُونَا ^(٣)
وَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ وَلَوْلَا	سُطَّاكَ لَكَانَ مَكْتَبًا حَزِينَا
أَدْرَتْ عَلَى الْفَرْنَجِ وَقَدْ تَلَاقَتْ	جُمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا

أنيس المقدسي (طبع المطبعة الأميركانية - بيروت)

(٢) بطول : يَفْخَرُ نَبِيهَا

(٣) صور : مَاطِقَةٌ وَنَاطِقَةٌ . الهام : الزهوس

(١) انظر في ابن الساعاتي وشعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣٩٥/٣ وعمر الذهبي ١١/٥ ومرآة الزمان : ٣٧٥

والنصرون البائنة لابن سعيد ص ١١٨ وشنبرات الذهب

١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

وذكر انتصارات صلاح الدين المجلاحة على حملة الصليب في يسان وغير يسان ، وتزأى له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر غلصها ومنقلها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعل لم تخفى شهر حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبنجا فرحا :

لقد ساغ قُحُ القدس في كُلِّ منطِقٍ وشاع إلى أن أسمع الأَسْلُ الصُّمَّ^(١)
ظلت فنى الخطاب شاهدَ قُحِّها فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أصمى
حبا مكة الحُصَى وكفى يثرب وأطرب ذباك الضريحَ وماضيا
وأصبح نُفَرُ الدينِ جدلانَ باسما وألسنة الأغناد تُوسعه لُفُما

لقد فُتح القدس عترة ، وإن قطعة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المسلمين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحا حريا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلا . ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت الهبة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغناد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يثبم بالشام وعن حول نور الدين كما يرضع من قوله في مدحة له :

أبكتنى الأيامُ مذ ضحكتُ لى عن نيوبِ نوابٍ عُصْل^(٢)
أفسدن خلأى لى فى الـ سراء والفساء من خِلْ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفى في موطنه سببا في أن يشد رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره ، وكان قد وطد علاقته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندما العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور في مديحه منادته له وبجالس أنه . وله مدائح في السلطان

(١) الأسل : الرماح والسيوف .

(٢) حصل : معوجة كقريب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يمتلئ بمشاهد الطبيعة وصَوَّر ذلك في كثير من شعره ، وفي دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النبل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسند ذكر بعضا من قصائده في طيعة دمشق وطيعة مصر وأبضا بعضا من خبراته .

الشهاب ^(١) محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقي الحنبلي ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بزيه أبوه وكان قفيا حنبليا ، فحفظ القرآن صيا . وأخذ يخطف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختفين مثل ابن مالك في النحو وابن الظهير الإربلي في الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يحلّه ويوده مودة عظيمة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكنه معاليه ولم يرَ قبله كريمٌ مضى والمكرّماتُ نوابه

وربع محمود في الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائلين على ديوان الإنشاء في دمشق يعينونه فيه وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محي الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان في عهد السلطان يبرس البند قنارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمري صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتباً محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء في دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله في الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متوقفا كما كان كاتباً بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامي الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تفرى يردى يقتصر في أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر يبرس وكان قد علم بمشود للتتار شرق

والتابع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء
والبدية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن
حجر ٩٢/٥ والدارس في تاريخ المدارس لشمس ٢٣٦/٢

(١) انظر في الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن
شاکر في ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر يبرس ١٦٤/١
وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

الفرات فرحف إليهم من الشام يجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفك مجموعهم وكاد أن لا يبق
 باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق سؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول
 فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمَنُ جَارُ وَاحْكُمْ فَطَوَّعَ مَرَايِكَ الْأَعْدَارُ
 خُفَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِغِ أَقْصَى مَنَى هَوَّجَ الصَّبَا مِنْ نَمْلِهِ آثَارُ
 حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى بَحْرًا سِوَاكَ تُقْلَهُ الْأَنْهَارُ (١)
 رَشَّتْ دُمَاؤُهُمُ الصَّحِيدَ ظَمَ يَبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّجْدَ غِبَارُ

ولم يلبث التار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأبلىتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقبوا
 على منازلة يبرس ، وعلم بذلك الجموع فباغتوا محيطا بها من كل جانب ، وقالت قتال للموت ولم
 يبق ذلك هنا شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البوasl الأهوال كالأهد الضارية إلى أن انكسر
 التار والروم وفروا متصممين بجبال وراهم ، وأحاطت بهم الساكر المصرية وقتلت منهم مقلة
 عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَلِمَا فَلْتَكُنْ فِي أَفْهِ غَمَضَى الْعَزَائِمُ وَلَا فَلَا تَجْنُوَ الْجَفُونَ الصَّوَارِمُ (٢)
 يَجِيشُ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّمَا عَلَى سَمَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيْقِ خَاتِمُ
 يَحِيطُ بِمَنْصُورِ الدَّوَاءِ مَظْفَرُ لَهُ النَّصْرُ وَالْأَيْدِ جِدُّ وَخَادِمُ
 مَلِكُ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ بِشَائِرِ لِلْكَفَارِ مِنْهَا مَاتِمُ
 مَلِكُ الْأَهْكَارِ الْأَهْلَامِ لَحْوِ كَلِمَا تَهْوَى الْكَرَامَ الْمَكَارِمُ

وسنذكر في جزء مصر أن الظاهر يبرس استولى على كثير من بلدان حلة الصليب وحصونهم
 مثل قيسارية وصفد والرملة وياقا وأنطاكية مزبلا منها مملكتهم ، ولم يلبث ابن تغرى بردى شيئا
 من شر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . وسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازلة
 الصليبيين ، ويستول على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك
 تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا حكا وصور وصيداء

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجد فوجه الشهاب محمود قاتلا .

الله أكبر هذا الثصر والظفر هذا هو الفتح لاماتزم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض ويز وملك الدنيا فقد نحت شوقا متابرها وارتاحت السرر^(١)
إن لم يوف الوري بالشكر ماضحت يدك فافه والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف
السلطة قوى البطش ، وعمجد أن استلته سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب
لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بمساكره من الديار المصرية حتى أحاط
بعكا في شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن
زحف عليها يمشيه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فجمعهم
الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوية والإشتارية في أول الأمر
محتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدوف أن فتحها تم في
السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذي كانت قد
سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة
بديعة مهتة « الأشرف خليل » مفتحتها لما بقوله :

الحمد لله ذلك دولة الصليب وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في النوم لاستحيته من الطلب
ما بعد عكا وقد هئت قواعدها في البحر للشرك عند البر من أرب^(٢)
لم يتق من بعدها للكفر مذ خربت في البحر والبر ما يتجى سوى الحرب
يا يوم عكا لقد أنسيت ماسقت به الفتوح وما قد خط في الكتب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك المالك واستعلت على الرتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان وسلمها إليهم حملة للصليب وتليا مدينة صيدا

وقلعة جَيْلٍ وحلب وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويعد
فروحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربي الفرات ، ويسته الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى
قاتلا من مدحة طويلة .

وَفُتِحَ بَدَا فِي إِثْرِ فَتَحِ كَأَنَّمَا سَمَاءُ بَدَتْ تَرَى كَوَاكِبَهَا الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلادون
وطيلى تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أنها
المنايح في أسنى المدائح » وهو مفقود ، وتستند له قطعا في حديثنا عن شعراء التصوف والمذبح
النورى .

منجك^(١) بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ في بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة
وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعلم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ،
حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يخطب إلى علماء دمشق ، أخذ القراءات على الشيخ عبد الرحمن
العادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوطلى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب
الذى شُغِفَ به منذ نشأته فقد أخذ عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا في إسراره ،
فأنفق ما خلفه له أبوه ، حتى إذا تَرَبَّتْ يده وضاعت به دنياه ولى وجهه نحو إسطنبول ، ولكنه لم
يحقق فيها ما كان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر
جمعه فضل الله الهبى والد صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة
العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات
والحمريات ، وأكثر مدائحه في الفقهاء والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفي مقدمة من مدحهم
شيخه في القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَدَى أَنَامُلُهُ وَيُشْرِقُ وَجْهُهُ فَبَجُودُ بِالْأَلَاءِ وَالْأَلَاءِ
يَقْظُ لَأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا جَلِيَتْ عَلَيْهِ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مطبوعات من ديوانه باسم
ديوان منجك .

(١) انظر في منجك ربحانة الألبا طبعة موسى الحلبي
٢٣٧/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ وضحة الربحانة ، وقد

ومهابة سادَ الولاة ولاؤها محضوةً بجلالته وبهاء
وشائله رقت كما خُطرت على زهر الربيع بواكر الأنداء

والصباغة رصينة جزلة ، والألفاظ عتارة متخبة . وللعاني مكررة في المديح التقلیدی ، غم
أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين
الكرم والبشر المزرق في وجه المملوح ، وبذلك جعله يهود بالألاء والنم كما يهود بلالاء الوجه
وإشراقه وما يمرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء واللآلاء جناس بديع . ورواضح كيف
لأم في البيت الثاني بين معناه وبين المملوح وكان مفتياً للمعنى ، فوصفه بالقطنة ودقة الحلس ،
وبمثل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصباغة . وقل ذلك نفسه
في البيت الرابع فشائله المعنى رقيقة عطرة كزهر الربيع بأكرته النسيم والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وهم
فضله وبره أدياءها ، وله ألف البديعي كتابه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » ، و« الصبح النبوي
في الكشف عن حبيبة المتنبي » ويقول منجك في تهته له بالعبد :

آلى الزمانُ عليه أن يُوليكَا بَيِّنَى حَلِكْ وَلَا يَأْنِي بَاتِيكَا
إِذَا سَطَا بِأَحْكَامٍ تَنْفَلُهَا وَإِنْ سَخَا فَيَفْضَلُ مِنْ مَسَاهِكَا
مَنْ ذَا يُضَاهِيكَ فِيهَا حَزَنٌ مِنْ شَرَفٍ وَمَنْ يُدَانِيكَ فِي جَلَمٍ وَيَحْكِيكَ
أَحْيَاؤُنَا كُلُّهَا يَوْمَ نَرَاكَ بِوَلِيلَةِ الْقَدْرِ وَقْتُ مِنْ لِيَالِيكََا

والملازمة بين معاني الأبيات ومنصب المعنى - وكان حيثل قاضياً بدمشق - واضحة ، والمبالغة
واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « بَيِّنَى وَثَانِيكََا » وعاد إليها بقوة في
البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعياداً ، ولكنه أتى إلا المبالغة المرسرة إذ
جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتاً من ليالي الشيخ . ولأريب في أن
صباغته ناصعة ، وأنه يطلب على شعره السلاسة ، مع ما يورثه به من جناس وطباق كما في البيت
الثاني . ودانما عسنت البديع عنده مقبولة ، ولما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه
المفتي - وهو صاحب نفع الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفاء » وهو في مدح المصطفى
سيد المرسلين ، وتعمج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يَقْضِي النَّهَارَ بَارَاهُ مَسْدُودٍ وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ نَسِيحًا وَفَرَّانَا

وتلقانا وراء مدائح في الديوان وعند من ترجعوا له القار ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخلوا بطلاهون بها منذ القرن الخامس الهجري ، وكثرت زمن المالك والمثاني . وله غزليات وعصريات بديعة ، سندكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .



شعراء الفلسفة والحكمة

نشع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن مطلقه طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا المعاصرين عبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى يتفعوا بذلك أكبر فزع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلي بما يكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بظك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسي أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم حثا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ التابعون منهم يهتمون على قولهم الخصة في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُخصى حكمة بالمشرات ، بل أحيانا بالثبات على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر اللطيف ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمة فوجدوا ثلاثمائة وأربعة وعشرين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش للتبى أكثر سنوات عمره في الشام وبواديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائح حكا رائحة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما يتأثر في شعره من حكم أفردتها بعض الأصناف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمة من ثمار خبراته بالحياة عبرة فلة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد التبى - وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكا وفيلسوف كبيراً ، هو أبو العلاء التوفى سنة ٤٤٩ هـ وسترجم له عما قليل .

وكان الطُّغرائي قد لعل اسمه بنظمه لامية المعجم ، وقد صاغها جميعا حكا وأمثالا على طريقة مزدوجة أي المتاهة التي سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثلي . ولامية الطُّغرائي لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُنى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن ينحسوا بعض

قصائدهم بِرَصْفِ طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من ههنا الطراز يقول فيها ^(١) :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نَزِيلَهُ في منزلٍ فالخزمُ أن يرحلَا
كالبدلِ لما أن نضالَ جَدٍّ في طلب الكمالِ فحازهُ متقلًا
سَمَهاً لحلمك أن رَضِيتَ بِمَشْرَبِ رَنَقِ وِزْقِ الله قد ملأَ الملا
فارقُ ثَرْقِ كالسيفِ سُلِّ فإن في مَتْنِهِ ماغْنَى القِرَابِ وأخملَا
للقفرِ لا للفقرِ هَبْهَا إِنَّمَا مَتْنُكَ ماغْنَاكَ أن ترحلَا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصيح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمثل هون ، بل يرحل ويتقل ، فكالم البدو وهز الشخص في تنقله . ويحذر من يرضى للشرب الكدر ويزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قِرابه أو غمده ، وعار ما بعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المحلب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودائماً تلقانا هذه الحكم في تضايف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضاً مشثورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي ^(٢) :

الدهرُ كالطيفِ بؤساءٍ وأنعمهُ عن غيرِ قَصْدٍ فلا تَحْدُ ولا تَلْمُ
لاتسألوا الدهرَ في البأساء يَكْشِفُهَا فلو سَأَلْتَ دَوَامَ البؤسِ لم يَدُم

فكل شيء حائل وزائل ولا دوام لضراً أو نفع ولا لبؤس أو نعيم ، ولا تدخل الدهر في شيء من ذلك ، ولا بأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا غم يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتاً . وفيها يقول ^(٣) :

(٣) الكشكول لبهاء الدين النمل (طبعة مصرية البان
الجلد) ٢٠٠٦/١

(١) ابن خلكان ١٥٦/١
(٢) النجوم الزاهرة ٢٤٥/٧

اعتزل ذكر الأغاني والغزل. وقيل الفضل وجانب من هزل
 وأتى الله قصوى الله ما مازجت قلب امرئ إلا وصل
 قاطع الدنيا فمن عاداتها تخفض العالی وتعل من سفل
 لا تقل أصل وفضل أبدا إنما أصل الفنى ماقد حصل
 مل من النمام واهجرة فا بلغ المكروه إلا من نقل

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالبية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردى ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضاً أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكماً وأمثالاً متشابة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة (١) :

حافظ عندك الأقربين من الوردى فأنصرها القرباء والقرباء
 وتوفى من كيد الخفود ولين ما يئدى فقد يصدى الحسام الماء

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين على بن محمد العامل رحلة أودعها أشعاراً على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن المبارية ومافية من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله (٢) :

المرة لا يسلم من حاسد أو شامت في البئر والفسر

وتكرر الحكم أيضاً في كتاب نفحة الرحانة للمحبي ، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلاً عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافي الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

أبو العلاء^(١) للمعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان الثنوي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى «مَعْرَة النعمان» من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته «أبي العلاء» وفي ذلك يقول :

دُهِبْتُ أبا العلاء وذلك مَيَّنْ ولكنَّ الصحيحَ أبو الثَّوْلُو

وأسرته تنحدر من قبيلة كُتُوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدري وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لا أعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنني أَلْبَسْتُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالمُصْفَر ، لأعقل غير ذلك » . وكان يتهى قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المرة طويلا فيهم ، ولم يهم ياقوت في ترجمته له بمجمع الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فيُكَيِّبُ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضاً فإن قصده لبصره مبكراً جعله يُقَتِّي بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولاً ومَنْ في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعاً أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاماً ، وورقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب هودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمنتهى ، وأيضاً كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلاً ، ووجدها قد آتت نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفضل في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لباس محمود القادس ٧٠ وأبو العلاء للمعري للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقدمتها لتحقيقها رسالة الغفران . وطبع له مسقط الزند بشروح مطبوعة والأقويات ورسالة الغفران والضايل والناجح ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكرم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لمير ١١٠/٢ .

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره مجمع الأدباء ١٠٨/٣ وتعرف القلماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريباً في المراجع القديمة ومن أهم رسالة الإنصاف والتمحيص في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء للمعري لابن القديم الحلبي وهي دفاع قوي عنه ونق لا يقل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لطف حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لميركاوان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتب : كتب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ هـ بجاية زاهدة خشة ملازما داره وبلدته لا يبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أرأى في الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخير النيث^(١)
لفقدى ناظرى ولزومى نيتى وكوّن النفسى فى الجسم الخيث

ثلاثة سجون أحاطت قضايتها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقهه لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله القاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدئا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألّفه لفاتك بسبب حتى على بعض أقرباه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكبد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعُدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكُتّامى سنة ٤١٤ وقُدّم له أبو العلاء الرسالة السُّنْدية فى مجلد واحد .

واحتفل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرّة هم مشايخها وأمثالها ، واجتاز صالح بالمعرّة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتم لك أيها الشيخ » . وحاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثُ شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأى فَسَدَ
فيسمع منى . سَجَعَ الحمام وأسمع منه زَيْرَ الأسد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاقًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يظنون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحه ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ عن أبى العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل بحر ودبانات ... وكان له أربعة من الكتّاب المجرّدين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس ومايلمه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماح لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب الزرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغه غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعباً وبهلاً من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعاً سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافاً إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثلهُ أبو العلاء تمثلاً حياً خصباً ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميها البلسن والبلسن رافضاً ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يَقْنَعْنِي بُلْسُنُ يُارَسُ لِي فَإِنْ أَتْنِي حَلَاوَةُ قَبْلَسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ هـ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لئزى القفطى - وهو أحد من تعاملوا عليه وروموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل الحزن ، فشى حاله على قدر الموجود ، فاقضى ذاك خشين الملبوس والمأكّل والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً قدر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمثوته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخاً وحلاوته التين ، ولبسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البردى في الصيف ، وترك ما سوى ذلك . وربما كان هذا الدخّل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذاً بمذاهب الحكماء ولا اتباعاً لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لصيق ذات يده وإشفاقاً على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعنق آلام الإنسان في دُنْيَاه ، ولعل ذلك ماجله يعزف عن الزواج حتى لا يريزق بولد يكابد من دنياه ماكابهده وصرّح بذلك قاللاً :

هَذَا جَنَاهُ أَيْ عِلْمِيٌّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأورفي نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنجية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم اللغوى وتلاها بالرسالة الإغرضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضا رسالة لللاحمكة وهى في مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسلم بها ويكتابه الفصول والفتايات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدُرَّجيات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طُبِع ملحقا بديوانه الكبير سَقَط الرُّند .

ونقف قليلا لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسَّقَط أول ما يبرز من نثر الزند وشرحه ، سُمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وصح به خاطره فشيء بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيا إلى خازن دار العلم بغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طُبِع في مصر قديما . وطُبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطلبوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهورية في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلا : « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلبا للثواب . وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستر بَهْجَةً (بَلَقَةً) من قوام العيش » . ونفس ممدوحه القليلين لم يوجه إليهم مديحه - كما قال - طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يجيبهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم بغداد واصفا حونه الحميد له في أثناء تردده على تلك الدار ومكتبها الكبرى للمشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والحقريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامه - يماكس المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسماه معجز أحمد بينا سَمَّى شرحه للديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحرى « جث الوليد » ويفجزونا في الديوان فخر عفيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطع الأوائل

وهذا الصوت القوي المفاخر المباهي بالجد والعفوية يكاد يخفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعركة بالدهر وتصاريق أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدته لبصره ، وأبضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أفعال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكّا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُصفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنني جيتُ الخُلْدَ قَرَدًا لما أحيتُ بالخُلْدِ انفرادا
فلا هطلتُ على ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عطارد المنسوب إليه السّم لو خبرت الناس خبرته وبلاده وجربت من كيدهم ما جرب وعرفت من خبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا ترامت لهم محافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظنُّ بسائر الإخوان شرا ولا تأمنُ على سيرٍ فؤادا
ظنَّ خبرتهم الجوزاء خبيري لما طلعتُ محافة أن تُكادَا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السؤدد فوق السموات السبع رضة وعلاء ، وإنه ليفلُ نوابغ الأيام وكوارثها وحده بقوته ومُضائه . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مرثية لأنها تفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثية لصديقه الفقيه .

غير مُجدِّ في يلقى واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنُّمُ شادي
وشيءُ صوتُ النحي إذا فيه سسُ بصوت البشير في كل نادي

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالفناء الفرح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود - مها طالت حباته - صراخا عليه ، حتى لكان الصوتين متشابهان أو محتططان اختلاط شجر الحمامة فلا يدرى السامع أنبكي محزونة أم تنفي مبهجة . ويمضى

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض . لأن ترابها من أديم آباءه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تراحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لأصناف له ، وإن الحزن على الميت والفجعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرى بها صديقا من أبناء عصمته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقداره . لم يَفْخَرْ المولى على عبده
أضحى الذى أَجَلَ في يَمِينِهِ مثل الذى حُوجِلَ في مَهْمِهِ
ولا يبالى الميتُ في قبره بِسَمِّهِ شَيْعٌ أم حَسَمِهِ
والواحدُ المَعْرُودُ في حَقِّهِ كالحاشدِ الكثيرِ في حَسَمِهِ
وَرُبُّ ظِمَّانٍ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلمُ في وَرِيدِهِ

وديوانه الثاني اللزوميات أو لزوم مالا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول في مقدمته - ثلاث كلف : الأول أنه يتنظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويته يحىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من بقاء أوتاه أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا في كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفا كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروريا من التعقيد ، كما مررنا في غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة في البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستم نسق الجناس . ويجانب هاتين الكلفتين الدائمتين في اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ التقافات المختلفة ، بحيث يُعَدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون في أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيق بها للمرءات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنها فلسفته أو تفكيره الفلسفى للتشائم وهو تفكير شغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقبضية التى طالما شغلت كبار للفكرين قُبضية الشر الذى يُصَبُّ على الإنسان والحياة الإنسانية صَبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها يستول عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستول عليه بأس ينقل عليه نقلا طويلا ويملا نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر فقيم إذن تلقى الأبناء لها من آباؤهم وفيهم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَى الإنسان من مُلْك رَبِّهِ ويَجْرُجُ من أرضِهِ له وسماه

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فككا ولا خلاصا ، وحري به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تنفع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعائهم بهالة قلمية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كثرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعمهم بصفات الله حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء بتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي . وهذا البتان في العقيدة كان يروج له دعائهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم المقصودون بمجمل أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نادت على الدين في الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشتري دينًا بدينارٍ
جئتوا كبارًا آثامٍ وقد زعموا أن الصغائر نجى الخُلْدُ في النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمان بخراس درهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقسا ومن قوله فيه :

ترَبَّوْا بالتصوف عن خلدٍ فهل رَزَتْ الرجالُ أو احتسبت^(١)
وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثَمَالٌ من كُتِبَتْ^(٢)

وهاجم اخفكام عامة الذين يرمقون الشعب بضرائب قاذحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفي ذلك يقول :

وأرى ملوكاً لا يحوط رحيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم :

ظلموا الرحيّة واستجازوا كيدها فعلموا مصالحها وهم أجزلوها

فهم أجزاء عند الشعب بأخلاق رواتهم من كنهه ويصغرونها من حره ، ومع ذلك بظلمونه ويغنون عليه ويكبدون له ويأتمرون به . وينسج بمحله ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والكر والحديبة والحلق الثرى للشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لا تنصف في الود ولا في للمهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحبها في رأيه - الغزل والنسج والرذن أو الحياكة :

علموهن النسج والغزل والرذن ونخلوا كتابه وقراءه

ولما دفعه إلى ذلك حتى رأينا - فساد المجتمع في بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمته والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء ، يقول :

كيف لا يشرك المضيّقين في النعم حمة قوم عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشرط الأكبر في اللزوميات ، فقد أودعها كما مرّ بنا أنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه في دنياه إزاء ما يصب عليه من شرورها وهمومها وألغايها التي تلدغه صباح مساء .

ويشيع أبو العلاء في أشعاره حجة تترادى ظلالم في اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاشرين يقولون إنه كان يشك في كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذ السوفسطائيون - وسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفت الحنيفّة والنصارى ما اعتدّت ويهود حارت والمجوس مقلّة

اثنا أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

والبيان في هجاء أصحاب هذه الديانات لزمته لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفر أختها في داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلي الفاطمي قائما في مصر ويدعو له الحكام وعلماء الدين في الشام . وطبيعي أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المشرق

في الغلو غلواً شديداً ، بل المسرف في الانحراف عن الإسلام انحرافاً مفرطاً . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولاً كثيراً انتحل عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديماً وأدخلت عليها فساداً غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا واستوتُ في الضلالة الأديانُ

واليت على هذا النحو يُلصقُ تهمة الإلحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ بعد أبي العلاء بسبعين عاماً وجدناه ينشده على هذا الخط .

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا ونهتُ - لورنتهي - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي احتضنت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات ^(١) مقصورة لبعض ذوى الأهواء للملحدين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أصيبت إليه بعض أشعار الزنادقة ^(٢) مثل ابن الراوندي . وقرأ بعض المعاصرين عنده أياتاً ظنوا منها أنه يؤمن بقديم المادة والزمان والكواكب وخلودها عمالفاً بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حملوها جميعاً وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهي في واقع الأمر أيات شُبهت عليهم من مثل قوله :

أرى زمتاً تقادم غيرَ فانٍ فسبحانُ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

يا شهبُ إنك في السماء قديمةُ وأشرتَ للحكماء كلُّ مُشارٍ

(٢) انظر «أبر العلاء للمرى» للذكورة عائنة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع مساعد التصحيح (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإتياء الرواة للقفى ٧٥/١ .

(١) أشار د . حمد عبد المجيد محقق شرح البطليوسي في مقدمته إلى أن الخطاري من اللزوميات يصحح بعض ما حُرف من شعر أبي العلاء ووضَّع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تمتع في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقدم في اليبين ما يتألف الحوادث إنما يقصد ما يتألف الحوادث بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلود النجوم ولا ملهى يَدَمَ العالم

فهو لا يقول بخلود الأفلak والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل اليبين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى نقبض الحوادث وهو إنما يعنى نقبض الحوادث ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبي العلاء بكتابنا المذكور آنفاً ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن بإيماناً عميقاً بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسائله السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بحث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسَ وِصْمٍ الدَّهرَ آفَهُ وَأَذْمَنَ الذِّكْرَ أَبْكَارًا بِأَصَالِهِ

فهو صائم الدهر ، فَرَضَ على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائماً يتجه إلى ربه مصلياً الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلاً صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبذل والاستغفار . ويعترف مراراً بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسابه وسيئاته ، يقول :

قَدْ رَاحَنِي لِلْحَسَابِ ذِكْرٌ وَغَرَّنِي أَنَّهُ بِمَعِيدٍ
وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي بِصَحْبِي حَافِظٌ قَعِيدٌ

وهو يستلهم في اليبين قوله تعالى : (إِذْ يَتْلَى الْمُتَلَقَاتَانِ عَنْ اليمينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَكِيبٌ عِيدٌ) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطباً اللبالي :

خَلَّصْنِي مِنْ ضَلَّتْكَ مَا أَنَا فِيهِ وَأَطْرَحْنِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ
ويشعر في حق بأنه مقصّر مما قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائماً في حضوره ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعاً :

ومنفرةً الله مرجوةً إذا أصبحت أعظمى في الرَّمَمِ
وباليتنى هامدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يتفَضُّون اللَّمَمِ
ونادى المتأدى على غفلةٍ فلم يبق في أذنٍ من صَمَمِ
وجاءت صحائفٌ قد ضُمنتُ كبائرَ آثامهم واللَّمَمِ^(١)
وليت العقوبة تحريقاً فصاروا رمادا بها أو حُمَمِ^(٢)

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليشئ أن لا يبعث ليوم القيامة (يوم يُنادي المتأدي من مكان قريب) كما جاء في سورة ق ، فيبئ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلُّ إنسانٍ أَلَمَنَّا طائرَهُ في عَنقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقاً يصبح العصاة به رماداً أو حمماً فيسريجون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيراً مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضاً ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكراً للنبوات جاحكاً بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يمحدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به ورسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ما ذُرَّ شارقٌ وماتتْ مسكاً ذِكْرُهُ في المَناظرِ

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهْد والتَّشَفُّف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشامخاً تشامخاً عميقاً بطلاً حانياً نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وحضوه ، يقول :

وما أنا بالنسِّ من عَفْوِ رَبِّي على ما كان من عَمَلِي وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماماً له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقابلته إلا إليه ، لمثل قوله :

كَلَبَ الظَّنُّ لِإِمَامٍ سِوَى الْعَقْلِ لي مشيراً في صُبْحِهِ والمساء

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوت ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول آيات بشرين المعتزلة المعتبرة الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي النفاوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهدى أن أظنُّ وأحسبُ

فلما علم الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرراً أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ورحلتُ إلى غيرها بالرَّحْمِ واللَّهِ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولادخل إرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختياراً ولا نرحل عنها اختياراً ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلي مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلاً قاطعاً حاسماً قائلاً :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فَعَقَابُهُ ظَلَمٌ على ما يفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة لما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وإرادته العليا ولذلك يقول :

لَا عِشْرَ مُجْبِرًا وَلَا قَدَرِيًّا وَاجْتَهَدُ فِي تَوْسِيطِ يَتِّينَ بَيْنَنَا

فذهب في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيها يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كرهشة في مهب رياح القضاء والقدر تسيره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يردُّ إلى فقدّه لبصره صيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمته من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بالآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمده من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتبشُّف والإيمان الصادق بالقوملائكة وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلُّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتترىبه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

متنصور^(١) بن المسلم

هو متنصور بن المسلم العجمي الحلبي المعروف بالثُمَيْك وبابن أبي العُرْجَيْن ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ هـ وبها نشأ وحفظ القرآن كمادة لدائه ، اختلف إلى شيوخها ، وشُغِف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحوّل بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جني في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة

غَوْص . ويقول باقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الراق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعنى بإعرابه فدل على تبحره في علم العربية . وروى الهاد الأصماني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رفاقة حس ودقة شعوره من مثل قوله :

آحبابنا إن خَلَفَ البَيْنُ بعدكم قلوبًا ففيها للتفرُّق نيرانُ
رحلتكم على أن القلوبَ ديارُكم وأنكم فيها على الثَّأْيِ سُكَّانُ

ونغضى معه في هذا الغزل المتنازع وإذا هو يذكر غرته في دمشق ، ويتخلل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غرته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاته ، يقول :

وما باختيارِ المراءِ تَشَعَّبُ رِيَّةُ فَتَحِرُّ أوطارُ وتترج أوطانُ (١)
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقِعُ ظَنَى إلى تلك الموارد ظمآنُ
وما كلُّ إنسان ينال مَرَادَه ويُسَمِّدُه فيها يحاول إمكانُ
وعيشُ الفقى طمان حُلُوٌّ وَعَلَقَمُ كما حاله قِسْانُ : رزقٌ وجرمانُ

وهو يألم لغرته ونزوحه عن وطنه ، ويتعنى جرّة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لبيب ظمته إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل اليقين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحمران . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفقى يأتيه ما لا يناله يَسْفِي ولو أنفَى الركائب والركبا (٢)
ومن رام إدراك المني بفضيلة فقد رام أمرٌ ليس يدركه صبا
وينهب بالودِّ البراءَ ويمتري حَفَاطُ لا تبق على صاحب صَحْبَا (٣)
توقُّ قليلَ الشرِّ خوفَ كثيرِهِ ولا تحقرن التزَّرَّ رِيَّتَما أَرَبَى
فإن صغيرَ الشيء يكبرُ أمرُهُ وكم لفظه جَرَّتْ إلى أهلها حربا

(٢) يسفي : يسهو . حفاظ جمع حفيظة وهي الغضب

والحبة .

(١) تشعب : تبدد

(٢) أنفى : أتمب . ركائب : الابل

وهو يتكلم في أول الآيات عن الحظ وما يقدفه على الإنسان ، دون سمي ، من منى لو أفضى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومها نذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مراء ولا جدال مقبت لأنه يثير حفاظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع ما بينهم من صلات . ويوصي الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صفر وتضائل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستحل واستمعى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثلاثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقَصُهُ وَيُبْخِضُ ما يَنْجِي به وَيَزِيدُ
نريد من الأيام تَهْضُو من الأذى وَتَهْضُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ^(١)
وكيف نروم العيشَ خَطَوا من القذى وللماء من بعد الصَّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرءُ ما يَسْتَحِقُّه تساوى شقَى في القَصَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوءِ فِطْلها يعبُ ذَمِيمَ العيشِ وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابعة رغبة ولا تنقضي بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقي وسعيد ، وجد يربى من خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كرها مذموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ من خَشِينِ اللَّئيمِ ومن لَيِّنِ
مَرَّو تَوَقَّى الرَّجُلُ منه الأذى وَاثِمِدُ يُجْعَلُ في العينِ^(٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصُّلد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجالاً . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

حسين^(١) الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفاً أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيراً من مدائمه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض .. العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقى بدائع آدابه ودرقت ، وملكت روائحه حر الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الحفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب من الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولاً ثم نشره الطباخ مع ديوان مصطفى الباني والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والنزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قال :

الشعر ما شائقك منه حكمة لا ما يشوقك الكتيب^(٢) الأوسع^(٣)

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة ونبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يمد الشعر المشوق لدار الحبيبة ومعاهدا من كتابان وعشاء وغير وعشاء شعراً رفيع المنزلته فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرفك كتبها وحقيقتها ، يقول في تصانيف غزل له :

إن الهبة محنة لا منحة ومن الغرام يرى الهب المغرما
وإذا مُنيت الماء أول مرقة ووردته أخرى تذكرت الظما
في كل يوم روعة أولوعة والقد تقدمه الحوادث توأما
ولقد ملكتُ تحاربا وتحاربا لن تلقى إلا إناة مُفمّا

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لا منحة بضی صاحبه ، ومن نصته صاحبه أول مرة كمن يصدّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكتيب : تل الرمل . الأوسع : الذي تنب فيه
الأرجل لله

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣
ورعاية الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في
مجموعة العقود الدرية

أتيج له الورود ، فظموه ولفته القديمان لايرحان ذاكرته ، وهل في الحب إلا صدّ وامتناع
وعذاب ، والحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعَمٌ بالتجارب كما
يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرجاءَ ذُلًّا الفنى وطولَ المني عجزا وحبُّ الفنى قفرا
فلا تَفْضَحْنَ من حالةٍ مستحيلةٍ كما يَلْتَمِها عُسرا مستركها يُسرًا
وإن الفنى كالفُضن مادام نابتا قَاوَنَةً يُكْسَى وآوَنَةً يَبْرَى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لإحدى الراحتين فحسب ، بل عِزًّا ما بعده عز ،
كما يرى الرجاء وخاصة في الناس ذلا ما بعده ذل ، واتساع الأمانى عجزا لا يشبهه عجز ، والتطلع
إلى الفنى قفرا لا يماثله فقر . فخير للإنسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن
لا يضجر من شدة تنزل به لانها لا بد أن تستحيل وتحول ، فكل عسر معه يسر ، وما أشبه الإنسان
بنفس شجرة يَبْرَى من الأوراق وَيُكْسَى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَنِي بالبؤس دهرى دائما دون الورى فأننا بذلك أفضلُ
هذى عفاقيرُ العطارَةِ كلها لم يحترقَ منهم إلا المتندلُ

فهو يتقبل البؤس راضيا ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه ما يكون بالتندل أو العود الطيب الرائحة فإنه
يحترق وحده دون ما عند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد في أشعاره ذكر الحرمان وأن
الكرم لا تنصره قلة المال بينما اللئيم لا يُجْذِبُه ولا ينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء
والفضلاء تطلمات للتضييق على نفر منهم في الرزق بمثل قوله :

لأنحسب الأرزاق نُقْسُمُ باطلا كلا لقد ساوى المهيمنُ بيننا
فإذا رُزِقْتَ الجَهْلُ أدركتَ المَتى وإذا حُرِمْتَ الجَدُّ أُضْطِبتَ الثَمَى

وكان أهل الأرض في رأيه اثنان : جاهل ثرى له كل ما يأمل ويتنى وكان الدنيا طوع أمره ،
وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِمَ الجَدُّ أو الحظ وحرم معه إكسار الحياة من المال والثراء والنعم .
ويقول :

غَيْرُ يَذْعِرُ إِذَا ظَلَمْتَ بِدَمْرٍ رُزِقَ القَمَرُ فِي حَقْلٍ عَظِيمَا
فَالهَوَا الصَّحِيحُ يَدْعَى حَبْلًا وَاللَّدِيعُ المَصَابُ يَدْعَى سَلْبَا

وهو يواسى من يحسبون بأنهم مظلومون في دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعي من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون في مجبوحة من الثراء والنعم . ويقول إن النسيم المتعش الصحيح يدعى عيلا واللدغ يدعى سلبا من تسمية الأصدقاء ، ولعل في ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رَوَيْتَكَ إِنْ بَعْدَ الضِّيقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أَهْيَى وَأَبْهَجُ
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حُلُولِهَا الرَّحْمَنُ قَرَجُ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لا بد من رباطة الجأش دون أى تهرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم في رحمة ، وأنه لا بد كاشف الكرب والأهوال مما اشتكت وإن فرجه لقريب ، وإنه لداثما مع الصابرين الذين لا يأسون أبدا من هونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها في أشعاره - كما قدمنا - مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُليِّكُ مِنْ قَبْلِ السَّوَالِ تَوَالُهُ وَيَأْتِيكَ دُونَ الْإِنْتَظَارِ نُصَارُهُ

وله أبيات مختلفة في الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفي غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجودا .

٦

شعراء التشيع

مررنا في حديثنا عن التشيع أنه عُرف في سَلَمِيَّة بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القُدَّاح حوالي منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى للمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى للفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون ^(١) :

ووسلنى منها إليك طريفة شام يدين بحب آل محمد

وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمؤمن عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المؤمن كتب إلى الأفاق بغضيل على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بطل ومواقفه في عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشبهه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومرآى تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مرثيته ^(١) :

يا حَيْنُ لالْمَخْصَا ولا الكُتْبِ بُكا الرُّزَايا سوى بُكا الطُّرْبِ ^(٢)
 يا عَيْنُ في كَرْبِلا مَقَابِرُ قد نَزَحْنَ قَلْبِي مَقَابِرَ الكَرْبِ
 من البَهَالِيلِ آلو فاطمةِ أهلِ المَعالي والسادةِ الثُّجْبِ
 كم شَرِقَتْ منهم السبوفِ وكم رُوِيَ الأَرْضُ من دمِ سَرِبِ ^(٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا ^(٤) ، فشيعة كان تشيعا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط العالي إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَكْنِيَة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيرون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسأله عن معاوية وما رُوي من فضائله فأبى أن يفضله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعة - لقيت لها آذانا صاغية بحلب منذ مطلع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيها يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلي بالإمامة بعده ، وله مرث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله ^(٥) :

-
- (١) النيران (في طبعته المخطئة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شهر ٢٨٤/١
 (٢) أظن (طبع دار الكتب) ٥١/١٤
 (٣) شرت : غصت . سرب : سائل .
 (٤) أشجان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢
 (٥) شجر النفا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شمر السب

يَوْمَ الْحَسَنِ هَرَقَتْ تَدَحَّى الْأَرْضَ بِلِ دَمْعِ السَّمَاءِ
مَنْ ذَا الْمَقْصُورِ الْجَوَا دِ مَالِ أَعْوَادِ الْخَبَاءِ
مَنْ لِلطَّرِيحِ الشَّلْوِ عَرَّ يَانَا مَخْلَى بِالْمَرَاءِ
مَنْ لِلْمَحْطِ بِالْأَرَا بِ وَلِلْمَفْطَلِ بِالْمَاءِ

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إلمعية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعة وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن الطويعين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتاحها بقوله ^(١) :

الدينُ مُحَرَّمٌ والحقُّ مُهْتَضَمٌ وَفَى آلُ رَسُولِ اللَّهِ مَقْتَسَمٌ

والقبى : غيمة الحرب ، وهو يشير إلى قُبُكْ وكانت فيا لرسول الله في غزوته لخير والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » فاستجابت ثوبا الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعطن في ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أئمتهم الاثني عشر في مثل قوله ^(٢) :

شَافِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَايَ عَلِيٌّ وَالْبَتُّ وَالسَّبْطَانِ
وَعَلِيٌّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّادِقُ ثُمَّ الْأَمِينُ ذُو الْقِيَانِ
وَعَلِيٌّ وَالثَّقَفِيُّ ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ وَالْمُسْكِرِيُّ الدَّانِي
وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمٍ لَا يَدُ خَمٌّ إِلَّا غُفْرَانُ ذِي الْغُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الآيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم علي رضا وابنه محمد الملقب بالثقي والجاد ثم ابنه علي الهادي ونجله حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا ^(٣) :

(٢) الديوان ٣/٣٩٧

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي

(٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها .

وابنهُ العسكري والقائمُ المظهِرُ حَقَّ مُحَمَّدٍ بنِ عَلِيٍّ

ويحتضد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العامل . ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الحقاقي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي ، ومن آثار تشيعه في شعره قوله ^(١) :

وَقَالُوا قَدْ تَغَيَّرَ اللَّيَالِي وَضُبِّعَتِ النَّزَالُ وَالْحَقُوقُ
وَأَقْسَمُ مَا اسْتَجِدُّ الدَّهْرُ خُلُقًا وَلَا عِدْوَانَهُ إِلَّا عَنِّي
أَبْسَ يَرْدُ عَنْ فَدِكٍ عَلِيٍّ وَمِلْكٍ أَكْثَرَ الدُّنْيَا حَقِيقُ

وهو يأسي لعل وزوجه فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بمحدث أيها ~~محدث~~ واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصليبي الزاهد الد أنفق أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتاناً وزورا .

وكان يعاصره كشافهم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع للذهب الإمامية ، وسنخضعه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري ابن حيوس الشاهر الدمشقي ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند المهاد الأصماني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا في القرن السادس الهجري ، غير أنه لا يفتي بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو نحلة ، منهم ابن قُسَيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له المهاد في حب آل البيت قوله ^(٢) :

وَيَدِي بِأَلِّ مُحَمَّدٍ خَلِقَتْ مَنِي فَلَسْتُ بِغَيْرِهِمْ أَرْضِي
جَعَلَ إِلَهُ عَلِيٍّ حَبِيبَهُمُ وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ قَرَضَا
فَأَنَارَ ذَلِكَ مِنْ زَنَادِقِهِ حَدَا فَسُوا حَبِيبَهُمْ رَفَضَا
وَعَجِبْتُ هَلْ يَرْجُو الشَّفَاعَةَ مَنْ بَنَى لَأَلُو مُحَمَّدٍ بُخْضَا

(٢) الخريدة (نسخ الشام) ٤٥٣/١

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

وهو يطن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الراضية ، إذ يسى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان بعاصره ابن نمير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ويقول عنه الهادي : كان غالبا متشيعا^(١) ولم يرو شيئا من شعره الشيعة الغالي . وكان طلائع بن رزيق وزير الخليفة الفاطمي : الفائز والعاقد شيعة إماميا ، وكان من مقريه ثقة الملك الحسن من بني أبي جراحة الخليليين المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة^(٢) ، ويبدو أن أسرته كانت تعتق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الحزينة عرقلة النمشقي حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وينشد الهادي مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا^(٣) :

أنا من شيعة الإمام حسين لست من سيرة الإمام يزيد
وهو يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام نهكا وسخرية . ونظف في زمن الأمويين والماليك نستع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري النمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفا عليه اللمع مدرارا متشدا^(٤) :

لَمْ لَا أَسْخُ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ مَقْلِي دَمًا . بِمَازِجِ مَاءِ
يَوْمَا بِي قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبَا بِهِ وَبَلَاءُ
ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عرواقه ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسائله الحميدة الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته الجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصير الحسين المفتح بمثل قوله^(٥) :

أَلْهَمِي لِلْحُسَيْنِ خِدَاةً أَضْحَى هُنَاكَ بِكَرْبَلَا ، شِلُوا قَتِيلَا

بشمق) ص ٦

(١) الحزينة ٧٦/١

(٥) البيران ص ٥٨٠ والشرح : المصنوع من الإنسان

(٢) الحزينة ١٩٩/٢

والجس لأفلاء ، كتابة عن الموت

(٣) الحزينة ٢٠١/١

(٤) ديوان فتيان الشاغوري (طبع مجمع اللغة العربية

يَزُقُ جِسْمَهُ دَوَسُ الْمَذَاكِي وَقَدْ أَطْلَتْ وَلَايَاهُ الْعَرِيلَا^(١)
شَكَا ظَنًّا لَهَا عَظُفُوا عَلَيْهِ وَلَا آلَوَا وَلَا أَرَوَا غَلِيلَا
رَسُولُ اللَّهِ سَاءَ حُبِّهِ وَقَبِلْ نَفْرَهُ زَمًّا طَوِيلَا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بطل والحسين وأصحاب النبأ أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول في حجره فقبلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار . ولم يكن فتيان غائبا في تشييعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله في علي والحسين وآلهما^(٢) :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا يُبْغِضُ غَيْرَهُمْ كَلًّا وَمَنْ قَرَضَ الصَّلَاةَ رَوْقًا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت يبغضا لأبي بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السابقة .

ونلتقي في زمن المالك بالوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفتاوى : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله^(٣) :

سَمِعْتُ بَانَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً فَكَحَلْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي
لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمْعِ عَلَى الَّذِي أَذَاقُوهُ دُونََ الْمَاءِ حَرُّ الْبَوَائِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويلتصقها على الحسين الذي قطره دون جرعة ماء يحتسبها بالسيف القواطع ، وكان بعض معاصريه ينهيه بالرفض والظلو في التشيع فكان ينكر ذلك منعا على من ينهيه بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول^(٤) :

قُلْ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أَتُ هَمْنِي أَضِلُّ اللَّهَ قَصْدَةً
أَنَا رَافِضِيُ أَلَمَنْ أَلِ شُبَّانِ أَبَاءُ وَجَدَهُ^(٥)

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظلم نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(١) للمذكي : الخليل ، ولأياه : نداء أسره .

(٢) الفتيان من ٦٨

(٣) فتاوى الفتيان لابن خاكر ١٧٦/٢

(٤) الفتاوى ١٧٥/٢

(٥) أهله مشددة الباء لصحة الوزن

لا في أيام المالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثانيين ، ومن يُظنُّ تشييعه حينئذ درويش^(١) الطالوي المتوفى سنة ١٠١٤ وحين^(٢) بن عبد الصمد العامل وهو أبو بهاء الدين العامل أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسترجم له عما قليل .

كشاجم^(٣)

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السدي بن شاهر اشهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، قال الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السدي من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السدي بن شاهر » وربما تلقى عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السدي بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمن ، ويقال إنه ولاء الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسَلِّك حفيده كشاجم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شبيبة بلدة الرملة بفلسطين . ونظن أننا أنه ولد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويأرجح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بجماعة أبي الهيثم عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولي الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انقطعت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . ويتزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مدحيه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن خشر

(١) روضة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أحيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر في كشاجم وشعره شلوات الذهب لابن الهيثم

٣٧/٣ وحسن المفاخرة للسيوطي ٥٦٠/١ وللنخل للقبلي

ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن خشر القهرواني وذيل زهر

الآداب ص ١٠٧ وذكر له القهرواني في شرحه قصائد

الحري طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبع بيروت ،

وراجع في السدي جده ترجمة موسى الكاظم في ابن

خلكان والحمويان للناسخ ٣٩٣/٥ والنتية والإعراف

للمسعودي (طبعة الصلوي) ص ٣٠٢ وطبعة أنور ص

القيواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو بنشد .

قد كان شوق إلى مصر يؤرقه فالآن عدتْ وعادتْ مضراً لى دارا
وتروى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، قبل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل
التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة للمعرفة من مديح وثناء وشكوى وهجاء وغمرات
ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرده وله كتاب فيها
سماء المصايد والمطارد ، وأيضاً له كتاب فى أدب التديم وهما منشوران . وكان شيعياً إمامياً إما - كما
قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه وداسة للنحلة دفعت إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك ما رواه
ابن شهر آشوب . إن صح ما رواه - من قوله :

نَبِيٌّ شَفِيعِي وَابْتُولُ وَحَبِيرٌ وَسَيِّطَاءُ وَالسَّجَادُ وَالْبَاقِرُ الْمَهْدِي
يَحْفَظُ بِمُوسَى بِالرُّضَا بِمَحْمُودٍ بِنَجَلِ الرُّضَا وَالْمُسْكِرِينَ وَالْمَهْدِي
وَالْبَتُولُ : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الأئمة
عشرية وهم اثنا عشر إماماً : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على
زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورثم جعفر فى قسمه ، والترجم فى غير المنادى
شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، وعهد هو محمد
الجواد نجل الرضا ، ويلى على الحادى فالحسن المسمى ، وقد سماهما المسمى والمهدى هو
محمد المهدي المنتظر الذى مات صبياً حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعاً كشاجم - كما
رأينا - فى بيته واتخذهم شفعا له عند ربه ، مما يقطع - إن صح - أنه ناظم البيت - بشيعة
وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولها الحسين ومن قتلوا معه من آلِه فى
كربلاء قائلا فى مطالعها :

لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَجَنَّبَهُمْ جَوَائِزُهُ	يَا بُوْسُ لِلدَّهْرِ حِينَ آلُ رَسُو
ثُمَّ تَجَلَّسَى وَهُمْ ذُبَالُهُ	أَظْلَمَ فِي كَرْبَلَاءَ يَوْمُهُمْ
تَهْنِئِ غَوَادِيهِ أَوْ رَوَانِحُهُ ^(١)	لَا بَرَحَ الْغَيْثُ كُلُّ شَارِقَةٍ

ورسل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأمله الشمس . والغوايد
والروائع : السحب المطيرة صباحا ومساء . تهنى : تعب

على ثَرَى حُلَّة ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه .
وسبق يسوانه ثلاثيح أحد زانٍ نهادى بهم ثلاثحه

والقصيدة نفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوله الغيث أن يظل يهسى كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العنوان الأثيم حين ساق مرتكبه نساء آل البيت منهكات مُقييات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتن ما أصابهن من الإحياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخطماته للإسلام ورسائله ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى حمزة بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدیر خم ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَّثِرَ القَوْمَ فى بَنَرِهِمْ لقد تَأَرَّ القَوْمُ فى كَرْبَلَاءِ
بِهَا هُتِكَتْ حَرَمُ المِصْطَفَى وَحَلَّ بِهِ عَظِيمُ البَلَاءِ
وَسَاقُوا رِجَالَهُمْ كَالْمَبِيدِ وَحَازُوا نِسَاءَهُمْ كَالْإِمَاءِ
وَلَوْ كَانَ جَدُّهُمْ شَاهِدًا لَشَبَّحَ أَطْعَامَ بالبِكَاءِ

والآيات بالغة التأثير فى وصفها هول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمه نساء آل البيت ورجلهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دقاها عن سبطه وآله .

ويُلمّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلماا سريعا ، وكأنما أراد أن يفردها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويترسل فى فضائله قائلا :

وَكَمْ شَيْءٍ بِهِدَاهُ جَلَا وَكَمْ خَطَا بِحِجَاهُ فَصَلَّ
وَكَمْ أَطْفَا اللَّهُ نَارَ الضَّلَالِ بِهِ وَفَى تَرْمَى الْهَدَى بِالشُّمْلِ

وكم ردُّ خالقنا شمسَهُ عليه وقد جَنَحَتْ للطفَلِ
وكم ضربَ الناسَ بالمرَّهفاتِ على الدِّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الإبلِ

وحقا كان على ملها في معرفة الحكم الفاصل في أى مشكلة تعرض له أولغيره ، حتى قال فيه
عمر : قضية ولا أبأ حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرفقة أعداء
الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تَرْدُ عليه حين تنجح للغروب فذلك
مبالغة ، على في غنى عنها ، بل هي بيتان ، ومثلها بيتانا مازعمه في القصيدة من تفصيل على
درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة
بعده . وتماذى في بيتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نَحَاهُ عن الصلاة بالناس حين اشتد به
المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤثما ركعة ثانية من صلاة الصبح
ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يُوْثَمَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ » . وكلُّ ذلك متواتر
معروف غير أن خلافة الشيعة ينكرونه . ولا يثبت أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير حجل
ولامسح - أبأ بكر وعمر ، لأنها من السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول ومآل إليه في غزوة
خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء
لأنورث ومانرثناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه .

ابن حيوس^(١)

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من
الثراء مما جعله يشيد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت
قاضي غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه
بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لغاته القرآن وأخذ يخطف إلى العلماء وفي مقدماتهم خاله ابن
الجندي الفسافي ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويدعو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك
إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي للسمى أنوشكين التزيري يتزل ضيفا على أبيه لسنة
٤٠٦ . ويعود فيها بعد حاكما للدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

(١) ومقدمة ديوانه لخليل خردم ولد حقه ونشره في مجلدين
(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤
وزبدة الطلب (نشر د. ساسي الدخان) ٤٠/٢ والطرائف
١١٨/٣ وعبر النهر ٢٧٩/٣ وطلعات الذهب ٣٤٣/٣

فانقضت صلة وثيقة بينها وأخذ كل منها يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زيرى يهديه أموالا جزية . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدر بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه انجبه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن علي البازروى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمحنة واحدة .

وفي هذه السنوات التى تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيتاه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبني عمار ولائها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلى بن منقذ صاحب حصن شَيزَر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسى صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يظن على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسا من تليته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، وما زال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته لسنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياها عليه . وخلفه ابنه نصر ، قضى يحزله للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطائه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نَفَقَ الثَّناء بِسُوقِهِ وَجَرَى الثَّدْي بِمَرْقِهِ قبل الدَّمِ
وأجازته بألفى دينار ، وفي نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين وكى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يماهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَحْه بِمَصْرِ جَانَقَ زَمَنًا فِدَاءَ نَحْه سَقَانِ الرُّىِّ فِي حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسلولته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أنزوه - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نهما ضخمة ، مما جعله ينفى دارا ضخمة له بجلب ، وكان قد كتب على بابها :

دَارُ بَنَيْنَاهَا وَحِشْنَا بِهَا فِي نِعْمَةٍ مِنْ آلِ مِرْدَاسٍ
قُلْ لِيَنِ الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا ظَلِمَ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ

ولم يتفهم ماصنوه لمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُكْلِي دولتهم استأذنه في إنشاء مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مدامه لولادة الفاطميين بلدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء للنوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » ، وه عصر الدول والامارات ، وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذت سلمية بالقرب من حماة مركزا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبلغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم حلة الوجود ومديرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قيس ابن حُبُوس في مدحه للذيرى سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ول الحلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أَمْتُ خَلْقِهِ رِيحُ الثَّدْيِ بَسْرًا وظل نَشْرُ الدُّنَا مِنْ نَشْرِهَا عَطِيرًا (١)
وَنَحْصُ الشَّرَفِ الْمُخْفِي الَّذِي ارْتَضَتْ له النواظر والنور الذي بهَرَا
هُمُ الْإِلَى أَخَذَ اللَّهُ الْمُهَوَّدَ لَهُمْ والناسُ قَرُّ عَلَى مَنْ بَرَّ أَوْفَجَرًا (٢)
لَأَجْلِهِمْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهَا وَذَنَّبَ آدَمَ لَوْلَاهُمْ لَا غَيْرًا
وإن آلاءه مالا يحيط بها وَصَفْتُ عَلَى أَنَّهَا تَنْتَطِقُ الْحَجَرَا
مَنَاقِبُ عَدَدِ الْأَنْفَاسِ مَا زَكَّتْ لَفَاحِرٍ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَفْتَحَرَا

(٢) الدرر : ما يرى في شطع الشمس الداخل من الطيبة والطيب ، الدنيا : جمع دنيا .
الثالثة .

(١) أمت : قصدت ، بسرا : سهلا ، النثر : الريح

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النوري المتقل في الأئمة - بزعم الإسماعيلين - حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بظاهتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يضر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله المهي. ويكثر ابن حُبوس من ذكر إمام العصر وغياب المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للزيري في إحدى قصائده :

بِاسْتِيفَ مَنْ عِصْيَانُهُ وَوَلَاؤُهُ جَمَلًا شَقِيًّا فِي الْوَرَى وَسَعِيدًا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمي والشقي حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه في مدبح الوزير اليازوري يخرجه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تنبئ اليازوري المعروف لفترة الباسمى في سنى ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوه فيها للخليفة الفاطمي، وفيها يقول للخليفة العباسي القائم بأمر الله :

عَجِبْتُ لِلْمَعَى الْآخِيَّ مُلْكًا وَغَايَتُهُ بَسِغْدَادَ الرُّكُودُ
وَمِنْ مُتَحَلِّفُو بِالْمَوْنِ رَاضِي بُلَادُ عَنْ الْحِيَاضِ وَلَا يَلُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخرى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شيء مع الملك السلجوقي طغرل بك. وما يزال يدور في الفلك الإسماعيلي الفاطمي حتى سن السنين إذ يتزل حلب عند محمود بن نصر المرداسي وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

وَلَكِ الْأَوَّلَةُ أَوْضِحتْ حَتَّى رَأَى إِنْهَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّحْطِيلَا
عُرُوا بِأَنْ شَرُفَتْ عَنْهُمْ مَلْجَا فِي الرَّأْيِ مَا عُرُوا لَهُ تَأْوِيلَا

وهو في البيتين يعرض بالفاطميين وأنهم يدهون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ الأئمة، كما يدهون دعوة واسعة إلى التأويل في القرآن الكريم حسب عقيدتهم ونهواتهم، وكأنه يزيد أن يعلن تبرؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حُبوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاحة، ويستخلص فيها أحيانا المهنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

بهاء الدين ^(١) العامل

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العامل ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامي الشيعي ينتقل في بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأدخل فيها حتى هراة في أفغانستان . واستقر به المقام في « البحرين » حيث توفي بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين في بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحببت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور في مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفة والمنطقية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غرار كتابه « الخلاصة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسيره في أصفهان ، وقربه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكري وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح قريبا إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتابا في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الحقاقي : « شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محرم ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الحقاقي في الرحانة وابن معصوم في سلافة العصر والهي في نضرة الرحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ودينا ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو في شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامي خال . وكان الإمامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمض حوالى سنة ٣٦٨ وإنما اخفى وسيبوه ، ويسمونه إمام ^(٢) الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

دوريات الجيات ٥٣٢ والفريعة ٢/٢٩ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع في إمام الوقت عند الإمامية الاتي حشيرة الطيبة والفريعة في الإسلام لجولد تيسر (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

(١) انظر في بهاء الدين العامل وشعره سلافة الصرلابين

معصوم ص ٢٨٩ دوريات لأبنا للخطابي ١/٢٠٧ ونتيجة الرحانة ٢/٢٩١ وكتاب الكشكول (طبعة الحلبي) ١٧٦/١ ، ١٩٢ وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٣/٤٤٠

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويوضح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله للمصرف لشئون الكون والعباد ، ولبناء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يخلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفة رب العالمين وظله على ساكن القبراء من كل ديار^(١)
هو العروة الوثقى الذي من بنبيله تمسك لا ينشئ عظامم أوزار
علوم الزوى في جتب أبهر علمه كفرقة كف أو كفسمة ينقار
به العالم الخلق يسو ويمتل على العالم الطوى من غير إنكار
همم لو السج الطباق تطابقت على نقض ما يقضيه من حكمه الجارى
لنكسر من أبراجها كل شامخ وسكن من أفلاكها كل دوار
أباحجة الله الذي ليس جاريا بغير الذي يرضاه سابق أقدار
ويامن مقاليد الزمان بكفه وناهيك من مجده به خصه البارى

وبناء الدين يجعل محمداً للهدى الغالب في رأى الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويعمله العروة الوثقى أخذنا من الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبلغ في سعة علمه اللدنى بالقياص إلى علم الناس الذى لا يُعَدُّ شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شرف به وفضل على العالم الساوى ، ويزعم أن السموات السبع لو انتفتحت على نقض ما يبرمه لانتقلت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تنصاه أبدان أو مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تحتل بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لا يزال حيا يصرف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شيء يمرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو في عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . القبراء : الأرض .

في رأى الشيعة - ضد على وحده في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه في مثل قوله :

يَا أَيُّهَا الْمُدْمِي حَبُّ الْوَصِيِّ وَلَمْ يَسْمَحْ بِسَبِّ أَيْ بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا
كَذَبْتَ وَاللَّهِ فِي دَعْوَى حَبْتِهِ ثَبَّتَ بِدَاكِ سَتَقُصِلُ فِي غَدٍ سَقَرًا
لَإِنْ تَكُنْ صَادِقًا فِيهَا نَطَقْتَ بِوَثَاقِي إِلَى اللَّهِ مِنْ خَانَ أَوْغَدَا
وَأَنْكَرَ النَّصْرَ فِي غَمٍّ وَيَعْتَرِ وَيَقَالُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ هَجَرَ
أَتَيْتَ تَبْنِي قِيَامَ الْعَدْرِ فِي فَكِّكَ أَنْتَحَبُ الْأَمْرَ بِالتَّحْوِيهِ مَسْتَرًا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلَّى نار الجحيم وعذابها الأليم ،
ويدهو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فم - ويطل لما قاله
بأنها أنكروا نصرٌ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعل بالإمامة والخلافة ، وهو
نصر لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في
الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف
أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منعا
السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فُكِّ رَسُولِ اللَّهِ ، وإنما منعها بوصية
الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » . وعامن
ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قلنا ما يحدو
كيف أن بهاء الدين العامل كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في
خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير القادير ، تعالى الله علوا
كبيرا عن كل ما لجأ فيه من رفع إمامه الحق عن المستوى البشري حتى للأنبياء المصطفين الأخيار ،

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء قصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جلبا للأسماع ، ولذلك لا تغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المعب أو العاشق منذ تنبؤيه امرأة ، فيقع فريسة لحيا ، وغلا قلبه وجنا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فظفاه أو تنظر إليه نظرة أو تومي إليه إيماء فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدل عليه وتمتص وقد تنأى عنه ونهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تحمد ، وجنا يتدل لها ويستطف وتضرع ، ومع ذلك لا يلبى الأمل في نفسه بلقاها أبدا ، فهو دائما مؤمل في اللقاء بعد المجران وعلى الأمل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قدما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان ، قد ظل يفتن باسمها وحياته مصوبتا إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرآ آرامها ، إذ هجر حبيها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بمباراة أخرى عالم الإنسان فإضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه متطويا على نفسه حللا بللى وعالمها الساحر خالما الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المبتتين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المفرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشمر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستجلب في خيال الشاعر الحب لما أو العاشق إلى كائن شمرى ساهر . وقد يفتق الحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفتق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتخنى بمحبوته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلا وبهانا ، فقد ظل ييكبها بكاء قلب مرقة الندم والألم . وظل البحرى مثله يتنزل بصاحبه « علوة الحلية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغبر امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحرى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة مجلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فضزل بكثيرات وقليل منهم من نشر عنه بلوعة حقيقة . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه الضيف التلى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته حفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر الحب يصور فيه وجهه وهيامه . وكلفه بصاحبه كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطنى فيه الفرائز وتجمع العواطف . وظل هذان النوعان : لللائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فليدع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم فى صاحبة له (١) :

السحر فى ألاحظها الفاتكة والروح من إعراضها هالكة
والقهوة الصهباء من ريقها والسك من أصداعها الحالكة
من لم ير الدر وتأليفه فى سيلكه ظميرها ضاحكه
قد كتب الحسن على خدّها طل دم أنت له سافكه

والآيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع للطبعة الأنسية ببيروت)

محفوظة ، فريق صاحبه خمر والشعر على أصدافها منك وأسنانها دَر ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بدیعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكه ، وهي مبالغة في الخيال والتصور . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سَكَرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ وَمَالِ بِالْثُومِ عَنْ عَيْنِي تَمَائِلُهُ
وَمَا السَّلَافُ دَعْنِي بِلِ سَوَاقِهِ وَلَا الشُّوْلُ أَزْدَعْنِي بِلِ شَائِلُهُ
أَلْوَى بِكَيْسَى أَصْدَاغُ لُؤَيْنَ لَهُ وَغَالِ قَلْبِي مَا نَحْوَى غَلَائِلُهُ

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبه وهيئها الفاتنين لا من الحمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الحمر هي التي دعت بل صفحتها جيدها البديع ، وكذلك ليست الحمر أو الشول هي التي استخفت بل خصالها الحلوة وما أروع أصداف شعرها للنسدة على خديها فقد ألوت وذابت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالي حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فضرقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الفرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولابن سنان الخفاجي (٣) :

أَتَرَى طِبْفَكُمْ لَمَّا سَرَى أَخَذَ النَّوْمَ وَأَعْطَى السَّهْرَا
أَمْ ذُهِلْنَا وَتَمَادَى لُبْنَا فَتَوَهَّنَا الْعِشَاءَ السَّحْرَا
يَا عِبْرَانَا بِالْحَمَى رَاقِدَةً حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُنَّ الْكَرَى
سَلِّ فِرْوَجَ الْبَانِ عَنْ قَلْبِي فَقَدْ وَهَمَّ الْبَارِقُ فِيهَا ذِكْرَا

وليس في الأبيات لفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبه أو صواحه - في البيت الثالث - أن لا يلفن النوم دعاء ناب على ذوق الميمين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واتقاء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢ .

كثيرة يقدم بها لمدامحه نفس فيها لوحة الحب وخرقة قواده من مثل قوله (١) :

خُذًا من صَبَا نَجِدُ أَمَانًا لِقَلْبِي فَقَدْ كَادَ رِيَاها بِطِيرٍ بَلْبِي
تَذَكُّرُ والذَكَرَى تَشَوُّقُ وذو الهوى بِتَوْقٍ وَمَنْ يَتَلَقَّ بِهِ الحُبُّ يُصْبِي
غَرَامُ عَلَى بَأْسِ الهوى وَرَجَائِهِ وَشَوْقُ عَلَى بُعْدِ المَزَارِ وَقُرْبِهِ
إِذَا خَطَرَتْ من جَانِبِ الرُّمْلِ نَفْعَةٌ تَضْمَنُ مِنْهَا دَاءَهُ دُونَ صَحْبِهِ
أَخَارُ إِذَا آتَتْ في الحَى أَنَّهُ حَلَلًا وَغَوْقًا أَنْ تَكُونَ لِحَبِّهِ

فحب صاحبه النجدية استأثر بقلبه حتى يطلب له الأمان من صبا نجد عاقبة عليه أن يطير شعاعا ، وإنه ليدكرها ليل نهار وتُصْبِيه ، ويأس لمجرانها ولأسته أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتشم في الصبا للقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعلاجه . ويبالغ في وصف غيمته عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل آفة يسببها في الحى من حب لها محموم بحيا ودائه العصال . ولما صرته القزى للتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة (٢) :

إِشَارَةُ مِنْكَ تَنْفِي وَأَحْسَنُ مَا رُدَّ السَّلَامُ خَلَاءَ التَّيْنِ بِالْعَمِّ (٣)
حَتَّى إِذَا طَاحَ عَنْهَا الرِّمْتُ مِنْ دَعَشٍ وَالْحُلُّ بِالْقَسَمِ سَلَكَ الْعَقْدَ فِي الظُّلَمِ (٤)
تَبَسُّمُ فَأَضَاءَ اللَّيْلُ فَالتَّقَطُّ حَبَاتٍ مُكَيَّرٍ فِي ضَوْءِ مُنْتَظِمٍ

وهو تكمية الإمامة من بعيد والإشارة بالبتان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها الرمط أو الإزار والحل سلك العقد للثفن حول جديدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأعلنت لتلقط حبات العقد للتأثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البراق القاتن . ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ هـ لحاجة عرضت له ، وكان في الثانية والسعين من عمره ، فنظم مقطعات يشب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريا ، خطبت له ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله (٥) :

(٤) الرمط : كساء من حرير أو صوف تطفح به المرأة

(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخطاط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية

عَفَافُ إِلَّا عَن مَّعَارِفِ الْهَوَى ضَعَائِفُ إِلَّا فِي مَغَالِبِ الصُّبِّ
وَلَا دَنَا التَّوَدِيعَ قَلْتُ لِصَاحِبِي حَنَانِكَ سِرٌّ بِي عَن مَلَاظِمَةِ السَّرِّبِ
تَقْضَى زَمَانِي بَيْنَ بَيْنٍ وَهَجْرَةٍ فَحَتَامَ لَا يَبْصُرُو قَوَادِيَّ مِنْ حُبِّ
وَأَهْوَى الَّذِي يَهْوِي لَهُ الْبَدْرُ سَاجِدًا أَلَسْتُ نَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

والصورة في البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر التراب العائلي يمجته لتوالي سجوده لصاحبه ولجلالها الساحر . ويقول إن زمانه تقضى في حرمان متلاحق من البعاد والهجرة للتصلة . ولحماد الخراط للتوفى سنة ٥٦٥ قوله ^(١) :

أَلَا هَلْ لِمَاضِي الْعِشْرِ عِنْدَكَ مَرْجُوعُ وَهَلْ فِيهِ بَعْدَ الْيَأْسِ لِلصُّبِّ مَطْمَعُ
لَقَدْ أَوَلَمْتُ بِالْصَّدْقِ حَقِّي وَإِنِّي لَفَرَّقْتُهَا ، مَا عَشْتُ ، بِالْوُجْدِ مَوْلَعُ
أَنْصَاحُكُ حُسَادِي فَيُغْلِبُنِي الْبُكَاءُ وَأَكْتُمُ عَوَادِي وَإِنِّي لَمَوْجَعُ
إِذَا خَطَرْتُ مِنْ ذِكْرِهَا لِيْ خَطَرُهُ نَكَادُ لَهَا أَنْبَاطُ قَلْبِي تَقْطَعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدلا ملتحا . ويصاحك حساده نوحيا ويطلبه البكاء ويكأنم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عجزوا أحسن كأن نياط قواده وعلاقته تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العباد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النجار كاتب الإنشاء اللعشق للتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا ^(٢) :

مَنْ مَنَصْنِي مِنْ ظَالِمٍ مَتَعْتِ بِزَادِ ظِلْمَا كُلَّمَا حَكَمْتُهُ
مُلْكُهُ رَوْحِي لِيَحْفَظَ مُلْكَهُ فَأَضَاعَنِي وَأَضَاعَ مَا مَلِكُهُ

وهي نظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هي تفسيها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح ، فأنشأه . ويقول فتيان الشاهورى متزلا ^(٣) .

وَمَهْفَهْوِي بَلِّغْ الْمَنَى بِصِفَاتِهِ حَرَكَاتُ غُضَنِ الْبَانِ مِنْ حَرَكَاتِهِ

والشمسُ تَجْبَلُ من ضياءِ جَبِينِ والجلتارُ يَظَارُ من وَجَنَاتِهِ
أضحى الجبالُ بأسره في أسره فكان يوسف حاز بعضَ صفاتِهِ
لا تَقْلَمَنَّ يا حافل في سَلَوِي عنه لما أسلوه ، لا وحياته

وهو بصور صاحبه مهفهفه أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الحصر بلغت كل ما تمتناه للمرأة من
حسن وجهال ، ويقول إن غصن البان الذي يمد ملاحه حركته مشتقة من حركاتها ، ويحمل
الشمس تصفراً خجلاً من ضياء جبينها ، بينما يطار الجلتار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر
من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويحطها تحوز الجبال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام
إنما حاز منه أطرافاً ! ويتوجه إلى حاذله باللوم ، فلن يكف عن حبه ولن يسلو صاحبه أبداً .

ويقول بدر الدين يوسف بن توتوك الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وتَبَّهَتْ ذاتُ الجناحِ بسحرةً بالوادينِ فسَبَّهَتْ أشواقِ
ورَّكَّاهُ قد أغلقتْ فُتونَ الحزنِ عن يقوبَ والألحانَ عن إسحاقِ (٢)
أنى تُبارِئى جوى وصباةً وكأبةً ونسَى وفيضَ مائِ
وأنا الذى أملِ الجوى من خاطرى وهى التى تُحِلُّ من الأوراقِ

وهو يقارن بين جواه وجهه وأساءه ودموعه وبين جوى الحاماة الورقاء وصباها لآلئها وحزنها
الظنين ، ويقول إنه يمل من خاطره حُرَّته ولوحته ، بينما هى تمل من أوراق الشجر وتروى عنه
ذلك الوجد . ويقول للحار الخليلي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

ما بئُ شكواه لولا مئة الألم ولا تأوّه لولا شفه السقم
ولا توهم أن التمتع منهجه أذابها الشوق حتى سال وهو دم
يبيد التجلد والأجفان تفضحه كالبرق تبرى القوايد وهو ينسم
يمسى ويصبح لا صير ولا جد ولا قرار ولا طيف ولا حلم

والحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

(١) إسحاق للوصل أشهر اللغتين للمعنى في العصر العباسي

(٢) نوات الوفيات ٢٢١/٢

(١) الخزانة ص ٣٢٦
(٢) يقوب هو الذي يقرب ويكافئ على ابن يوسف
حتى أبغضت حياته من الحزن معروف .. وإسحاق هو

أن نار المعوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دماً قانياً . وعسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد
وتملكه قلق لا حد له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال
مسهداً لا ينام .

وغصى إلى زمن العثانين ونجد القزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول
فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة (١) :

طرقن طروقَ الطيفِ وهما مبالأة الأعطاف حُنا
مُصغُولَةُ الحُذَيْنِ مثـ لـ السيف الحاظاً وثنا
في حَلَقٍ من جِئْسٍ ما يكسو الريحُ النُصْنَ دُكنا
الذلُّ يَنْتَبِ من مسا حبٍ ذيلها والحُسنُ يُجَنى
لو غاطبتُ وَتَنَأَ الحـ نـ مع الجمود لما وثنا

وليس في القطعة لوحة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلها وحسها ، ويقول : لو غاطبت
وثنا من الأحجار لحنّ لها وأنّ أيتها لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب
والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القاتل (٢) :

مَنْ عَلِمَ في حبٍّ طفلي لوبٍ حُودوه سَفَكَ الدِّمَا فَحَلَا لَه
كلما صَدَّ عن سوائٍ دَلالاً صَدَّ عني تَبَرُّماً ومَلَاكَه
لست أنسى يومَ الفراقِ وقد أذْ ركَ من شملنا التَّوى آمالَه
غَصَبَ البَيْنِ من يدي كُلُّ قَدْ سَرَقَ النُّصْنَ لِيَهْ واعتَدَالَه
مُرَّ نَشْوَانٍ من جَوَى بَشَى ثَقُلَ الوردُ غُصْنَه فَاَمَالَه

والقطعة ترخر بصاوير بديهة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد حُودوا صاحبه
الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحللها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن النُصْنَ سرق ليه
واعتداله من قد صاحبه وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبه تتنقّل لثقل
الورد المتروّج على خلودها الفاتحة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الزلّين .

عبد^(١) المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المهيدين للبدعين ، وفيه يقول الثعالبي :
 « أحد المحسنين الفضلاء المهيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح
 النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان .
 توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة
 كثرى بشعره ، وكان يفضل على أبي تمام والبحرئى والمثنئى . ويروى أنه مرقى طريقه إلى حلب
 بشاعر للمرأة بل الشام بل العالم العربى لزمته : أبى العلاء ، وجرى بينها حديث فى الشعر والشعراء
 وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطعات فقال له
 ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المثنئى ، لئلا إليه أبو العلاء يده وقبض على أهل ثوبه
 قائلا : الأمراء لا يتأخرون ، يعنى أنه لا يقارن بالمثنئى . وكان أبو العلاء معجبا بالمثنئى إعجاباً
 شديداً حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى
 لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجابة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره
 وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خضاجة الأندلسى يحجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه
 بالشريف الرضى ومهيار قاتلا : إنه تملكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وللفاظهم
 الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمة هذه المقطوعة
 أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا ينزول غزلا رفيقا متمترجا بالطبيعة وجها لها الحاجج فى الكون ،
 وكأنه يضع أبدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المهيوب وعناصر الطبيعة
 مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بألذى	ألم	تَحْدِيد	حى	ثناياك	العذابا
والذى	ألبس	خَدِيد	لِك	من	الورد
والذى	صبر	حظي	منك	هَجَرَا	واجتبا
يا غزلا	صاد	باللح	خط	قزادى	فأصبا
ما الذى	قاله	هنا	لِك	لقلبي	فأجابا

٢٢٢/٣ وعبر الذهبى ١٣١/٣ والنجم الزاهرة ٢٦٩/٤

ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشرحات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

(١) انظر فى ترجمة عبد المحسن الصورى وأشعاره

النبية ٢٩٦/١ وستمة البنية ص ٣٥ وابن خلكان

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثمر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجتها وردا تتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخطف القلوب فقلبه طائفة مستجبة .
وقد استلهم ابن خضاعة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانبا ثانيا في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدعابة والنعومة على نحو ما نجد في قوله :

أترى بثَّارَ أم يَدِينِ	علقتُ محاسنها بعَيْنِ
في لحظِها وقوامِها	ما في المهند والرَّدِينِ
ويؤجِّهها ماء الشبا	بِ خَلْبِ نار الوجْتِينِ
بكرتُ على وقالت اخذ	ترَّ خَصْلَةً من خَصْلَتِينِ
إما الصدودُ أو الفرا	قُ طليس عدى غيرَ قَمِينِ
فأجبتُها ومدامى	منهْلَةً كالْمِرْزَمِينِ ^(١)
لا تفعل إن حان صَـ	لُذِكْ أوفراقك حان جَتِي
وكأنما قلتُ اذهبي	لفضتُ مسارعةً لَتِي

والآيات تسيل رقة وعلوبة ، مما يجعلها تطير من القم بخفة طيرانا لرشاقها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الحقيقية للقتلقة من وزن الكامل الهزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحنها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بجلاوتها وعلونتها في الآذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صُدغ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجتها وقد توقف مائلا منحيا :

جَتِي ما جَتِي وأنصَرَفَ	وأنكسرَ ثم احزَفَ
سلوا صُدغُه لِمَ جَرَى	ولما جَرَى لِمَ وَقَفَ
وكان على أنه	يجوز المدى فأنطَفَ

وهو تصوير بدیع لهذا الصدغ وانعطافه ذات الجمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجاله وحسه كان يتنظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجري ثم يقف ، وهو يسرسل ثم

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحيهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد الحسن فيقول :

تعلّقتُ سكرانَ من خمرة الصُّبا به غفلةً عن لومتي ولحي
وشاركني في حبه كلُّ أُعْيِدٍ يشاركني في مهجتي بنصب
فلا تُلْزِموني غيرَ ما عرفتها لأن حبيبي من أحبِّ حبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار من يحب حبيبه ولا يكرمه أو يمجته ، بل أحبب المصحب أنه يحبه ، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور .

ابن^(١) منير

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى في أسواقها ، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول الهادي الأصماني كان شيعيا غالبا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء غييث اللسان ، وكثر هجاءه فسجنه بوري بن طُغتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ) . وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله يتزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيخير ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيخير ، وكان في أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات حماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أنشأها حملة الصليب . وأقام ابن منير حيثلد بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه في غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام ، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨ .

والنجم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشرحات اللعاب ١٤٦/٤ .

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام)

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن الفلانس ٣٢٢

وتناول ابن منبر في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح ، ومُرَبَّنًا - في غير هذا الموضع حديث عن مديحه لعاد الدين زنكى وابنه نور الدين في انتصارانها الرائعة على حملة الصليب ، ويُشيد العاد الأصماني بشعره وروعه . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من تيل الأمانة ، وأعذب من الأمان من النية . وله هجاء كثير . وكان يحيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكِبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرُّدَيْنِ وَمَوْهَ السَّحَرِ فِي حَدِّ الْجَمَانِ
وَأَنْزَلَ الثَّيْرَ الْأَهْلَى إِلَى قَلْبِكَ مَدَارُهُ فِي الْكِسَاءِ الْخُسْرَانِ
طَرَفُ رَنَّا أَمْ قِرَابُ سُلٍّ صَارُمُهُ وَأَغِيدُ مَاسٍ أَمْ أَطَافُ خَطِيٍّ
أَذُنِي بَعْدَ عَزٍّ وَالْهَوَى أَبَدًا بِسَعْدِ اللَّيْلِ لِلطُّبِيِّ الْكِتَاسِ^(١)
أَمَا ذَوَائِبُ مَسْكٍ مِنْ ذَوَائِبِ عَلَى أَعَالَى الْقَضِيبِ الْخَيْرَانِ
وَمَا يُجِنُّ حَقِيقُ الشَّفَاةِ مِنَ الْهَرِيقِ الرَّحِيقِ وَالْثَغْرِ الْجَمَانِ
أَرَبَى عَلَى بَشَى مِنْ مَحَاسِنِ تَأَلَّفَتْ بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَسْرُوعٍ

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتمتع من بدر يراه في صدر رمح رديني مهيب لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين ممومًا في حد السيف الجماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلٍّ سيفه القاطع ، وهل هو يلازم قد شاق ناعم بشى أو يلازم أطاف رمح خطيٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعد الليث الفاتك للظي الوادع الذى يعيش في كتاسه أو ملواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا النخن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاء غوراهما الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السانع . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منبر وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أَكْرَى بَيْتِهِ عَنْ قَسْوَةِ خَلِّهِ الدَّالَابِ مِنْ رِقَّتِهِ

(١) الكِتَاسُ : مأوى للطير في الشجر يسهر به

أفاستجده وهو الذى ثون الدمع على حبيته
ولهذا قومه مؤثرة تستمد الثيل من مقلته
قر لا فخر للبدر سوى أنه صيغ على صورته
صدغه كرمه خمر قُست بين خطبه إلى نكته
أنحال الحال بطلو خده نقط مسك ذاب من طرته
ذاك قلبى سلّيت حبه واستوت خلا على وجته

والقطعة نموج بالصور ، فخذ صاحبه يلوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والثيل فى مقلتها يستمد . وقد بلغت من الجبال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغها أو خصلتى الشعر المرستين على خديها كرمه خمر قست بينها واستحالت رضاها فى نغرها يرشفه الحب . ويقول : لا تظن الحال على خطها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها ، بل هو حبة قواده سلبها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وَوَقَلَّتْ فى الرّوضى من وجّاتِهِ نارُ الحياء يشبها ماء الصّبا^(١)
وقوله :

وكم له فى كبدي لَسَمَةٌ يرودها التّرياق من فيه^(٢)
وقوله :

سَلَّمْتُ قَارُونَ بِرِوى قوسِ حاجِبِهِ كأننى كَأَسُ خَمِرٍ وهو عَمُودُ
وقوله :

لَرُّ ما طَلَعَتْ طَلَعَتُهُ قَطُّ إلا سَجَدَ البدرُ لها

وغزلياته تزدد بين الجزالة والنصاعة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعلوية ، وله قصيدة رائية من جزوه الكامل فى مملوكه تتر : أنشدنا الحموى فى خزانته تلى على خفة روحه وميله إلى الدخابة ، ويمحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(٢) يرودها : شرابها . الترياق : الدواء

(١) يشبها : يولد لها .

الشاب^(١) الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلوكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم «سعيد السعداء» ، ووُلد له حيثُ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بزيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أمّه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو حالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أُنْداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يمتعون في دورهم أوفى للتهرات ، غير أنه لم يمش طويلاً ، إذ حاجته للنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عرى ، وكأنا نتمل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوى حار ، وبث منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلي الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته يتقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سَرى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقى شعره فكاد أن يُشرب ، ودق فلا غرو للقبُص (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رقيق الألفاظ ، سهل على الحفظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تملوه المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولج به كل ذاكره .

ابن الفرات ٨٥/٨ والحقه لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببغوت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره لغات الوهبات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ

وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الطريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يمجج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخَفِّرْ ما هَلَّتْ بِكَ الْأَشْوَاقُ وَاشْرَحْ هَوَاكَ فَكَلَّمْنَا حُشَاقُ
فَمَنْ يُبْعِدُكَ مِنْ شَكْوَى لَه الْهَوَى فِي حَمَلِهِ فَالْعَاشِقُونَ رِطَاقُ
لَا يَجْزِمُنِي فَلَسْتُ أَوَّلَ مُقَرَّمٍ فَكُنْتُ بِهِ الْوَجَنَاتُ وَالْأَحْدَاقُ
وَاصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ فَرِمَا عَادَ الْوِصَالُ وَلِلْهَوَى أَخْلَاقُ
يَا رَبِّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أَحْبَبُهُمْ حَتَّى وَقَدْ أَلْفَ الْفَرَاقَ الْفَرَاقُ

والآيات تسيل رقة وعلوية ، وهي تتلصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الطريف كان يستخدم الكلمات العامة ، فليس فيها من العامة شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية للتداول على السنة العامة مع أنها حرية فصيحة ، مما يشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء الطيب في تحدره وركته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العلوية والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أَحْرُ الله أَنْصَارَ الْعَبِيدِ وَخَلَّدَ مَلِكَ هَاتِكِ الْجُودِ
وَضَاعَفَ بِالْفَتْرِ مَا اخْتَدَارَا وَإِنْ تَكِ أَضَعَفَ عَظْلٍ وَدِينِ
وَأَبْقَى دَوْلَةَ الْأَعْطَافِ فِينَا وَإِنْ جَارَتْ عَلَى قَلْبِي الطَّمِينِ
وَأَسْبَغَ ظِلُّ ذَاكَ الشَّمْرِ مِنْهُ عَلَى قَدِّ بِهِ هَيْفُ الْفُصُونِ

وهو دعاء لصاحبه ملء بالظرف والرقة والنعامة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق للفتوتين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا للملك العريض من عالم الجبال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشعره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جراته البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبح الله ظل ذلك الشمر على قدما الأهيف الضامر ضمور النصوص اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُهُ وقرينُهُ
يا من أعيذُ جِلاله بِجِلالِهِ
إن لم تكن صغى ظنك نورُها
أولم تكن قلبى فأنْت حَبِيبُهُ
هل حرمةٌ أَوْرحمةٌ لِحَبِيبِهِ
قد قَلَّ منك نصيرُهُ ونصِيهُ
لم يبق لى سرُّ أقول تلبُّعُهُ
عنى ولا قلبُ أقول ثُلثِيهِ
والنجمُ أَقْرَبُ من لِقاك مَنالُهُ
عندى وأبعدُ من رضاك مَفْيهِ

والآيات تَسِيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعبد جلالها بجلالها حذرا من حيون الجاسدين . وهى نور عينه وَجْه قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أَوْحرمة الحب لعلها تتيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حيا ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حيا حتى ذاب التياها لطول يأسه من لقاءها حتى لظن أن النجم أَقْرَب من لقاءها مثلا وأبعد من رضاها مَفْيَا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقولهِ :

بَتَكُنِّى قوامك المشوقِ وبأنوارِ وجهك المشوقِ
جُدْ بوصلٍ أَوْزودِ أَوْبوعِدِ أَوْكلامِ أَوْوقفِ فى الطريقِ
أَوْإرسالك السلامِ مع الرُّيحِ وإلا فبالحبالِ الطُّرُوقِ

وتدل غمياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع اللعانة والظرف والتلذذ فى الحب واتقاد جلوته فى قراده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن^(١) البودينى

هو حسن بن محمد البودينى ، ولد بالأردن فى قرية صَفُورِيَّة لِسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انظر فى حسن البودينى وشعره رِعاية الألبا ١٢/١

المقدس ، وفيه أم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج للشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالماً ثباتاً حُظفة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإتحامه بين المتصوفة للمتألفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنياً شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المهجى في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبرلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجي : « دياجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكة عطارده التي يفتخر بها الفخره وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكنى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبع أن يتأثر بحبه الإلهي الظامى أبداً وما فيه من خوالج ونواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائما الفراق والحزنان ، لما يكاد يبتأ بالحب لحظة حتى يتيقن له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يظلف أشد التلطف على رؤية صاحبه بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدعاء مؤثّر قلت نعم لو كان ليل له صُبْحُ
وباعبجاً متى أروم لقاءه وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمْعُ
وإنسانٌ عني كيف ينجو وقد غدا بطول له في لُجٍّ منمعه سُبْحُ
وليس عجباً أنْ دمي أحمرُّ وفي مهجتي كَرْحٌ وفي مقلتي رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقائها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها للمشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يفرق فيها إنسان عينيّه ، وما زالت عيناه تلمع حتى استحال دمعها دماً ، ويشعر كأن في مهجته جرحاً لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يبرأ . ويقول :

وكنا كقُصْنَى بانيّةٍ قد تألّفا على دَوَحَةٍ حتى استظالا وأبتما
يتنبها صَدْحُ الحمامِ مَرَجَماً ويسقيها كأسُ السحابِ مَرْتَما
سليمين من خُطْبِ الزمان إذا سَلا خَلَّيْنِ من قول الحسود إذا سَمَى

فأرقى من غير ذنب جَبَّته وأبقى بقلبي حُرقةً وتوجُّها
عفا الله عنه ما جاءه فلاني حفظتُ له العهد القديمَ وصَيِّما

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل حصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معا وتناولوا الحياة تناولاً واحداً ، بنمان بشمو الحمام وينلان من كثوس السحاب متشبن هائنين ، لا عدول ولا حدود . وفجأةً تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعوه الله أن يخضر لصاحبه جنابها ، إذ ضيبت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرةً له بل حافظاً أميناً . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنْ أو اهلاً وما هي من بعد الفراق طُلُولُ
ويا ظبيُّ هل بعد الثَّغَارِ تأثُّسٌ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفُولُ
ويا متزلَّ الأحابِ أين ترحلُوا وهم في قَوَادِي - ما حيثُ - نزولُ
يميلون عني للوشاة وإنني إليهم وإن طال الصدود أميل
على لم حفظُ الوداد وإن جتُوا وليس إلى نقضِ العهد سبيلُ

وقد فارقه صاحبه وأصبحت منازل قلبه طولاً دارسة ، وإنه ليشاعل متحسراً هل بعد التفور تألفت وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل متزل الجبية وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض العهد ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قريبا أو كما يسميه ابن وراق أي حمامة رمادية اللون قائلا :

وما حاجني إلا ابنُ وراقٍ سُحرةً له فوق أفنان الرياضي هديلُ
يردُّ في صُحف الرياض . قصائدنا من الشوق يُملئها لنا وبميلُ
يجيلُ أن التينَ آذى قِزَّاهُ وكيف ولا يتأ عنه خليلُ
ولم تحكّم فيه الليالي ولم يينْ عليه لبَّين رقةً ونحولُ
أما والهوى لو دقت ما دقت في الهوى لما ازدان بالأطواق منك تليلُ

ألا إنه مافارقَ الإلفَ دَهْرُهُ ومالى إلى وَصلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين فرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها في صحف الرياض وعلينا محيلا
كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق ، فحييته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها
ضُتَّى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارحه ما ازدان تليله أو عتقه بطوق ، ويقول له
إنه لم يفارق أليفته يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والمهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها
قوله :

ورقُ القصونِ دلائرُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيها قلنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتغنى الوصل وأن تلوب
حُجُب المهجران . وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤
للهجرة .

٢

شعراء الفخر والمجاء

موضوعا الفخر والمجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر
والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمي أبو تمام بخناراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليا
لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من
قديم شعر المجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثمرون
بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر
السنين - بينهم وبين الأمم وقودا مستمرا للفخر والمجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها
كلما تقلنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك للمعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفي
بذكر شاهرين كبيرين قريين من هذا العصر هما أبو تمام والبحرئى ، وكانا أشبه بمكاتبين حريين ،
فهما يحضران للمعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتلمت الحرب
وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من حُق لا يكاد يبق منهم باقية . وبجانب
هذا الفخر والمجاء الحربي كان هناك الفخر والمجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لبيان
ما يشتملون عليه هم وأقربائهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أهل أؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجاهليان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحرئى وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فتجد - بعامل اللاناسة - شاعرا يفاخر زميلا له وبهاجه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكِيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته ويطولون جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منلرين جموعهم بمعارك تدق أعاتقهم دقا ولا تبق ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتتمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالدين والسريّ الرّقاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول ^(١) :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ	عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
ثمَّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لى إلا المُلأ والفضائلُ
وقد سار ذكرى في البلاد فن لم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملُ
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لأتى بما لم تسطعهُ الأوائلُ
ول منطلق لم يرض لى كفة مترى	على أنفى بين السّاكِن نازلُ
ولما رأيتُ الجهل في الناس قاشيا	تجاهلتُ حتى ظنُّ أنى جاهلُ
وواعجبا كم يدعى الفضل ناقصُ	ووالسفا كم يظهر النقص فاضلُ
ينافسُ يومى فى أسى تشرفا	ونحسدُ أسحارى على الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء للمشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شائبه وخصومه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب المعري ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلّى ، وهو يقول : من أين يلحقني الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب للمصرية)

والإكدام الجريء والحزم النافذ والتائل أو الجرد السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا حبوب إلا إذا عُلَّتِ العلا والفضائل ذنوباً وعبوباً ، ولن تعد الحسن كذلك أبداً . وإن ذكره ليم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاها ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أنى بما لم يستلمه الأوائل ، ومع أنه بين السالكين فى السموات العلا لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أهل شأنه . ولما رأى الجهل لاشياً مجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسر على تظاهر الفاضل بالتقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ومعنى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الحفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفخر بقومه وبلاتهم فى حرب الثغور ضد الروم ^(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مِلْكُهُ بَسَطُوا رِمَاحاً دُونَهَا وَسَوَاعِدَا
وأولو الثَّقَى فلَإِذَا مَرَرْتَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَلَقِ إِلَّا مَكْرَمًا وَمَجَاهِدَا
إن حاربوا ملئوا البلاد مَصَارِعَا أَوْ سَلَمُوا حَمَرُوا الدِّيارَ مَسَاجِدَا
يَتَّ لَه النَّسَبُ الْجَلِيَّ وَغَيْرِهِ دَعْوَى تَرِيدُ أُدِلَّةً وَشَوَاهِدَا

وهو يفخر بياس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملكون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بينهم هريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنجد له ترجمة - ولابن الساعاتى المار ذكره ^(٢) :

وَإِنِّي لَأَكْفَى الْقَبِيْمَ مِنْ كُلِّ صَاحِبٍ وَأَكْرَهُ قَلْبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ خِدْنَا
وإن بلدٌ لَمْ أَهْدُ فِيهِ مَكْرَمًا نَهَضْتُ فَأَعْلَعْتُ الْجُدَيْلِيَّةَ الْبُذْنَا ^(٣)
وما شان فَضْلِي بَيْنَ أَهْلِ خَمُولِهِ وَقَدْ بَلَفْتُ غَايَاتِهِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّا
فَإِنِّي كَعُودِ الْهِنْدِ هِينَ يَنْتَوِجِيهِ وَقَدْ عَبَقْتُ أَنْفَاسُهُ السَّهْلَ وَالْحَزْنََا

(٣) الجديلية البذن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الحفاجى ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢١٤/٢

فهو يأني الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحس أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فقله مثل حود الهند لا يُعرف فضله في قوّته ، يينا راعته العطرة تملأ السهل والخرن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش للمعز بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثانيين كقول ابن الجزرى للمار ذكره^(١) :

يَقْلُغْنِي حَزْمِي وَحَطْلِي مُؤَخَّرِي وَيُوصِلُنِي حَزْمِي وَدَهْرِي يَقْطَعُ
وَهْمِي مِنَ الدُّنْيَا لِلْعَالِي وَيَكْلَهَا وَمَا هُمْ قُلُوبِي الرُّفَّتَانِ وَلَقْلَعُ^(٢)
وَلَا رَشَأُ أَحْوَى وَلَا صَوْتُ قَبِيَّةٍ وَلَا قَدَحُ فِيهِ الرُّحَيْقُ الْمُشْتَعُ^(٣)
وَلَكِنَّا لَذُنُّ وَأَجْرُدُ سَابِغٌ وَمَسْرُودَةٌ زَغْفَا وَأَيْضُ بَسَطُ^(٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسغه الحظ والدهر . وهمه طلب للعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقتين وجبل لعل من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنى غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الحمر وشرابه . إنما هم رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بنجم ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دماهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يميزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنازعات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعاية وإن لم تحل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له^(٥) :

وَأَخْرَجْتُهُ مِنْ نَزْوِلٍ بِقَرْحٍ مِثْلَ مَا مَشَى مِنَ الْجُرُوحِ قَرْحُ
بَيْتٍ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرْ قَبْحُ

طرقة في الشفة ، الرحيق المشتع : العسل للمزوج

(١) الرقتان : قريتان في شرق نجد أو روضتان

(٢) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة :

درع . زغفا : ساهلة . أبيض : سيف

(٣) البتية ٢٠٠/١

(١) رجاءة الآباء ١١٨/١

(٢) الرقتان : قريتان في شرق نجد أو روضتان

ويذكرهما شعراء الغزل . لعل : جبل في نجد

(٣) الرشا : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة :

قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السُّكْرِ وَهَمُّ طَافِعٌ لَيْسَ بِصَحْوٍ
لَمْ تَعْرِفْتَ قُلْتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نَضِجٌ وَنُجْجٌ
سَافَرُوا تَغْتَمُوا فَقَالَ وَقَدْ قَالَتْ تَمَامُ الْحَبِيثِ صَوْمُوا تَصِحُّوا

وهي دعابة تلصق لَسَخَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيقه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من
عَضُّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه منه من الجوع قَرَحٌ لا يزال يَنْزُلُ أَلَمًا ،
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) أى إِنْ نَالُوا
منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إِنْ الدَّهْرُ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَيْهِ هَذَا الْحَكْمَ الْقَبِيحَ ،
ولقد أصابته سكرة من الشَّحِّ والهَمِّ ، فسأله سؤالاً مزرياً : لَمْ تَعْرِفْتَ وَنَزَلْتَ عِنْدِي ، فأجابه لقول
رسول الله ﷺ : سَافَرُوا تَغْتَمُوا ، فبادر إليه يقول : تَمَامُ الْحَبِيثِ : صَوْمُوا تَصِحُّوا ، وكأنه
يطلب إليه أَنْ يَظْلَ جَانِعًا بَلْ أَنْ يَصُومَ وَيَظْلَ صَانِعًا مَا ظَلَّ عِنْدَهُ . ويقول الغزالي المتوفى سنة ٥٢٤
فِي هِجَاءِ حَاكِمٍ مِنْ حُكَّامِ إِيرَانَ يُسَمَّى شِرْوَانِشَاهُ ^(١) :

رَأَيْتُ لَوْ مَا مَصُورًا جَسَدًا شَبِثَتْهُ الْاِحْتِبَالُ وَالْكَذِبُ
عَلَى سَرِيرٍ كَالْتَنَشِ لَا رَهَبٌ يَطْلُوهُ مِنْ هِيئَةٍ وَلَا رَهَبٌ
يَجِبُهُ بِالْهَجْرِ مَنْ يَخَاطَبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَيَنْهَى نَسَبُ ^(٢)
يَقْرُؤُهُ النَّاسُ لِلْسَّعَاةِ وَالْخَرَبُ يُخْشَى وَخَدُّهُ تَرَبُّ
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَدَا كَالْفِيلِ لَا تَنْتَنِي لَهُ رُكْبُ

وهو هِجَاءٌ لَأَذْعَ كَوِي بِهِ جِلْدُ هَذَا الْحَاكِمِ ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزالي إلى ما يشبه
سياطا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للزُّوم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل
على نَشْ لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله ، لما حُرِفَ عنه من شَعْبٍ بغيض ، وأنه يَصُكُّ مخاطبه
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إِنْ يَنَهِ وَبَيْنَ الْفِيلَانِ نَسَبًا ذَمِيمًا . وللتاس يخشونه
لسفاهته كما يخشون القرب وخدعا ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالْفِيلِ قائما أبدا إذ لا ينَامُ فَيَنَاهُ
مشلودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقه شُحًّا بغيضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبي
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم
لا مالا ، بل شعرا فقال ^(٣) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعال : البيلان

يقولون لم أرخصتَ شِعْرَكَ في الرِّى قُلتَ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجَازَى على الشمرِ الشَمِيرَ وإنَّه كثيرٌ إذا استخلصتُهُ من بهائمِ

ومنذ زمن القزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا يتألون ما يستحقونه على أشعارهم من مدحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقْعًا مسطرة دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار المجانين في أيام الأيوبيين بدر الدين عيـد الرحمن بن المسجف التوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا ربُّ كيف بلوتني بعصايةٍ ما فيهمُ فضلٌ ولا إفضالٌ
متأفري الأوصافِ بصدقٍ فيهمُ الدِّهَاجِي وتكذبُ فيهمُ الآمالُ
جَبَّتْ إذا استنجدهم للملَّةِ لَوَّمًا إذا استزفدهم بُجْثَالُ
هم في الرِّخاءِ إذا ظفرتَ بنعمةٍ آلٌ وهم عند الشدائدِ آلٌ

وهو يخيل عصابته من كل فضل ويرأها جديرة بكل ملمة في مهجو إذ تكلم فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لَوَّماء بخلاء ، وهم في الرِّخاءِ أهل أو آل كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا . وولى السلطان الظاهر يبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يحظون للمذاهب الفقهية : للمذهب المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي ولقب على هذه المذاهب ما علما المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فالتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخرة من مثل قول بعضهم (٢) :

أهلُ الشَّامِ استأبوا من كثرةِ الحُكَّامِ
إذ هم جميعًا شمسٌ وحائلهم في ظلامِ

وكان شرب الخشيش المُنْدَرَّ حُرْفَ بَيْنِ أراذلِ الناسِ يدخنونه ويمضغونه وقد يلعبونه ، وشَدُّدُ الظاهر يبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب الظريف (٣) :

(١) شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

(٣) لغات الوليات ٥٣٩/١

(٤) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي

ما للحشيشِ فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشْدِهِ
صفراء في وجهه خضراء في فيه حمراء في عينه سوداء في كَبِدِهِ

وهو يقبضها غابة التصحيح بآثارها في ماضئها من صفرة تغزى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد
لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن نعيم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحل^(١) :

دَعُوا الشَّيْخَ مِنْ كَحْلِ الْعَيُونِ فَكُفُّهُ يَسُوقُ إِلَى الطَّرْفِ الصَّحِيحِ الدَّوَاهِيَا
فَكَمْ ذَهَبَتْ مِنْ نَازِلٍ بِسَوَادِهِ وَأَلْقَتْ يَاسًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

لكحله يعنى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبق بها بصيصا
ولا غير بصيص . ولهبض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباهوني الشافعي
المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة^(٢) :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبسموني
صُنِفَتْ بِكُلِّ مَضْمُونَةٍ وَبِعَدِّ الْكُلِّ بِأَصُونِي

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفحات متوالية . وفي كلمة « باهوني » تورية واضحة
فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباهوني .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بهامه من لا يروقه من الحكام ومن لا يسبح عليهم
نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في
نجيل^(٣) :

نجيلٌ لو يومٍ منه جادت أناملُهُ لخالَتْهُ التَّدَامَةُ
ولو في النارِ أَلْقَى أَلْفَ عَامٍ لَمْ تُخْرِتْ لَهُ يَوْمًا سَلَامَةً
ولو صارتْ بِسُفْرَتِهِ رَغِيْفًا دُكَاةٌ لَمْ يَدْتِ حَتَّى الْقِيَامَةِ

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادمًا أبدا . وما ترجى له سلامة من النار بل سبطل خال^١
فيها ، وإن مائلته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش للمستقيمة كالشمس :

ولأنه ألقى رغيها عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوبا وخجلا أن يرى شيئا على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لغفر من شعراء الفخر والمجاء .

أبوفراس^(١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضى ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقرن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهى كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غلرا وابنه يخطوفى ستة الثالثة ، وعينت به أمه ، وأحضرت له المعلمين فى صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم فى العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبوفراس الذى كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المربين يدربونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين وللتدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ولجأته ، فتحه ضيعة بمنج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه فى حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيألق يقودها بنفسه ويعود إلى منج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفى ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغولا بصيد الحيوان إنما كان مشغولا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومثربنا فى حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعى الهوى ، وقد عرضنا لمحبته للمقبة بالشافية التى دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حاراً ، وتشجيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعا إمامية .

وظل يركب فى مقلة الصفوف مع ابن عمه وصهره للثق أعتاق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب فى إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه فى حربه . وكان دائما يلى بلاء حسنا فى قتيلهم وتمزيقهم شرمق ، وفى يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة فى مكتبات الطليان العربى والغرى ووضع حواشيه ورتب فهرسه .

(١) انظر فى أبى فراس وشعره البيعة ٣٥/١ وما بعدها ونهلب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والفتلرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربى لبيوكهان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامى الدهان

غلانه وإذا بكية من الروم بقيادة تيودور ، باخته فبذاع إلى أن تخنه الجراح ويصيه سهم في فخذيه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل للغوار ، ويقدم به تيودور إلى خزانة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويلتوق ذل الإسماعيل والجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تتردد مع الأيام عتوا وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته ويطولته فيترلونه في قصر على البحر ويخصمون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخرج دروعه وسلاحه ، فيظل بها في أسر .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسماعيل بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يفتق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب يتزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي يحرشون ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهازات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قرعونه في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حظه ، ويقال إنه سقط جرحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنة معزنا قاتلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّابِ أَبُو فِرَا سٍ لَمْ يَمُجَّعْ بِالشَّابِ

وطبيعي أن لا يكون للمديح الموضوع الذي يستفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره : فخره بقيلته تغلب وأجنادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قلعت للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمناقبه الخلقية الكريمة ويطولته . ويُعدُّ روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجواني في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراهم قراعا لا يبق منهم ولا ينر ، وبين قصائدها بابية يرد بها ردا خفيفا على الدمستق حين طعن في العرب وبسالهم الحرية ، وفيها أخذ يذكره باندحارهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مَرَعش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسر ابن أخيه في اللقمان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في روميته يمن إلى ملاعب صباه وشبابه ويشفق إلى زوجه وأبنائه ويرى لأمه العيلة وهي تسأل عنه الركبان حين أسر قائلا على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحَصْنِ خَرْشَنَةِ أُنْدَ شَرِي فِي الْقِيُودِ أَرْجُلَهَا

ويرد عليها مسرعا

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَحْمُلُهَا تَارَةً وَنَنْهَلُهَا^(١)

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تال القيود التحيلة من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أُمِّي المَجُوزُ مَا خَفْتُ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ وَلَا طَلَبْتُ الْفِدَاءَ مِنْ ابْنِ عَمِي أَبَدًا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَبْأَسِي هَذَا الْبَطَانُ خَفِيَّةٌ

أَوْصِيكَ بِالْعَصْرِ الْجَمِيلِ نَلْ ظَنَّهُ خَيْرٌ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا يئأس أبدا من فضله ورعايته ، مع حزة نفس لا تماثلها حزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في خَرْشَنَةِ ، إذ سرعان ما أُنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أَسِرَا فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا مُغِيرَا

وَلَنْ لَقِيتُ الْحَزْنَ فِي لَحْوَكَ قَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور القاتات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأنت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحو بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالي إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تهرم معها نزل بها من كولوث وخطوب .

ورما كان أروع قصائد أبي فراس حيث قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نَهَلُهَا : نشربها تارة . نَحْمُلُهَا : نَحْمِلُهَا : نَحْمِلُهَا : نَحْمِلُهَا

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوارينه وبين إحدى صواحيه .

أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الْعَصِيرُ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيُ عَيْكِ وَلَا أَمْرُ
بَلِ أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدَى لَوْعَةٌ وَلَكِنْ مِثْلِي لَا بُدَّاعَ لَهُ سِرُّ
مُطْلَقِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتِ دُونَهُ إِذَا مَتَّ ظِمَانًا فَلَا تَزُلُ الْقَطَرُ
تَسْأَلُنِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَهِيَ حَلِيمَةٌ وَهَلْ بَقِيَ مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نَكْرُ
قُلْتُ كَمَا شِئْتَ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى تَحِيلُكَ قَالَتْ أَبْهَمُ فَهَمُ كَثُرُ
وَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَى بِكَ الدَّمْرُ بَعْدَنَا قُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلِ أَنْتِ وَالْدَّمْرُ

وهو حوار وغزل فيها فتوة وقوة ، فهو لا ييأس ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستمر في قلبه من لوعة لزامه معلقة بوصل لا يتاله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتساءله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قبيلك ، فتسأله أبهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدمر ، يكفى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدمر . ومعنى في حوارها قاتلا لها : لا تتكرهني يا ابنة العم ظنني غير منكرفي معصان المارك وقيادة الكتاب للمودة النصر واجتحام المخاوف والمخاطر للمهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسئ نساءهم دون أن أهلك لم سزا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصبح بكل فتوته :

أُيِّرْتُ وَمَا صَحْنِي بِعَزْلٍ لَدَى الْوَفَى وَلَا لِمِى مُهْرٌ وَلَا رِيَّةَ غَمْرٍ^(١)
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ بَقِيَّةٍ وَلَا بَحْرُ
يَمْتَوْنَ أَنْ يَخْطُوا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرُ
سَبَدَكُنِي قَوْمِي إِذَا جَدُّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءُ يُقْتَدُ الْبَدْرُ
وَنَحْنُ أَنْاسُ لَا تَوْسَطُ بَيْنَنَا لَنَا الصُّنْدُ دُونَ الْعَلَلِينَ أَوْ الْقَبْرِ
تَهَوُّ حَلِينَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ خَطِبَ الْحَسَاءُ لَمْ يُقِلَّ الْمَهْرُ
أَهْرُ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى ذَوَى الْعَلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التَّرَابِ وَلَا فَرْحُ

يقول : أُيِّرْتُ وعرثي صحبي يشهرون السيوف في الحرب ولا يخذلونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أسرتُ جينا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن التزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَتُّوا عليه بتركه لأبنا لأُمته وعدته الحرية ، وهو استعمار للفتوة والقوة ما بعده استعمار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ ظلما دقَّ نصال سيوفه فى أعضائهم وصدورهم . وبلغت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قواتين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليلذون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسنة لم يظله المهر ولم يعبده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أحر الناس وأعلامهم وأكرمهم بدلا . والقصيدة تعريضة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضيئها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته - وهو فى سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وصمها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتُ بقرى حمامةً أيا جارَنا هل تشعُرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقتُ طارقةَ التوى ولا خَطَرْتُ منك المَهمومُ بيالو^(١)
أُحْمَلُ محزونَ القوادِ قوادِمُ على غُصْنٍ نالى المساقاةِ عالى^(٢)
أيا جارَنا ما أنصفَ الدهرُ يَنا تعالَى أقاسمُك المَهمومُ تعالِ
أيضحك مأسودُ وتبكي طليقةُ ويسكت محزونُ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقلَّةُ ولكنْ دعى فى الحوادثِ غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه وسمع الشجون فى نفسه ، ويُعبد لها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغرفته وهموم كهوموم . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة قوادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينها ويتساءل كيف يضحك أسير قد حرته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويغمرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تقطع دموعه بل تظل منهمة ، غير أن دعى فى الحوادث والنكبات غالى لا يسيل أبدا ، وإنه لينجشم أنقالها ويتحملها فى قرة . وشعر أى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطربا بمناب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُقْرَم الحمية في النفس العربية .

عُرْقلة^(١)

هو حسان بن نعيم الكلبي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فبدأ بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُنُكَيْنِ نصيب كبير من مدحه ، وخاصة أبى آخر حكمهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محبة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعُرْقلة الأحمور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبق بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من اللدائع ، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قاتلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سِنة الإمام يَزِيدٍ
فهو ليس سِنياً ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقلة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخلوه نديما لهم في مجالس لهمم وسهرم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُخفِضه مجالس أنسه . ووصفه المهدي الأصماني حيث قال : « لقيه بدمشق شيخا خليما رُبَّةً ماثلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو للنادمة لطيف النادرة معاشرًا للأمرء ، شاعرا مستعزف المجهاء ، لم يزل خَصِيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادهم ويداعبهم ويطايهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماح نفسه ، وله فيه

والشعرات ٢٢٠/٤ وقد طبع بجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عُرْقلة الدمشقي وشعره الحميدة (قسم الشام ١٧٨/١٤ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

منايح ، ولديه منه منائح . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافته القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فنفضب ، وأنشد ما مر ذكره من قوله :

يقولون : لِمَ أرخصتَ شعرك في الوردى قتلْتُ لهم إزماتَ أهلِ المكارمِ
أجازى على الشَّعرِ الثَّميرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصتَ من بهائمِ

ولاشتر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العاد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير لإضحاك السامع وجلبا لسروره ، كقوله في مثنى ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضربه وتلحينه :

على صَوْتِهِ سَوَّطُ علينا لا على القُرسِ
وجملَةُ ضربه ضربُ للشرعِ وُـسْـرِ
يقول السامعون له رماه الله بالخرسِ
وغلْظُ ياربٍ مهجته إذا غنى : (غلَى نَفْسِي)

فهو لا يحفل صوته يصلك الأسماع فحسب ، بل يحمله يكوها كي السياط للخيال ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيق يضرب به دروها وتروسا لألحانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يحفلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يفتي ، وكان بالصدفة يفتي مقطوعة أولها : « غلَى نَفْسِي » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنه الـ جَدْرٌ لكنْ إذا كُفِنَ
وقوامٌ كأنه الـ خُصْنٌ لكنْ إذا انْقَصَفَ
وبنانٌ كأنه الـ جبر لكنْ إذا تَشَفِ
وأبٌ أكذبُ الأنسا مـ ولكنْ إذا حُفِنَ

وهو في الأبيات الثلاثة الأول يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يحوره بل أن يرده عليه هجاء وإقذاها شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأي خير ،

لما أبوه فكناب أشر. وكان بدمشق في زمته طيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع لىلا فانشتر
جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطيب كثيرا ما يرى من يموت فقال عرقلة متذكرا عليه :

لنا طيبٌ شاعرٌ أَشْتَرُّ أراحنا من شخصه الله
ما عادَ في صُبحَةٍ يومَ فَتَى إلا وفي باقبيه رثاء

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكسب له
قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتنمى الناس الخلاص منه . وكان يُقلع أحيانا في
هجائه ، حتى في الموت . ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسَنَتْ به اليومَ المرائى كما حَسَنَتْ به أمس الأهاجى
ولكن لَجَّ في شَمِّ البرايا وكان القتلُ عاقبة اللجاج

وهي شائعة تدل على أنه كان علوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض الهجان ، يقول فيه إن دنان
الخمر وكثوسها وقبائها المغنيات يكيته بكاء مرا .

أسامة ^(١) بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب
قلعة شيزر إلى الشمال من حماة ومن علمهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد حتى بتعليمه
وتدريته على القروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن
أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فجنى أسامة وأخذ يمدّه
للإمارة بعده . وكان اسم عاد الدين زنكى قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤
فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة
٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعا مستميتا حتى ارتكوا على أعقابهم خاسرين . وعقددار فرحه

والنصر في أخبار البشر لأبي القداء (الطبعة الأولى
القاهرة) ٢٧/٣ و امرأة الجنان ٤٢٨/٦ وشرحات الذهب
٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه للاحتجار (نشر
جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته .
وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن
صاكر ٤٠٠/٢ ومجموع الأدباء ١٨٨/٥ والحرقة (قسم
النظام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزء من الخامس
والسادس في مواضع متفرقة (انظر فهرس) والبدابة
والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والبلوك للمفريزى ١٢٥/١

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى في العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، ففارقوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق وبقية حاكمها معين الدين أُرْمِدِير دولة أولاد طُغْتِكِين لقاء حسنا ، وظل الجوينيها صالبا حتى سنة ٥٣٩ هـ إذ اكْشَهَرُ الجويني ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤ - ٥٤٤ هـ) فأكرمهم وأمر له بإقطاع سنٍّ عاش به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظاهر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سَلَّار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه قتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظاهر فقتلاه . وتطورت الأمور فوَلَّى الفائزين الظاهر الخلافة وهو صبي يجبو في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رُزَيْك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظاهر ، فكتب إلى حَمَلَة الصليب بمِصْلَان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعلمهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فُقتل عباس ، وُردَّ نصر إلى القاهرة ، وُفِرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رُزَيْك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، ونجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْزَر وأُتت عليها ونزع عنها أهلها وتشتتوا في البلاد ، وتعلكتها نور الدين خشية عليها من حَمَلَة الصليب ، ويدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكشُرُ
أيامه مثلُ شهر الصوم طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوَّج الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، ولما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره الحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجودته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَاً بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يمكث على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَّياه مَبْتَهْجَا ، فأعطاه داراً بدمشق وإقطاعاً لمعايشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبَّى نداء ربه عن سنة وتسعين عاماً .

ورب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للفرز وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرّد للجهد باباً وكأنه ترفع عنه إياه واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارساً شجاعاً ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعاً عن مسقط رأسه ، وجبّى في معارك عماد الدين زنكي ضلعم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهراً سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

خَمْسَ عَشْرَةَ نَازَلْتُ الكُفَاةَ إِلَى أَنْ شَيْتُ فِيهَا وَغَيْرَ الْخَيْلِ مَا قَرَحَا^(١)
أَخْرُضَهَا كَشَاهِبَ الْقَنْفِ مَبْتَمَا طَلَّقَ الْهَيَا وَوَجَّهَ الْمَوْتَ قَدْ كَلَحَا^(٢)
بِصَارِمٍ مَنْ رَأَاهُ فِي قَتَامٍ وَغَى أَفْرَى بِهِ الْهَامَ ظَنَ الْبَرْقَ قَدْ لَهَا^(٣)
فَلْ كُفَاةَ الْوَفَى عَنِ لَعَلِّمْ كَمْ كَرْبٍ كَشَفْتُ وَكَمْ ضَيْقٍ يَسَى أَنْفَسَحَا

فهو قد نازل كُفَاةَ الحرب أو شجعانها منذ ستة الخيامسة عشرة ، وظل يتازلم حتى اشتعل رأسه شياً لا يبين ولا يضعف بل تشتت قواه كما تشتت قوى الخيل حين يعلو سنّها وتصبح قارحة مستمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كثر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ لِيَلْمَحُ في غبار الحرب - وهو يحطم به الرؤوس حطاً - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كرامة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انتفح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكُفَاةُ : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره
(٢) طلق الهيا : سبّخر الوجه . كلح : حبس
(٣) قَتَامٍ وَغَى : غار حرب . أفرى الهام : أفض

كم قد أبدتُ بسنى كلِّ مفتخرٍ حمى الحقيقة يومَ الجُفَل اللَّجِبِ^(١)
وكم تركتُ بنى الإفرنج في رُعبٍ نصرتُ أذى لديهم جالبَ الرُعبِ
وكم جررت إليهم جَحْظَلاً لَجِباً بالسَّابِرِيَّةِ وللاذَى والبَلَبِ^(٢)

وهو يقول إنه كثيراً ما قضى قضاء مبرماً على كل شجاع يفخر بشجاعته حامياً حمى أهله يوم
النزال الطاحن . ويقول إنه كثيراً ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزاً -
جالب الرُعب ، وكم قاد إليهم جيوشاً غفيرة شاكبة السلاح تظلمهم وتسفك دماهم . ويقول :

سَلَّ بى كَاةَ الوَفَى في كلِّ معرَكٍ يضيئُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ
يُنْبَشُّوك بَأَى في مضايقتها ثَبْتُ إذا الخوفُ هُرَّ الشاهقُ الراسِ

فهو يحلّى في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الحُلُوم ويرى الكآبة فيها الموت
نصب أعيנם ، فإنه حينئذ يثقل الجهاجم ويثقل الأحقاق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يبرز
الخوف والفرع الجبال الرواسي من الكآبة الثَّاء .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاعراً معدداً لانتصارات البطل على حملة
الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتاً وفيها يقول :

أَيُّ اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الْأَمْرُ لَحْيَا بِنَا الدُّنْيَا وَيَفْتَحِرَ النَّصْرُ
جَعَلْنَا الْجِهَادَ هَمًّا وَاشْتَغَلْنَا وَلَمْ يُلْهِنا عَنْهُ السَّاعُ وَلَا الْحُمُرُ
بِنَا أَيْدِي الْإِسْلَامِ وَازْدَادَ هَزَّةً وَذُلُّ لَنَا مِنْ بَعْدِ عَزَّتِهِ الْكُفْرُ
بِنَا اسْتَرْجَعَ اللَّهُ الْبِلَادَ وَأَمَّنَ الْهَبَادَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للحصن في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من
بلاد الشام وأمين فيها الناس ، ووضَّع للكس أو الضرائب عن التجار واتممت الحياة وازداد
الإسلام هزة . ونور الدين - بلدون ريب - هو الذي هيا لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته
للمنوبة على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليعه لأظفارهم . ويقول لأسامة حين أقصته
سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حمى الحقيقة . حمى الحسى . الجحفل
اللجب : الجهر الكثيف كثير الضجيج
(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسيج . للاذى :
السلح . اللب . الدرس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلايَ والسيون قد أوهنتُ قوايَ عن سعي إلى الحربِ
وكنْتُ إن ثوبَ داعي الرغى لبيثته بالطنن والضرب^(١)
أشقُّ بالسيف دُجى نفعها شقُّ الدباجي مرسلُ الشهبِ^(٢)
أنزلُ الأقران بُريدهمُ من قبل ضرى هامهم رُحبي^(٣)

فقد وهن عظمه وضعفت مته ، ولكن لا تزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته
للشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها بطنن ويضرب يمينا وشمالا يشق
الروس في مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعيهم منه
ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن^(٤) هُتَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن هُتَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل
أجداده الأولون الكوفة ، وتركها أسرته إلى زَرْع في حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده
الأقربين واستقر في دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان حثله جنوى الجامع
الأُموي ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلط إلى شيوخه وفي مقدمتهم الحافظ
أبو القاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو في السادسة عشرة
من عمره . ولا نعرف الأسباب التي جعلته يتجه بشعره في بواكير حياته إلى المهجاء ، ربما كان
عدوانيا بطبعه ، وربما رجح ذلك إلى أنه نشأ في أسرة متواضعة ، وأن أباه لم يشته على حب الخمر
والشعر بالمروءة والكرامة والرغبة في التماسي وطلب المعالي ، وقد صرح بذلك في بعض شعره
قائلا فيه :

وجئني أن أفضلَ الخيرِ والدَّ ضيلُ إذا ما عدَّ أهلُ للتاسبِ

والنجم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي

٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ وطفح الكروب لابن واصل

٢٨٦/٢ والقلرات ١٤/٥ ومقدمة ديوانه لمحققة خليل

مردم (نشر دار صادر بيروت) .

(١) ثوب : دما

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) رعيهم : يهلكهم

(٤) انظر في ابن هُتَيْن وشعره ابن علكان ١٤/٥ ومصنف

الأبداء ٨١/١٩ والهداية والتهابة لابن كثير ١٣/١٣٨

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الحنّا وضیعُ مسامی الخیر جَمُّ المعایبِ
إذا رمتُ أن أسمر صعودًا إلى العلا غدا عِرْقُهُ نحو الدُّنْيَةِ جاذبي

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لفضة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس للعظم منهم وغيره . هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عتيم في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذها هو ووزيره القاضي الفاضل وكتابه عماد الدين الأصماني وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطاننا أصرجُ وكتائبُه ذو عَمَشٍ والوزيرُ مَثَلِيبُ

وكان القاضي الفاضل أحلب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حافظًا بتدبير الدول . وذاعت لابن عتيم في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراس ، وضعَّ الناس من لسانه وبيتانه ، ورفضوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، لفى على وجهه يحوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأفريجان ونحوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكِين (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ) . فوجد عليه ، وقدم إليه مدائح فلقبه لقاء كرمًا ونحفَّ على قلبه فالتحفه نديما ، وأخذ بكث من مدحه وطفكتين بكث من عطائه ، حتى أثرى ، وكثرت يده للمال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عتيم يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يعملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطته ، وهو فيها يهجو بالضحُّ بينا يمدح صه العزيز طختكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يسمَّى بالعزيز لَهُ فَضْلٌ ولا كلُّ بَرِّقٍ سَحْبَةٌ غَدَقَةٌ (١)
بين العزيزين بَوْنٌ في فعالها هناك يُعطى وهذا يأخذ الصدقة

وهو هجاء لاذع للعزیز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طفتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انقضت فيها صداقة بينه وبين شرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء الجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولى على مصر ابنه الكامل وحل دمشق ابنه للعظم عيسى . وحسن ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه للعظم عيسى (٥٩٧ - ٦٢٤ هـ) بملحه ، وقربه منه واتخذ بأخرة من أيامه وزيراً له ، حتى إذا توفى رثاه حاراً . وأبقى له منزله ابنه داود (٦٢٤ - ٦٢٦) ونحله الأشرف موسى فزرم يده واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق بحقق الديوان بتلك الأبواب مستتركاً بما عثر عليه من شعر ابن عنين في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقالة شعراء دمشق بزمته إن لم يكن سابقهم المجلد ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفه - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرموا كان يهجوهم غير مراعٍ فيهم إلا ولاذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعض أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاءه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخوله :

إن سُلطاننا الذي نرجمه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكن قاطعُ للرسم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأُنقله من نشته وضباعه في البلاد وردّه إلى دمشق حينية قلبه ومهوى قواده التي طالما تنفى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاء بالهجاء . وحققاً له فيه مدائح رائحة ، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلام بساحته . وأكرمته المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حقه . جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاء مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عتير **والبها** مذ نوكيا على الناس وكى الخيم من كل مسلم
فوافه باعيسى بمن شئت منها لئيت ولو كنت للشيخ بن جرير
وحقا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يخفيه من نفسه له بأنه لعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا
نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطبة شاعر المهجع القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه
استأثر منه - كما مر بنا - هجاءه لأبيه . وأهلناه طيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - غروقا
مزحيا جدا فكعب إليه أهجة طويلة يقول فيها :

أتاني خروف ما شككت بأنه حليف هوى قد شفه الهجر والغلل
إذا قام في شمس الظهيرة خفته خيالا سرى في ظلمة ماله ظل
فناشدته ما تشهى قال كفت وقاسمته ما شفه قال لي الأكل
وظل يراعيها بعتير ضعيف وينشدها والسمع في الخد منهل
أنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل
واليت الأخير لأحرأى وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الحزوف المزمل نفس
عشقي شفه المهجر والدم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهي صورة بديعة ويستحطه
ما يشهى فيقول كفة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابطة توشك أن تودع الحياة
ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه
فروحه في الحلقوم .

ويصور ابن عتير بخيالا شحيح النفس كان يدهو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا
أن لا تكرر هذه الدهوة أبدا ، ومثت للآلدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عتير
حيث قال :

عهدى به والبد الجنى بكف بها غرب الدامع والأخرى على الكبد
يقول للخيز : لا يعد مذاك ولا أختى عليك الذى أختى على كبد
ولبد آخر نسر لقمان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يتر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لحبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِعَ وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تمجَّب قومٌ لصفعِ الرشيدِ وذلك مازال من دأبه
رحمَتْ انكسارَ قلوبِ الثعالِ وقد دُنسوها بأثوابه
فواقه ما صَفَعوه بها ولكنهم صَفَعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن^(١) النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية وللمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بئس محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره يرى تلك الأيام أسفا محزوناً ، ويقال إنه تَرى بزي الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أديباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منبجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أديبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه الحمي في كتابه : نفحة الرحمة : « أنا لا أجد عبارة تنفي في حقه بالمدح ، فأرسلت البراع وما يأتي به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطن مثل شعره في آذان الزمان ، وساحر إذا أشرت كلماته العقول استغنت عن الككوس والتلمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثانيين ، وشعره استفده في المديح ، ويكثر في مقلعاته من التزل ، وقد يفرغ إلى الفخر بمثل قوله :

وديران ابن النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية .

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الرحمة ٥٠٧/٢ .

ألا إن لي نفسَ الوغورِ وعَفَّةَ الـ
وما كلُّ مَنسُولٍ اللَّيِّ يَسْتَرْزِي
وَأَحْتَمَلُ المَكْرُوهَ مِنْ يَمَلِي
إذا أنا لم أدفع عن النفسِ قَيمَهَا
ولا وَطِئْتُ خَدَّ القِيَايِ رَكَائِي
ولا سَالَ حَزْنٌ بِالطُّيِّ وَسَبَبُهُ
خَلِيجٌ وَقَلْبِي فِي المِهْمَاتِ قَلْبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقورٌ عفيفٌ قلبٌ يحتمل في قوة للأمر ، ولا يستثيره جال المرأة
ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى من ينصرف عنه ،
ولا ينصرف ممن يُعرض عنه من الأوثاء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط
عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تهن قواه فلا تظأ القياي ركائبه ولا يسيل بها حزن من
الأرض ولا مغازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يَادْهَرُ مِثْلِي لَا يُقَلُّ	قَلُّ عَنْ سَنَامِ المَجدِ جَبَّةُ
أَنَا لَا أَبَالِي إِنْ رُمِيَ	تُ وَسَبُّ عِرْضِي مَنْ أَسْبَةُ
العَيْنُ بِدَمِيهَا اللَّبَا	بُ وَيُعْجِزُ الآسَادُ دَبَّهُ
وَالشُّبْرُ يَحْلُوهُ الشُّرَا	بُ وَفَضْلُهُ بَاقِي وَلَهُ
تَكْفِي قَتَى العِرْفَانِ عِ	مَلَانَا فَضَائِلُهُ وَكُنْبَةُ
وَارْقُبْ خُفُوقِي إِنْ سَكَدَ	تُ فَعَاصِي يُرْجَى مَهَبُهُ
وَالْبَدْرُ بِشَرْقِ فِي المَطَا	لَع بَعْدَ مَا أَخْفَاهُ غَرَبُهُ
وَالرَّوْضُ يَنْذِلُ ثَمَّ تُكْدُ	سَى الثَّوَرِ وَالْأَوْرَاقُ قُصْبُهُ

وهو يقول للدهر إن شئت لا يستطيع أن يزهزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ،
ولا يهيمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يغميها الذباب وحتى
الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يطويه الغراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله
ومعارفه ، ويقول لحصمه : ترقب حركتي ، فلاي كماصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ،
وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تنزل

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله ؟ والحمدُ يَا بَاهُ فَيُ وَالْحَسْبُ
والشمسُ صَوْنًا لَصُوءِ طَلْعَتِهَا قَبْلَ لِحَاقِ الظَّلامِ تَحْتَجِبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آياته وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصاله الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها تحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرى الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثي والشكوى

المراثى قديمة في الشام منذ عصر بني أمية قلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه ، ويحتل المراثى بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحرى النجى الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا في شعره . ونلتقى في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات يكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفجيئته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن ينزف الدموع الحارة . وله مريئة بديعة في أخت له يقول فيها ^(١) :

أترعم أنك خِذْنُ الوفاء	وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حجب
فإن كنت تصدقُ فما تقول	فمَنْ قَبْلَ موتك مَع من تُحِبُّ
وكنْتُ أَقْبَلُ إلى أَنَّ رَمْتُكَ	يَدُ النُّعْمِ من حيث لا أَحْسِبُ
فلا سلمت مقلَّة لم تُسْحُ	ولا بقيت لِمَنْ لم تُشِبْ
ولو رُدُّ بالزُّرْءِ ما تستحقُّ	لما كان لي في حياتي أرب

وهو يمتنى لو غُيبَ الترابَ مع شقيقته وصِرَ روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابها في الصميم تحت بصره ، ولم بعد يملك لها إلا دموعا منهمة ويمنى أن لا يتوقف انبهارها ، لعلها تشق غلة نفسه وحرقة قواده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأى العلاء مرثية رائحة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بداهية أصمت أذنه وصكت سمعه ، ويأسى أن تتخذه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم تواجذ أضراره فضلا عن مقادير أسانه ، وينشد ^(١) :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصْرُغَ الشُّهْبَ شَيْئًا قَالِسَ قَبْرَهَا سِنَطَى نِظَامِ
مَضَى وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَنَّى رَضِيعٌ مَا بَلَفْتُ مَدَى الْفِطَامِ
فِيَارْكَبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ بَلَغَ رَوْحَهَا نَزَجَ السَّلَامِ
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافِرُ مِنْهُ بِمَثَلِ الْيَسْكَ مَفْضُوضِ الْخَتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء ترين جَدَّتْهَا الطاهر ، ويحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فضكه عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال بشر كانه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا يتشترأ ربحه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له ^(٢) :

يَرْغَى أَنْ أَحْنَفَ فِيكَ دَهْرًا قَلِيلًا فِكْرُهُ بِمِصْنَفِهِ
وَأَنْ أَرْغَى النُّجُومَ وَلَسْتَ فِيهَا وَأَنْ أَطَأَ التُّرَابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ويقول الباخريزي تطبيقا على اليتيم : هـ هذا أرق ما يكون في المراتي ، إذ يكاد يفجر حيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار .

وتتشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبن أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقطه الصليبيون ، ويكيه ابن الحباط شاعر دمشق بمثل قوله^(١) :

بِالْجُرْجَالِ لِنَازِلِي لَمْ يُحْتَسَبْ وَلِحَادِثِ مَاكَانَ بِالْمَتَوَقَّعِ
تَاقَهُ مَا جَارَ الزَّمَانَ وَلَا اعْتَدَى بِأَشَدُّ مِنْ هَذَا الْمَصَابِ وَأَوْجَعِ
بِاقُولِ قَوْلَةٍ مُكَمَّدٍ مُسْتَتِيرٍ مَا الشُّنُونُ لَهُ وَنَارَ الْأَضْلَعِ
أَشْكُو إِلَى الْأَيَّامِ فَبِكَ رَزَيْتَنِي لَوْ نَسِعَ الْأَيَّامُ شَكْوَى مَوْجَعِ
صُلَّ بَعْدَهَا بِادْهَرِ أَوْ فَاسْتَكْتَفَ وَخُذْ مَنْ شَتَّ بِاصْرَفِ الْمَنَةِ أَوْدَعِ

وهي مرثية رائعة تملأه أبيات تصور لوحات الدمشقيين في هذا البطل وكارنتهم وفجيتهم التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه ، وليترنل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فمن يصيبهم مثلها فاجعة أوكارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ فاهترت الشام لفقدته هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصمباني في إحدى مرثياته^(٢) :

بِمَا مَلَكْنَا أَيَّامَهُ لَمْ نَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخْرَهُ
غَاصَتْ بِجَارِ الْجُودِ مَذْغِيَتْ أَنْ مَلَكْتُ الْفَائِضَةَ الزَّاحِرَهُ
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا وَسَرَتْ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَةَ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فوجحاته ، وقد أزعج الصليبيين عن صدر الشام والفتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقبعتهم عماد الدين الأصمباني ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول^(٣) :

أَبْنِ الَّذِي شَرَّفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ

(١) ديوان ابن الحباط ص ٢١٣ والخرميدة بداية

بالقاهرة ٢٢٨/١ .

شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين

٢١٥/٢ وفتحهم الزاهرة ٦٠/٦

(٣) الروضتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلُّ العالمين مماته
لو كان في عصر النبي ﷺ في ذكره من ذكره آياته
باراعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رُعاؤه
فضل صلاح الدين يوسف دائما رضوان رب العرش بل صلواته

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام
ومصر ، حماية جعلته في الفروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عثره من المدارس والمساجد في
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دوله الواسعة لم يخلف ملكا
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولة أحنى لها حملة الصليب رموسهم .
ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصرى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣
للهجرة^(١) :

قاضى القضاة ومن حوى ربيا سمته عن أن تُسام سنا ويزت من سعى
شيخ الشيوخ العارفين ومن رقى ربب السلوك تعبدا وتورعا
حاوى العلوم بما تفرق في الورى إلا الذى منها إليه مجمعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم والشرعة والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان
يجمع بين الحسين : للمعرفة بالمتقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحنفى الحلبي المتوفى سنة
١٠٥٩ في رثاء أخيه^(٢) :

رزة ألم وحسرة تستوالى ومصيبة قد جذت الأمالا
وفراق الفراق إن أردت نصبرا عنه أردت من الزمان محالا
كنا كمنصنى دوح قطع الردى منها الأغصن الأرطب الميالا
أو كاليدى لذات شخصي واحد كان الهجين لها وكنت شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والملوحين والناس مشلودا في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

يلجئون عليه نوابث الدهر وتغافل للملوحين ويؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملاّ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس ^(١) :

أراني وقومي قَرَفْنَا مذاهبُ وإن جَمَعْنَا في الأصولِ النَّاسِبُ
فأَقْصَاهُمْ أَقْصَاهُمْ من مَسَاقٍ وأَقْرَبَهُمْ مِمَّا كَرِهْتُ الْأَقَارِبُ
غَرِيبُ وأهل حَيْثَا كَرُّ نَظَرِي وَحِيدٌ وَحَوْلِي من رَجَالِي عَصَابُ
وأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ يُقَاتِلُونَهَا وَأَهْوَنُ من عَادِيهِ مَنْ تَحَارِبُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يجيئون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يحظه يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصباته ، وبهوله ذلك ويقلقه ويفزع . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أهدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تماكنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محرس منه دائما متى شره وخيانه وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله ^(٢) :

يَا دَهْرُ يَا مَنْجَزَ إِيْعَادِهِ وَخَلْفَ الْمَأْمُولِ من وَغْدِهِ
أَيُّ جَدِيدٍ لَكَ لَمْ تَبْلِهِ وَأَيُّ أَفْرَانِكَ لَمْ تُرْدِهِ
تَسْتَأْثِرُ الْعِيقَانَ في جَوْهَا وَتُتَرَّلُ الْأَعْصَمَ من فِتْنِهِ ^(٣)
إِنْ زَمَانِي يَرْزَايَاهُ لِي صَبْرِي أَمْرَحُ في قِدْوِهِ ^(٤)
أَفْضَلُ مَا فِي النَّفْسِ يَتَّخِذُهَا فَتَسْتَعِيدُ أَهْلَهُ من جُنْدِهِ
وَرَبُّ ظَمَانٍ إِلَى مَرْدِهِ وَلِلْمَوْتِ لَوْ يَعْطَمُ في وَرْدِهِ

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويخلف دائما

(٣) الأعمى : القوم . القند : لغة الجبل
(٤) القند : ما ينفذ من الجلد ويُشد به الأسير

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

الوعد بالخيرات والطيّات ، وإنه لبأني دائما على كل جديد وكل قرْن يدعى أنه بمائله في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والمُصم أو الرعول في أطلال الجبال ، فلا أحد ينجو من صوته . ويقول إنه ألف زبابة ونكباته حتى صارت قيدا أو قيدا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحيا ويمرح فيها . ويحجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرها يقتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تستقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعبد من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ ^(١) :

حزرتي تجاري صحبة العا لم حتى كرهت صحبة ظلي
ليس فيهم خيل إذا ناب خطب قلّ مالي لدغته غير خيلي
كلهم يبدل الوداد لدى البئس ولكنهم جدي للمقل
فاحتزلهم في انفراذك منهم راحة البأس من جدار وذلك

وقد بلغ أسامة من ابتلاله للناس واختبارهم أن أصبح بمقتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما في الناس من علم الوفاء وخيانة الصبغة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسفك ولم يساعلك ، إنما يعرفك في البئس ، أما في العسر فلا يوثك ولا يعرف لك طولا ولا فضلا ولا يسد لك ثلثة ولا يقدم لك عونا ، فاحتزل الناس وأبأس من أن يرقوا لك معروفا أو جميلا تقيس أمنا عزيزا . ويقول ابن حنّين في التشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا مهزونا لغربة وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طوف في العراق ولبيران وخراسان والهند واليمن ^(٢) :

فسي دمشق ووايتها والحبي متواصل الإرعاد متفصم الرى
فارقتها لا عن رضى وهجرتها لا عن قلى ورحلت لا متحيرا
أستى لرزقي في البلاد مشئت ومن المجانب أن يكون مقرا
لا جيشي تصفو ولا رسم الهوى يفتو ولا جفتي يصاصه الكرى

فهو يدعو للمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

أو الإمطار ، منضم المَرَى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقه قسرا ، وهو إنما فارقه
لمجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسمى لرزقه فكان لا يصيب منه
إلا الكفاف وإلا ما يسد رمقه ، فرزه دائما مقتر أو قليل ، وعيشته دائما نكدية ، وهواه معلق دائما
بدمشق ودائما مسهد لا يلم بخفونه الكرى أو النوم لما ملكته عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما يتزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحتنون إلى الشام
وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عبرتهم لا تكتحل بمنابر وطنهم ومشاهد
الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حجة الحموى صاحب خزانة
الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان الممرد وولى عدة وظائف لمعهده ، ويقول
مشوقا إلى بلدته حاة شاكيا غرته وطول فراقه لأهله^(١) :

ياساكفى حَقَى حَاةً وَحَقَّكُمْ من بعدكم ما ذقتُ عيشًا طَيِّبًا
أَرْضُ رَضَعْتُ بِهَا تُدِي شَيْبِي ومزجت للثاني بكاسات الصبا
وقد التفتُ إليك يادهرى بطر ل تعنى ونحى لى أن أختبا
قَرَرْتُ لى طولَ الشتات وظيفةً وجعلت دعى فى المندود مرثبا

وهو يشكو من غرته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أجيائه فى حاة مسقط رأسه ، ويعاتب
الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول نشته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليكيها بدموع غزار .
ولذلك عاد إلى حاة بمجرد أن توفى السلطان الممرد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام
الممانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا^(٢) :

قد صرتُ أحتز الأناَمَ وَغَدَرَهُم إن الطيبَ يخاف من الداء
وقطعتُ باليأس الرجاءَ لَدَيْهِمْ واليأسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ رَجَاءٍ
ولطالما أَصْغَيْتُ قَلْبَكَ خَلْقِي من لا أراه موافقا لإخاى
وبلوت منه وَدَّهَ فَرَأَيْتُهُ متلُونًا كمثلُون الحيزياء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فينس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاة ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت نجرته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحرياء ، إذ تلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فأتخذ منها مثلا لتونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

ابن سنان ^(١) الخفاجى

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان بتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولا نعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بحث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هنا كتابى عن كمال سلامة عندي وحالو شرَّحها فى الجملة
هم وإقارَّ وعمرُ ذاهبٌ وفراقُ أوطانٍ ويُبْعُدُ أجيَّة

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته خليفيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه عزازة فقال : لا أجِدُ لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّبَ الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يجضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يجلوه . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحس بالموت أنشد .

خَفَّ مَنْ أَمِنْتُ وَلَا تَرَكْنِي إِلَى أَحَدٍ فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ نَجْرِ بِي

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتها البلاغة : تطهير وتاريخ (طبع دار المطبوعات ص. ١٥٢ . ومجموعه مطبوع بالمطبعة الأنسية بيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزء من الأول والثاني (انظر القهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم

وكان متفقا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتحه بمرثية في الكاتب على بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

ومعذلو جاري على غلوائه يروى حديث نداء عن أعدائه
عجلت عليه يد الحمام وهو ريان من خمر الشباب ومائه
عجبا لحذو السيف كيف أصابه ومضاؤه في الرزوع دون مضائه
ولصعب ملأ الزمان هديره قاده بعد شياه وإيائه
إن يرفعه قد غترا بعلاته أو يشهروه قد كفوا بشائه

وابن سنان يؤمن صديقه تأييدا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نصرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القيادة يلهو هدير الفحول ويزار زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفضوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في الساكنين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيها الظاعنون لازال للغيث رواح عليكم وبكود
لست أرضى باللمع فيكم فهل يمد لك ربي البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها أثر من عفتكم مهجور
عرصات كأنهن لبالو فارقتها عند الكمال البور
بان ذل الأسي عليها فلقيتك بكاء وللنسيم زفير
يا نعيم الملا غرثتم وما في الله سبل من بعدكم نعيم تغور

وهو يدعو لأجدانهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حري أن تروى البحور من فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مر بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصات وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسي والحزن عليها

والسحب نبكى بسمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها
في الليل نجوم تنور في سماء المجد والعلاء . وقال يرى والدته حين توفيت بعد قدموها من حج بيت
الله :

أبكبك لو نهضت بحقك أدمعُ وأقول لو أن النواكبَ تسمعُ
لا يُبطلنَّ على البقاء مرزاً إن المودعَ السفسَ لمودعُ
قُبحا ليوملكو قالنواكبُ بعده جَلَلُ وكلُّ رزِيَّةٍ لا تَجْبَعُ^(١)
لو كان ينفعني السلو نبلته أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع
عجبا لمن يئى ذخائر ماله وبطلُ يحفظهن وهو مضجعُ
ولغاغلٍ ويرى بكلُّ نَيْبَةٍ مُلقى له بطن الصفايح مضجعُ^(٢)
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دينة أها تضيقُ بين أو تصدعُ

وهو يقول إن أى دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاسمعه النواكب ، ويقول إن
أحدًا لا يُبطلُ على بقائه ، لما تلبث رعى الموت أن تطعن الباقيين المودعين . وما أقيح اليوم الذى
سمع فيه رزه أمه . فالنواكب بعده صغيرة والرزايا لا تفجسه ، ولو ينفعه (السلولسلا) ، ولكنه لا ينفع
أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وما قليل يضيع ، وللغاغل عن الموت وفى كل حطفة بطريق من
طرقه مضجع معد له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع
وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغزى^(٣)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزى ، ولد بقرّة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ
وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من
شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح وروى غير مدرس ،
ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بها جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول الهاد الأصبهاني فى
الحريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتظفل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

صفحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الحريدة (قسم الشام) ٣/١

وما بعدها وابن خطكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

(١) جل : بأن بمعنى عظيم ومعنى صغير حقير

فالفظة من ألقاظ الأضداد .

(٢) التبة : الطريق والمطعة فيه . الصفائح جمع

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمَان ، وعاد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متقلبا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، ويث في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربة وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الأجواد للمؤمنين قلوا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلتَ ضرورةً بابُ الدواهي والبواهي مُطْلَقُ
خَلَّتِ الديارُ فلا كريمٌ يَرْتَجِي منه الثَّوَالُ ولا مَلِيحٌ يُعَشِّقُ
ومن المعائب أنه لا يَشْتَرِي ويُبْخَنُ فيه - مع الكساد - وَيُسْرِقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى وما يميزُ من المعاني الغرَّ معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه اللحن ، ويودعه اللفظ إبداع الدرِّ الصدف ، والبدر السُدف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أعيها ليرأ الناسُ من لومي ومن مَحَلِّي
كالثَّمع ييكي ولا يَنْزِي أُعْبِرُهُ من صحبة النار أم من فُرقة الصلِّ

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطوبا دون خطب ولا أن يطلل لخطب دون خطب ، فثله كالشمع لا يُعرف هل ييكي من فرقة الرِّيح أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطِيقُهُ كما حمل العظمُ الكسيرُ العصابا
وليل رجونا أن يَدِبُ عِذارُهُ لما اختطَّ حتى صار بالفجر شابا
فلا نحمد الأيامَ فيما نُفَيْدُهُ فما كان منها كاسيا كان ساليا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كبير شُدَّت عليه العصاب وهو يتصور ألما ، ويصور قصر الليل لما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لا نحمد الأيام فيما نحملة إليك من نفع فلانها تنفث فيه سموما ، وكل مائظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعْرِى حرمانا وإبتاسا . ويقول :

الحظ من جَوَهَرَ الأشياء سَلَهُ ولا نَسأل من الله قَدًا زَانَهُ الهَيْفُ
فالقوسُ في قَبْضَةِ الرامي لَعْنَتَا والسهم من هُونِهِ يُرْمَى به الهدفُ
لم يَتَّقِ لى زَمَنِ شَيْئًا أَسْرَ بِهِ فالحمد لله لا فَوْزَ ولا أَسَفُ
عَرَى أَكَابِرِهِ من ثوبِ مَحْمُودَةٍ فالقومُ في السابِغَةِ اللَّبَسُ الكُثْفُ
لم يَتَّقُوا بِحِجَابِ البُخْلِ فَاحْتَجَبُوا كما غَلَا بعد سَوَةِ الكِيلَةِ الحَشْفُ
وإن جَرَى غَلَطٌ منهم بِمَكْرَمَةٍ فَيَنْصَةُ العُقْرِ لا يُرْجَى لها خَلْفُ
أعجبَ بهم قَطُّ في الآراء ما اتَّفَقُوا على صوابٍ وفي التقصير ما اختلفُوا

فهو يشكو حظه التمس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالخط مدار الحياة وقطبا ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه السهام المينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتمس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرى أكابره من ثياب الماحد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدي ، وكأنما لم يكنهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردته وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك يفضة العقر التي لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون في الرأي على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ النَّاسُ حَتَّى لو بَكِينَا تَعَلَّرَ ما تَبَلُّرُ به الجُفُونُ
فَا يَنْدَى لِمَدُوحِ بَنَانٍ وَلَا يَنْدَى لِمَهْجُورِ جَبِينِ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبل جفونهم ، إذ لم يعد هناك مدوح يندى بنانه ، ويغدى على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجور يجبل يندى جبينه خجلا وكسفا . ويقول :

حبلُ اللَّيْلِ مثْلُ حبلِ الشَّمْسِ متصلا يَرَى وإن كان عند اللَّمْسِ مَبْتوتا

فَلَا تَقُلْ لَيْتَ صَرَفَ الدَّمْرِ سَاعِدَتِي فَإِنْ فِي لَيْتٍ أَوْمًا يَقْطَعُ اللَّيْتُ^(١)

والصورة في البيت الأول بديعة ، فجعل المتي كجبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدمر ساعدتي فإن في لبت أوما أو عطشا شديدا دون ربه انبتات الليت أو صفحة العتق . فدع للمتي والمعنى فإنها بتعبان ولا بشران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكبات العالم .

فتيان^(٢) الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صيدا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكب - مثل لداته - على دروس الشيخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويديرهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له للجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم يبيحش المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضل مودود بن المتهارك - وهو أخو عز الدين فرخشاه ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بهارة أخرى ضابطا لشئوننا ومصرفا لها . ولتلق فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجوه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

٢٧٤/٦ ومطالع البدر للزبول ٢٨/١ والشلرات

٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندی وتقديمه .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللَّيْت : صفحة العتق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة (قسم

الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

وكان قتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاهما له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعريفة . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صلي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه للمعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حمة تقي الدين عمر (٥٧٤ - ٥٨٧ هـ) أعطاهما له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بطلب قرغوشاه (٥٧٥ - ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ - ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا التحوّل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مرثي لمن لى نداء ربه من مملوحه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وطلابه الأعلام . ومن أروع مرثياته مرثيته لشيخه المحافظ المتورخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ووفاته ، وفيها يقول :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْعُلَمَاءِ	أَيُّ نَجْمٍ هَوَى مِنَ الْعُلَمَاءِ
إِنَّ رُزْءَ الْإِسْلَامِ بِالْحَافِظِ الْعَا	لَمْ أُنْسِ مِنْ أَكْثَمِ الْأَرْزَاءِ
أَقْفَرْتُ بَعْدَهُ رَبْعُ الْأَحَادِبِ	سِ وَأَقْوَتْ مَعَالِمُ الْأَنْبَاءِ
كَانَ مِنْ أَكْثَمِ الْأَنَامِ بِأَسْمَا	رَجَالَ الْحَلِيبِ وَالْعُلَمَاءِ
كَانَ عَلَامَةً وَنَسَابَةً لَمْ	يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَنْتَ أَهْلٌ مِنْ أَنْ تُعَدَّ بِوصْفِ	بِلِسْنَتِهِ بِلَاغَةُ الْبَلَفْسَاءِ

وقتيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيرة دمشق في محدثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يبارى . وهو في البيت الثاني بصور في ألم إقْفَار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقْفَار أو إقْفَار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوي ورجاله وتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمانه وإجلالهم .
 ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولي
 القضاء له ماد الدين زنكي في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق
 وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم
 يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثل
 وهون من أوجها شمسُ المعالي
 ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا
 بعد أن كان جريئًا في المقال
 وسماه الدين قد ران على
 بدرها الثَّقْصَانُ من بعد الكمال
 والقضايا قاضياتٌ نَحَبُها
 إثرُهُ حَزَنًا على تلك الحلالِ
 ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا
 وثالًا مُحَبِّيًا أَيْ ثَمَالًا^(١)

وهو يكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه
 والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة يجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مددرا ، كما كان
 مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمالا وسندا لهم وموثلا . ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حياة
 فيؤنه بمرثية يقول فيها :

أَبَاحَ ثَغْوَرَ الكَفْرِ بالسيف عَتَوَهُ
 وسدَّ ثغور السُّلْمِ بالطَّنِّ في الثَّقَرِ
 وكيف يُلامُ المسلمون على الأسي
 وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرَ
 لقد كَانَ يَلْقَى المُرْهَفَاتِ بوجهِهِ
 وسَمَرَ القَتَا بالصُّنْدَرِ في الرُّودِ والصُّنْدَرِ^(٢)
 وكان يَرُدُّ الجَحْظَلِ المَجْرَ وحده
 يَمْسُونُ بالأَيْدِي الظُّهُورَ من الخَوَرِ^(٣)

وهو يشيد بيسائه في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا
 من أبطالهم طالما دُوح الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما مَرُوضَا
 وجهه للسيوف وصلره للرماح ، وكم ردَّ من جحافلهم الكثيرة ولولا أديارهم فزعين مرعوبين .
 ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤنه بمثل قوله :
 لَنْ كَانَ خَلَقْتُ الخَلْقَ من طِينِ آدَمِ
 لَنْ نَوَدَّ خَلَقِي اللهَ خَلَقَكَ يا غَازِي

لَمَنْ لِلْبَاسِ وَالْأَرَامِلِ بَعْدَهُ يَقُومُ بِالْكَرَامِ عَلَيْهِمْ وَإِعْزَازِ
مَضَى مُلْكُهُ الْمُرُوسُ مِنْ عِيبِ عَائِبٍ وَمَنْ حَبَسَ الرِّازِيَّ وَمَنْ عَنَتِ الرِّازِيَّ

وكان الغازي مهيباً حازماً راعياً لشعبه يكسو العاري ويطعم الجائع على اللمعة حسن التدبير
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشراء ، فحسب ملكه - كما يقول فتيان - من عيب
العائب وزداية للزري وعنت الرازي أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مرثية شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ للمقوم كقوله :

عَلامُ نَحْرُكِي وَالْحُظُّ سَاكِنٌ وَمَانِهْتُ فِي طَلَبِ وَلَكِنْ
أَرَى نَذْلًا تَقْلَعُهُ الْمَسَاوِي عَلَى حُرٍّ تَوَخَّرُهُ الْمَاسِينُ

وهي شكوى قديمة عند الشراء حين يقعد بهم الحظ ولا يتلون مايسنون أو ما يرون أنهم
جديرون به . ويلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لاقائنة في الحركة وأن للمساوي تقدم
أصحابها بينما تتأخر الحسن بأهلها وهو بعد في الشكوى وإغراق في التشاؤم .

مصطفى^(١) الباي

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - الباي ، ولد بالباب إحدى قرى حلب في القرن
الحادي عشر الهجري أيام العثانيين ، ونشأ بحلب وتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إسطنبول وأقام من
علمائها وحين قاضيا لطرابلس وتقل قاضيا في بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز في المدينة
للنورة ، وتوفي بمكة في أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان الباي شاعرا مجيدا ، وبشغل المديح أكثر ذبوانه على عادة الشراء في تلك الحقب ،
ويتخلل المديح أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من
قصيدة استلها محزوننا لتحول عهدة ، ويقول إنه مازال يبكي الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا
عليه ، ويلغضت إلى الدهر شاكبا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجوزي وضعه الله بن
النحاس باسم الطود العربية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر في مصطفى الباي وشعره نفحة الرحمة
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه في بيروت

أَيُّ ذَنْبٍ نَعَاتِبُ الدَّهْرَ فِيهِ وَعَتَابُ الْأَيَّامِ دَاءٌ غَضَالُ
 أَنَا مَا بَيْنَ فَرْقَةٍ تَجْمَعُ السُّفْهَ وَتُعْلِي تَدْنُو بِهِ الْآجَالُ
 وَخُطُوبٍ أَلْفَتْهَا يَسْتَعِذُّ الدَّ خَوْفٌ مِنْهَا وَتُذَكِّرُ الْأَهْوَالُ
 وَأَمَانِي تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذِكْلٌ الدَّ حَظٌّ وَالدَّهْرُ جَاذِبٌ جَدَالُ
 هِمَّةٌ أَرَقْتُ جَفُونَ الْأَمَانِي بِوَعْدٍ لِلدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ
 أُنْتَمَى مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءٌ وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مَحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدري لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة
 الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعذ الخوف من شرها وتفرغ الأهوال . وتلك أمانيه ما تزال
 تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من تنازعه ،
 وفي صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود ما يزال الدهر لا يلقى بها ، وكان وفاءه
 أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي ابْنِيَا لَنَا خَارِجَ الْعَالَمِ دَارًا فَبَيْسَ دَارُ الرِّجَامِ
 وَاصْطَفَانِي أَلَسْنَا بَيْنَ لَيْلٍ وَنَهَارٍ مَالٍ حَلِيفُ ظِلَامِ
 وَاسْتَمِرَّا لِمَقْلَقِي هَجْمَةً عَمَّ سَلُّ مَنَامِي يَعُودُ لَوْ فِي مَتَامِ
 مِنْ أُمُودٍ تَقْذِي الْعَيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخْرِ السَّهَامِ
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَذَى سَوْغَتِهِ الْفُ هَذِي النَّفُوسُ لِلْأَجْسَامِ
 مَنْ أَرَادَ الْعَيْشَ الْهَنِيءَ فَلَا يُعَدُّ سَلُّ فِكْرٍ قَالَتِشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ،
 ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنها يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا يتنام ولا تنفل
 عينه ، فهل يجد هجمة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والنمام ، وهيات فإن الدنيا مليئة بما
 يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكانها مورد من غسلى أوزقوم ، وكل ذلك بسبب
 الأجسام وما تتطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش
 الجهال ومن بشيون السوام الراجعة من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه
 مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجبلانية
 فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوصلات ربانية .

شعراء الطبيعة وبها نلّس اللّهُ

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة يثمنهم ومشاهدها الخلابيّة ، ومرت في كتاب العصر العباسيّ الأول عناية أُنّى تمام بوصف الطبيعة في مقلّعات مديحه أو مستقلّة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفه للطير وأحاسبه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمريّ وقرينيّ يساقيان رحيق الهوى ، بينا هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسيّ الثاني عند براعة البحريّ في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وتلقّى في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سمّاه المصايد وللطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

هَيْثُ أَنَا مُؤَذِّنٌ بِخَفْضِ	مَنْصُلُ الرِّبْلِ حَيْثُ الرُّكْضِ
يَضْحَكُ فِي بَرْقِ خَفِيٍّ الْوَمْضِ	كَالْكَفِّ فِي انْبِساطِهَا وَالْقَبْضِ
وَالْأَرْضُ تُجَلِّيُ بِالنَّبَاتِ النَّضْ	فِي حَلْبِهَا الْمَحْمَرُّ وَالْمِيبَضُ
وَأَقْصَوَانِ كَاللَّجَيْنِ مَخْضِ	وَنَرْجِسِ ذَاكِي النِّسَمِ بَغْضِ
مِثْلَ الْعَبُونِ رُنْفَتُ لِلْعُنْضِ	تَرْنُو وَيَغْشَاهَا الْكَرَى قُضْضِ

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ما تنقبض ، والأرض كأنها في خلل عرس تجلّ بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والزرجس المطر النضر مثل العيون تكسر جفونها للنوم ، وهي تارة ترنو وتارة تسلم للنوم تخفض أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح ^(١) :

لَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارًا	عَلِ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا قَوْسُ النَّهَامِ بِأَصْفَرِ	عَلِ أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحْتَ مَيْضَرِ

كَأَذْيَالِ خَرْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَاتِلِ مَصْبِغَةٍ وَابْهَضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

يقول : رباح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكتاء مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح بطرؤها بألوانه البهجة الكهرمانية والياوية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غلالات أوثاب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهي صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الحريرة^(١) :

الشام شامةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانٌ مَقْلَتَا الْفَضِيضَةِ جُلْتُ
مِنْ آيِهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمِنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تَحْرِقُ
فُلَامُ نَصَحُوا وَالْحَامُ كَأَنَّهَا سَكْرَى تَغْنَى تَارَةً وَتَصْفَى
وَتَلُومُ فِي حُبِّ الدَّيَارِ جِهَالَةً هِيَاثَ يَسْلُوها قَوَادُ شَيْقُ

وهو يعمل الشام خالافي وجنة الدنيا ويحمل جُلْتُ اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الفضضة التي ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تختر بجمالها أحاسيس مشاهدتها ، فلا يصحو ، والحام من حوله فرح ببيع بغى ويصفق طربا . وإن الشام حليفة بحب أهلها وختهم بها لجمال مناظرها الطيبة .

ويقول فيان الشاغوري في وصف قرية الزيداني بشهر كانون شتاء والثلوج تراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهية لازدهار أزهارها في زمن الربيع^(٢) :

قَدْ أَجْمَدَ الْخَمَرِ كَانُونٌ بِكُلِّ قَدَحٍ وَأَخْمَدَ الْجَمَرِ فِي الْكَانُونِ حِينَ قَدَحُ
بِاجَنَّةِ الزَّيْدَانِي أَنْتَ مَفْصَرَةٌ عَنْ وَجْهِ حُسْنٍ إِذَا وَجَّهَ الزَّمَانُ كَلْعُ
فَالْتَلَجَ قَطُنٌ عَلَيْكَ السُّحْبُ تَنْدِيهِ وَالْجَوِ يَخْلُجُهُ وَالْقَوْسُ قَوْسُ قَزَحُ

وقد صور فيان كل ما يحمل ماء في الزيداني بأقداح تحمل خمرها ، وقد جمدها القر الشديد وأحمد الجمر في الكانون أو الموقد حين أُنْقِد . ويتصور قرية الزيداني جنة من جنان الدنيا ، وما يلبث أن يصور الثلج وهو ينساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يخلجه . صورة بديعة .

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين يعلبك^(١) :
 يا حادى الأظعان إن شارفت من بعلبك سفع كبنائه
 فافرقا نحياني على نازلو في مخجير العين كلنسانه
 والروض يهدى مع نسيم الصبا نشر خزاماه وربحاناه
 وراسل القسرى ورقاعه شتوا على أوتار عياداه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبه ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمري للفرم على عيدان الأشجار يرسل صاحبه شتوا وغناه على أوتار تلك العبدان . وتكرر مثل هذه الطوائف التصويرية عند معاصريه في زمن المالك ، وبعضهم في زمن العثانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع^(٢) :

نثر الربيع ذخائر الدُّ سوار من جيب القوادى
 والورد مخضوب البنا في مضرج الوجات نادى
 حرسه شوكة حسنه من أن تمتد له الأيادى
 والمندليب أمامه ينصيح نغمته بنادى
 من رام يعبث بالحدود د فدونها خرط القتاد^(٣)

والصور في الأيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من جيب السحب الفوادى والورد أحمر البنان والوجات تلمع عليه لآلى الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والمندليب ينادى : دون هذه الوجات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشىء لا يتأل إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالزلز ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لآلى الرقعمق^(٤) الأنطاكى شاعر للمزغلاطى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

(١) خزانة الأدب للحصى ص ٣٤٢

إلا بمشقة شديدة.

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الربيعان ٥١٢/٢

(٤) انظر في أبي الرقعمق البيعة ٣٣٦/١ وابن خلكان

١٣٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشفرات ١٥٥/٣ .

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشىء لا يتأل

لا يستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن المراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله ^(١) :

تَوَقَّعْتُ أَمْرًا فَلَمْ أَنْبِ بِحَرْفٍ وَنَادَيْتُ بِأَلَاكُوسٍ
حُمَيَّا كَأَن سَنَا نَوْرَهَا سَنَا بَارِقٍ لَاحٍ فِي الْجِنْدُسِ ^(٢)
يُعَاطِبُكَهَا رَشَاءَ طَرَفُهُ سَرِيعُ إِلَى تَلْفِ الْأَنْفُسِ
يَخْدُ بِرَوْقِكَ تَوْرِيدُهُ وَعَيْنُ تَنْوُبُ عَنِ الثَّرَجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينس بينت شفة أو كلمة وانصرف إلى الحمر معشوقته التي تلب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها يرق لمع في دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورِدٍ وعين فاتنة .
ويقول الغزى الذي مرت ترجمته ^(٣) :

قُمْ نَفْتَرِغْهَا كَأَنَّهَا الذَّهَبُ بِكْرًا ، أَبُوهَا وَأُمُّهَا الْعِيبُ
أَرْقَ مِنْ عِبْرَةِ الْيَتِيمِ وَمِنْ عِبَارَةِ الْعُيبِ قَلْبُهُ وَصِيبُ
مَدَامَةً تَعْقِلُ الْقُلُوبَ إِذَا رَأَتْ عَلَيْهَا الْمُحُومَ وَالرَّيْبُ
كَثُوسُهَا أَنْجَمُ نَفِيلُهَا لَا يَهْتَدِي مِنْ تَفِيلُهُ الشُّهْبُ
لَا تَدْمُ فِتْنًا وَلَا فِدَامَ لَهَا عُرُوسُ دَنْ عَقُودَهَا الْحَبُّ

وهو يقول لصاحبه قم نفتزعها أو نفتضها ونشرها ، إنها في رأيهِ - كعروس بكر - أبوها وأُمُّها العيب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة العيب قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها المحوم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كثوسها أن تكون أنما ولا تهدي ، بل تفضل صاحبها وأى ضلال يينا عادة النجوم أن تهدي ، ومن تفضله لا يهتدي أبداً ، لأنه قد هداه . ويذكر أن ليس في رفاقه فدم أو أحرق وأنه لاقدام لها أو مصفاة إذ هي شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنْ عقود جيدها لآلى الحبيب التي تلو كثوسها حين يمتزج بها الماء . ويدهو خيان الشاغورى صديقا إلى نرمة ^(٤) :

(٣) الحريدة (نص الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(١) الجيئة ٣١٢/١

(٢) حيا الحمر: سورتها وشفتها . سنا : ضوء .

الجنس : دجى الليل الشديد السواد .

بأذن إلينا فإن الراح ممكنة والكأس دائرة والشمل مجمع
ويومنا طيب صافي الأديم وما فيه هواء ولا في رأسه قرع
والطير نرقص في الأغصان من طرب تكاد منه على هاماتها تقع

وتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع
لافيه عواصف ولا في سمائه قرع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير نرقص على
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتها أو رموسهم .
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الحمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد
لهم الحموى في خزائنه فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصصه بترجمة ، وبدر الدين
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محيى الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله ^(١) :

باكر إلى الروضة ننتجها فشغرها في الصبح بسم
والنرجس النقص اعزاء الحبا ففخر طرفا فيه أسقام
وبلبل الدوح فصيح على الأيك والشخورو تفتام
فعاطى الصهباء مشمولة عزراء فالواشون نؤام
واكتم أحاديث الهوى يتنا ففى خلال الروض نعام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التى أشاعتها مصر منذ
العصر الفاطمى غاية واسعة ، وقد ورى في البيت الثانى بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحبا بمعنى
المطر . وجعل للبلبل لجمال غناؤه وشده الفصاحة وللشخورو وهو نوع من المصافير التمتة . ضرب
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستم الصورة بأنها بكر أو عزراء والواشون
نؤام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نعام - وهو ضرب من الشعر مزهر - عن الثام
الحقيقى من الأشخاص . ويقول محيى الدين بن قرناص ^(٢) :

روضة من قرّفتو أنهارها وغناء الورق فيها بارتفاع
لا تلم أخصانها إن رقصت ففى ما بين شراب وسماع

وقد ورى محي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أدخله السكر ، بل إن الأخصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلا عجب أن يشدو الحمام شدوا حاليا . وأنشد الحموي في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل القرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المالك وبالمثل أيام العمانين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مَنْشَرُ وَالبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلُمَاءِ مُتَّبِعُ
عَجَلُهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مَنْسَدُ مِنْ قَبْلِ يَدِ لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ
وَأَسْتَضْحِكُ الدَّهْرَ قَدْ طَالَ الْعُبُوسُ بِهِ لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكَ الْقَدَحُ
وَلَا يَطِيبُ . الْهَوَى يَوْمًا لَمُتَبَقِي حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُضْطَبِّحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يتاوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبتجع وأضواء البدر تلمع في جرائبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح يجناحه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقا وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صبح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللاهوت .

الوَأَوَاءُ (٢) الدَّمَشْقِي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوَأَوَاءِ الدَّمَشْقِي ، من أهل دمشق ، وُلِدَ بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك ما رواه التعالبي في البيعة من أنه لُقِّبَ بِالْوَأَوَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ مَنَادِيَا بِسُوقِ الْفَاكِهِةِ ، أَوْ كَمَا كَانُوا يَسْمُونَهَا دَارَ الْبَطِيخِ ، يَتَادَى عَلَى الْفَوَاكِهِ جُلُوبًا لِلْمَشْتَرِينَ . وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي

طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي الدمان وراجع مقدمته له .

(١) نسخة الرخامة ٣٥١/٢
(٢) انظر في الوأواء وشعره البيعة ٢٧٢/١ والمحمدون
من الشعراء للقفطي وفوات الوفيات ٣٥١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربى . وممكن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعليم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء للنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أديبنا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضا ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه ترم شريفا من سادة دمشق ووجهاتها بملحه ، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين ديناراً ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيق أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان تقيهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممتحناً ، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنى ٣٣٣ و ٣٣٤ . وفي ديوانه ثلاث قصائد في مدحه ، ولذلك عدّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيق أخذ الوأواء بعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يندور حول محاور ثلاثة : الغزل والحمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا ما يمزج بينها جميعا مثل قوله في الفصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجمالَ بأَسْرِهِ	فَكَأَنَّمَا	قُسِمَتْ	عَلَيْهِ	مَحَاسِنُ	الْأَشْيَاءِ
مُبَسَّمٌ	عَنِ	لَوْثِ	رَطْبٍ	حَكِي	بَرْدًا
تَنَقَّى	عَنِ	التَّضَاحِ	حِمْرَةَ	خَدِّهِ	وَتَنَوَّبَ
فَامْرُجٌ	بِمَالِكِ	نَارَ	كَأَنِيكَ	وَاسْقَى	فَلَقَدْ
وَاشْرَبَ	عَلَى	زَهْرِ	الرِّيَاضِ	مُدْلَمَةً	تَنَقَّى
لَطْفَتْ	فَصَارَتْ	مِنَ	لَطِيفِ	عَظْمَا	نَجْمَى
					مَجَارَى
					الرُّوحِ
					فِي
					الْأَعْضَاءِ

والوَأَوَاءُ معروف بكثرة تصاويره في أشعاره ، فسأقيته الحمر نبش من أستان لوثوية كأنها حبات برد تساقطت من عقود السماء ، وحمرة خدحا نضرة كحمرة التضاح ، وريقها كأنه الصهفاء أو الحمر . ويطلب إليها أن تمزج الحمر الحمراء بالماء كما امتزجت مداممه بالماء . ويقول لصاحبه اشربْ حل زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الحمر التي تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :
 وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ نكاد منها الأكفُ تَلْتَبُ
 تَلب في كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفرُّها طربُ
 في عَرَصَةِ الكأسِ حين تَمزجها سماءُ نَبيرِ نجومها ذهبُ
 وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم ، ويقول إنها حارة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف في زعمه نكاد تلتب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلب في كأسها حين يمزجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويحمل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فئات التبر ، نجومها - أى حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحةً للماء في الكأِ سِ وكُفًا عن شُرْبِ ماتسقياني
 إنني قد أنثُ بالأمس إذ مَ سَتْ بها أن أموت موتا ثاني
 اسقيني القهوة التي تبتُ الورْدَ - إذا شئتَ - في حدود الغواني
 في رياضي نريك في الليل منها سُرُجًا من شقائق النعمان
 كتبها أيدي السحاب بأقلام مِ دموعٍ على طُروسِ المكاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبه أن لا يسقيه الماء وإعما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أمانته بالأمس ولن يموت ثانيًا ، ومثله من مدحى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرُج حدود الغواني بالخمر فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسبها في رياض تثير بها ليلا الورد المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدي السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من عابر غرية هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد تَوَت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودالما يعنى الوأواء في شعره بالتساوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بينه المشهور :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نَرَجِسٍ وسَقَتِ وَرْدًا وَهَضَّتْ على العُقابِ بالبردِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والزرجس للعين والورد للحد والعقاب للأصابع والبرد للبرد للإنسان ، وهي صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامه الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن قُسيم الحموي

هو مسلم بن الحُصَيْن بن قُسيم التُّنُخِي الحموي ، ولد ونشأ بجمّة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خافه عمره ، وظلّ شاباً (حدٌ) شبابه ، وحل شعوب (الموت) بشعباه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفي شاباً ويبدو أن ميلاده لا يبعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موته الشعرية نصجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فدح صاحب حاة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزْأَة وحاصر حصن شَيْزَر بالقرب من حاة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسرع إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استلها بقوله :

بزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الضعابُ ونستقيمُ

وكان ابن قسيم حيثنذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنز مدبر دولة أبناء طفتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ومدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فلما نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فاتته بمدح أنز مدبر دولة آتق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طفتكين والقائم على دولتهم أنز . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخصها العماد الأصبغاني بسنة ٥٤٢ . ولا ترتاب في أنه ظل متصلا بزنكي بمدحه وخاصة حين استولى على الرها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرها ثانية ،

وهنا ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العاد الأصماني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العاد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يفرق في اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيها بقتوف منها بمثل قوله :

خير ما أصبحت مخلوع الطيار فانفوخك هم بالكنس المداير
قم بنا نكهب اللذة في ظل أيام الشباب المستار
إنما السار الذي تحفره أن تراني من لباس العار عارى
وسعد من تقضى عمره بين كاسات رُضابٍ وعقار^(١)
في اصطباح واختباقي واقرا بر واغراب وانهاك واستار

وهو يصرح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير أنه لما يحرمه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءه وسعاده ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واختباكا يقول ، ويعكف عليها قاراً في بلبته حاة ومغفرا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بصبيان ربه متهاكاً لحرماته . ومن قوله في خمرية ثانية .

باكرا شمسَ القناني تُذكر كما كل الأمانى
وخذا في للنَّ العيب شرو على رَغَم الزمان
قهوةً ألبها المزجُ قيصا من جُبان^(٢)
كخلود الورد من نحد ستر تُغور الأحوان
إنما البقية أن أصبج مخلوع العنان

وهو يدعو إلى اللطع بالخمر ، ويصورها بصورة جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قيصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها وللاء آخذ بتلاييبها بشغور من الأحوان الأبيض تعلوها خلود وردية . ولأبلى أن يعلن في آيات تالية عصيانه لربه ، لكل ما يفيقه أن يظل سادرا في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره متهاكاً ساجدا في قبة الكأس لتسيح مثنى العود

وأوتاره . وكأنه بعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أي نواس المتهكة الخليفة للارقة .
ولاين قسم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها ونمارها من
ذلك قوله يصف رمانة :

وحمرّة من بنات الفصور نِ يمنها ثقلها أن تميدا
منكّمة التاج في دسّتها تفوق الحدود ونمكي الثهدوا
تُفَضُّ فتفتّر عن مَسَمٍ كأن به من حقيق عقودا
كان المقابل من حبّها ثغور تقبلُ فيها خدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكّمة التاج في دسّتها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتتلل في
غصنها على صدرها بقية ثوارها . ويتصور جاتها عقودا من حقيق ، وكأنها تحمل تلك الحبات
وما يحيط بها من خيوط يضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسم شاعرا مجيدا ، ومربّتا أنه كان
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي .

مجير^(١) الدين بن نعيم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن نعيم ، ولد بلمشق ونشأ بها ، وسأل الشعر على
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه وبسائه في شعره
قائلا :

دَعَى أخطر في الحروب بمُهْجتي إما أموت بها وإما أُرْزِقْ
فسواد عيشي لا أراه أيضا إلا إذا احمرّ السنان الأزرق

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو في
التضمن الذي عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة المعاني والدق اللطيف
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصدرة
خطوات من ديوانه بخط المصنف في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن نعيم وشعره فوات الوفيات
وعزارة الأدب للحسني ص ٣١٩ - ٣٢٥

الأول ، إنَّه أراد به المعنى الثاني وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أزرُ عن التضمين طيرى
أضنُّ كلَّ يت فيه مَنى فِئري نيفهُ من شيرِ غيري

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا عتثا شجاعا مطبوعا كرم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء للمدودين » . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن نعيم من أصحاب المقطعات الطريفة في الغزل والطبيعة والحمر ، ولا يآزى في ابتكار الصور والأخيلة وحشد التورية في مقطعاته ، مع الظرف ونخلة الروح والتحليلات الحسنة ، وتختلف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله في الساقية والطبيعة من حولها :

تأملُ إلى الدولاب والنير إذ جرى ودمعها بين الرياض غزُرُ
كأن نسيمَ الروض قد ضاع منها فأصبح ذا يكي وذاك يدورُ

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التي يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى افتقد والملاك ، وبذلك تحت لابن نعيم التورية التي يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد للمعنى الثاني . ويقول مفاخرًا بين الأرض والسماء :

باجعلَ الأفقَ مثلَ الأرضِ حُجَّةً بالشمسِ إذ بزغتِ والبدرِ حينَ وَصَحَ
كم من شمسٍ وأقارٍ إذا سَرَحَتْ في الأرضِ طرتَ إليها خَفَّةً وَفَرَحَ
ولا تَقُلْ : قَرَحُ في الجوِّ زَيْتُهُ في كلِّ غُصْنٍ ترى في الأرضِ قَوْسَ قَرَحَ

فهو يعارض من يطل السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن في الأرض شمسًا وأقمارًا من السماء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تخرج بهما قوس قزح ، فأغصان الرياض في الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرة أرجة . ويقول :

سفتُ إليك من الحديقة وردةً وافئك قبلَ أوانها تُطْفِئُ
طمعتُ بلكم إذ رأيتُك فجُمُعتُ فَمَها إليك كطالِبٍ تَقِيلُ

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لا تزال في كنفها ، مما جعله يطل نجمها قبل أن تفتح هذا
التطيل البديع الدال على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة
أوساقية :

ناعورة مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بأثني وبكاء
وتعلت بلفاته فلاجل ذا جعلت تليح عيونها في الماء

فقواديسها لا تهوى فارغة طلبا للماء والصدود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها ،
وجعل لحونها الحزينة أيتها وبكاء عليه . ويقول :

لِمَ لا أميلُ إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظل ضاني
والخضن بلفاني بشير باسم والماء بلفاني بقلب صاني

والشعر الباسم هو الأحموان المضح والشراء بشيونه بالشعر كثيرا ، وفي البيت رقة ودقة حس
وخفة روح . وقد يغلط الطيعة بالنزل كما في قوله :

كيف السيلُ لأن أثبل خدَّ مَنْ أهرى وقد نامت عيونُ الحرسي
وأصابعُ المشور تُوصي نحونا حداً وتُثيرُها عيونُ الترّجس

والمشور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه ، شبه ابن نعيم بالأصابع ، ونشيه الشراء للرجس
بالميون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التطيل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبة . ويقول
في الخمر مداحا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقل لها تأثير
فأصعب له أثني بصون بلحظه مشمولة وإنّاؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تشمه وتخطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالاء
وهو كسر حبياها ونورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلة بثُ أُنقى في غياها راحا نلُ شباي من يد الهرم
مازلت أشرها حتى نظرتُ إلى غزالة الصبح ترمي ترّجس الظلم

ويريد بالغزاة الشمس ويرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجكاً مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة للمعنى نظراً . ومن طرائفه في الرياض قوله
 بعت النسيم رسالةً بقدمي للروض فهو بقره قرحان
 ولطيف ما قرأ المزار بشنوو مضمونها مالت له الأخصان
 والمزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . ورواض ماقى ميل الأخصان لسباع شلو
 المزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة
 الارتياح والسرور لسباع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحباً الفوات والخرقة
 بدائع كثيرة .

ابن النقيب ^(١)

هو عبد الرحمن بن محمد الحسيني للقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة
 لأبيه النقيب الشريف ، وهنّى بقرته ، حفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أبيه بالإضافة
 إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وانجبه بها إلى وصف
 الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك
 يمكن أن تعد مدائحه في باب الإحسانيات ، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر
 فتته بالطبيعة المثقبة ومتزاهاتها وبجمال المشقبات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة .
 ويقول المهي « ما أذكره له تشبيه زهر (حسان) أوزهر ، أو وصف روض مطلقاً على نهر ، وهو
 من أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما لجلل غريزي في فطرته ، أو لأن دمشق متروحة فكرته . ولم
 يطل به الدهر بين هذه المغائن التي كانت تغلب له . فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة
 ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافته :

بَصْدًا مِنَ الْغَيْدِ حَدُّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 لَهَا السَّحَابُ مِنْ رَبَطٍ وَمِنْ جَبَرٍ
 يَحُلُو لَنَا مِنْ جِلَاحِهَا أَحْسَنَ الصُّوَرِ ^(٢)

مردم للديوان .

(٢) التبرج : الحيلة من الرشي أو الجهر .

النَّهْرُ بَصْدًا بِهَاتِيكَ الظَّلَالِ كَمَا
 وَالزَّهْرُ يَفْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارَقَتِ
 رَيْعَةُ الرَّوْثِ لَا يَنْفِكُ زَيْجُهَا

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠

وتنقذ الرمانة ٢/٣٤٨ وديوانه (طبع المجمع العلمي
 العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندى وعطيل

ويشبه الشمر الأناجر الضيقة والجداول بالسيف لشدة لمعائها . وقد جعل ابن النقيب النهر
يصدأ كما تصدأ السيف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ،
والزهر يغرش في شطبه مارلت أو نقشت فيها السحاب من رِيْطٍ وجِرٍّ أو ملامات غططة
وحريرة ذات وشى ريمى لازال زبرجه ونقشه يحلو من جَلَى الطيعة وجواهرها أجمل الصور ..
ويذكر مجلسا من مجالس أنه في بعض متزهات دمشق قال :

وجلسي حُفِّ الفصونُ بنا فيه روجهُ الرياضي مبتهِجُ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق الندى نسيها الأريجُ
خُضِرُ من الأزدي لا تزال بها مناكبُ الراقصات تخرجُ

وهي صورة بديعة ، إذ يحمل أوراق الأغصان - حين يرف نسيها فوق الندى - كأنها تُرد
أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المنتجة للتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر
يلوح ويحجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثيبا الصبا والبدرُ من ظلي يلوح ويحجبُ
حساء قد حامت وأزنت شمرها في لججٍ وللوجِ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحساء في لججٍ مرغية
ذوالب شمرها وموج أصواتها من حولها يلعب في فضاء الطيعة الساحرة . وكان مفرد بوصف
زهرة القرنفل ، يصفها يضاء وحمراء ويضاء مشربة بحمرة كقوله :

وذفرِ قرنفلٍ في الروض يحكى حقيق دمٍ على صفحاتِ ماء
رأى وجاتٍ من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثرُ الحياة

فاحمرار القرنفل إنما هو حياة وغفرته حين رأى وجات صاحبه ، فأغضى عينه وقارب
بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطيعة واللهم والهمون موشحات مختلفة منها ما عارض به لسان
الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همي » . وله أيضا شعر دوري تألف
المنظومة منه بيتين بيتين . ويدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا ما يقوله المهدي من أنه كان يتخيل
التخيالات البعيدة البديعة في التشايب العجيبة .



شراء الزهد والصوف والدالح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنشأتهما الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوي وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبة في المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتبعها أضواء الإسلام ، ونشع فيها تعاليم الزاهدة وبرزها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النسك ونشع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كهري من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتطير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها في غير هذا الموضع ، وطبيعي أن يجد ذلك صداه في الشعر والشراء الشاميين . ويلقانا في ديوان أبي تمام باب للزهد ، وبطل الشراء بعده ينظمون فيه كقول أبي فراس ^(١) :

أما . يَرَدُّعُ الموتُ أَهْلَ الثَّهَى ومنع عن غِيٍّ مَنْ غَوَى
فبا لاهِبًا آمَنَّا والحامُ إليه سريعُ قَرِيبُ المدى
إذا مامرتُ بأهلي القُبُورِ نيقُنتُ أنك منهم غدا
فلا أملُ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ولا عملُ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجلدير أن يردع القوي عن غيّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاه آمن على نفسه ولا يفكر في هول ما ينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رmse ، ولا أمل له سوى عذوبه فعري به أن يكف عن كل موقفة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التذكير في الحياة والموت نهاية كل حي وينشد ^(٢) :

هي النفسُ تهوى الرُحْبَ في كل موطنٍ فكيفَ بها إن ضاقت في الأرض قبرها
وهل يرتجى خُصْرُ الملابسِ ظاعنُ وقد مرّت في باطن التُربِ غُبرها
نوابُ أَلقت في النفوسِ جرائعًا عصى كلُّ آسرٍ في البرية سِرّها
لي القوتُ قَلْبُغَمٌ سَرْدِيبٌ حطّاه من الدُرِّ أو يكثرُ بغاة يثرها

وأبّر العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يتخنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزقاً . ويقول تلك نوابس تصيب النفوس في الصمم وتحدث فيها جراحا عميقة يستمعى سبورها همرة غورها على كل طيب ، وبذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه ، ولتلتئى سرنديب - أو كما تسمى الآن بيلان - بمفاوصي لآلها من الدرر وليكثر بغانة في غرى إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسى قوتي . ومررت أنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكفيا بالعدس والتين . ومررت أنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الحقاقي ^(١) :

استغفر الله القديم وعذ به من شر غاي في الحطام منافس
وافضل جملا لا يضيع صنيعه واسمع بقوتك للضعيف البائس
واقنع في عيش القناعة نعمة لا تنق كفت الزمان الخالس
لا تفخرن وإن فلت فباقتي ناضل وفي بذل المكارم نافس

وهو يستغفر الله من شر كل غاي منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصي بفعل الجميل ومد اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصي أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالثقى ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الحريرة ^(٢) :

عمرت دار فناء لابقاء لها ظلت بأنك عنها غير متصل
أتمت نفسك لا الدنيا ظفرت بها وأنت لاشك في الأخرى على وجل
دار الإقامة أولى باليمارة من دار نعيمك فيها غير متصل
فاعمل لنفسك ماترجو النجاة به فليس يتجيك إلا صالح العمل

وهو يزهّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

ويقول الإمام النورى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة^(١) .

وجدتُ القنَاعَةَ أصلَ النِّتَى نصرتُ بأذْيَالِهَا مُتَشَبِّهَاتِ
فَلَاذَا يَرَانِي عَلَى بَابِهِ وَلَاذَا يَرَانِي بِهِ مِنْهُمْ
وَعَثْتُ غَنِيًّا بِلَا دَرَاهِمٍ أُمِرْتُ عَلَى النَّاسِ شَبَهُ الْمَلِكِ

وكان محيى الدين النورى إماما ورعا زاهدا مثابرا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكماء - كما يقول - يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهاكه إنما هو فى العبادة والتجهد والنسك وفقرى الناس فى أمور دينهم وتدریس الفقه والحديث النبوى آخذًا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تظوها أقدامنا غير واهمين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

لقد غَنَيْتُ عَنِ الدُّرُوسِ بِمَا تُنَمِّ عَلَى عَلَيَا صَحَائِفُ الْأَيَّامِ
مِنْ حِفَاظَاتِ تَتْلَى بِشِيرِ لِسَانٍ وَسُطُورِ خُطَّتْ بِهَا أَقْلَامُ
وَلَوْ أَنَّ الْعَيُونَ زَالَتْ غَشَاها لَرَأَتْ كُلُّ أَعْيُنٍ فَوْقَ هَامٍ^(٢)
بَلْ وَفَى كُلُّ وَرْدَةٍ أَلْفُ خَدٍّ وَفَضِيرٍ يَمِيسُ أَلْفُ قَوَامِ

فالحياة قصيرة وللصبر للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير للمقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم الدراب ، حتى لكأن أى مكان لا يظفر منهم ، وحتى لكأننا نظفرهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لو زالت المشاة عن أحياتنا لرأينا - وبالحول مانرى - أقداما تظأ رهوسا ، ولهنا أن الورد التابت من الأرض يستمد حمرة من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قد . ويلاحظ المهيب أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفَّفُوا الرُّوَطَاءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ آلِ أَرْضِي إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

وقول مهيار :

رُؤْيَاكُمْ بِأَخْطَافٍ لِلطُّيْ طَائِفَا مُدَامُ جِبَاهُ فِي الثَّرَى وَخَلُودُ
وَكَانَ الْبَابِي نَظَرَ إِلَى مَعْنَى الِيتَيْنِ جَمِيعًا ، وَبُضِيفَ الْهَبْيُ أَنْ مَتَرَعَ هَذَا كُلَّهُ قَوْلَ اللَّتَيْنِ :

وَيَنْفُزْنَ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

والأوالى : الأوائل . ولا يكتفى الهبى بذلك ، بل يقول أن معنى يبقى البابى دقيق ، وفي رباعيات عمر الحقيام بالفارسية من نوعة أشياء كثيرة ، ويذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فِي الْإِحْتِبَارِ بَيْنَ مَضَى مِنْ قَبْلُنَا جَيْرٌ وَتِلْكَ هِدَايَةُ الْمُسْتَرَشِدِ
فَلَكُمْ طُوبَى تَرَاوَنَّا أَمَّا وَهَلْ مَيَّتُ بِغَيْرِ تَرَاتِبِهَا لَمْ يُلْحَدِ
حَتَّى كَانَ شَقِيقَهَا دَمٌ أَسْرَفَ سَفَكْتُ دِمَائَهُمْ عَيُونُ الْحَرْدِ
وَيَنْفُجُ الرُّوضِ النَّدَى كَأَنَّهُ خَيْلَانُ وَجَنَاتِ الْخُلُودِ الرَّودِ

فالشقيق الأحمر القاني يستمد مما سفكه عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبُنْجُجُ الأحمر القائم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد في التصور والخيال .

وكان يرافقه الزهد منذ القرن الثالث الهجري نساك - كما مر بنا في الفصل الأول - أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد في مقلتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمنونها . طوال هذا القرن والقرن التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، ولتمتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا في الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضيء بقرة بما كبه أبو نصر السراج والقشيري في الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوازل . وبذلك سدّ الثغمة التي كانت تفصل بين المجاهدين وأحكام الروابط الدينية بينها . وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرُونَ من بناء الخانات والحفائض والرباطات للمتصوفة . وتبعهم في ذلك نور الدين حين أصبحت الشام في قبضته ، بل لقد اتسع في العناية بهم ورصد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة في عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمالِك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار في القرن السابع هجري الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى حصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات للكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يفتق مع السنة وباطن يفتق مع تصوفه الفلسفي . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأعلنت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي للظلس القديم تؤثر في وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . ويدون ريب أكد هذه التركة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع ما دخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المالِك . وستترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعُداده في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بترهقي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويعا بخلقه الكريم ورسالته العظيمة وجهاده في سبيل الله وفضوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأئمتهم الطويين وفي مراثيمهم للحسين على نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ويرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاهم إلى خير الأمور محمدٌ وليس العوالي في القتا كالسواظر
دعاهم على تعظيم من خلق الضحى وشُهِبَ الدجى من طالعاتٍ وأظفر
فصلّى عليه الله ماذر شارقٍ ومافى يسكا ذكره في المايل

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دها إلى توحيد الله الذى خلق الشمس ومانعمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تنبج تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو ملبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحق بركاته عاطلت شمس وعاطر ذكره المحافل بمسك لايضايه مسك .

ويحتمد المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التكر ، إذ أحس الشراء - بحق - أنها حروب موجبة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوة (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شامدُ وللشهادة تجريجُ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسُ ولا قرُ ولا الفراتُ وجاراه ولا النيلُ
مرئُ الوحي يطوهُ ويدرسه ولم يكن لكلام الله ترئيلُ
وسيدُ الرسلِ حقا لاختاء به وشافعُ فى جميع الناس مقبولُ
بنتُ نبوته الأخبارُ إذ نطقت فحدثت عنه توراة وإنجيلُ

ويقول ابن الساعى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة الحمديية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رئل الكلام ، وإنه لسبد الحق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسائله العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوة مؤملا شفاعته فى يوم المحشر متمنيا زيارته (٢) :

أوملُ من خير الأنام شفاعهُ بها فى نعيم بالجان أخلدُ
وِدِدْتُ بأنى زرتُ قبرك راجلا وقبِلْتُ ترما أنت فيها موسدُ
ومرغتُ خدى عند قبرك ضارعا بأرضي حصاها لؤلؤ وذرّجدُ
وذاك ضريعُ يحسدُ اليكُ ترته وكلُّ شريفٍ القدر لاشك يُحسدُ

وهو يؤمل فى شفاعته الرسول بالضران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبله وعقر خده بما حوله من الزاب ضارعا متوسلا بأرض

حصاصا لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد تراه على مايجمل من طيب لا بمائله طيب . وللخاوى
على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوى . وفى مدحة نبوية
يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثنوى الرسول الكريم (١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْعٍ وَمِنْ كَثْبٍ سَبَاكِ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءُ مِنْ كَثْبٍ (٢)
بِاسَاكِنِي طَيْبَةَ الْقَبِيحَاءِ هَلْ زَمْنٌ يُدْنِي الْحَبَّ لِتَيْلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ
أَرْضُ مَعَ اللَّهِ عَيْنَ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا فَإِنْ تَغَيَّبَ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكتباناً من كلب أو قرب
لتظل تزهى بالشذى العطر ، ويتنى زمناً يحقق أربه وأمنته من زيارة الجذث الطاهر . ويقول إن
عين الشمس تحرسه نهاراً وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلاً حراسة يرعاها الله جلّ علاه .
وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدايح
النهائية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدامحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة
وصول ركه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الركنى ،
يقول (٣) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَامَتْ مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِيَابِ الزُّهْرِ
وَتَلَقَّاهُمْ بِشَبْرِ التَّلَاقِ يَقْبُولُ تَسْرَى قَبِيلَ الْفَجْرِ
وَشَدَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى مِنْهُ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ
حَبْذَا ذَلِكَ مِنْ مَقَامِ كَرِيمٍ يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمُرِ

وهو يصور فرحة ركه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده
قبيل الفجر . والقبول أو ريع الصبا العليل تبشرهم بالتلاق وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير
إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثل أمام
القبر الطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمركله . ولكمال الدين محمد بن على الزمלקانى المتوفى سنة ٧٢٧
للهمزة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٤) :

(٣) غزوات الوفيات ٢/١٩٧

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النهائية ٢/١٧٣

محمّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ وفانحُ الخيرِ ماحي كُلِّ إِشْرَاقٍ
 قد نالَ مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءِ ذوى فَضْلٍ وأَمَلِكِ
 بِأَصْحَابِ الْجَاهِ عِنْدَ اللَّهِ خَلَقَهُ مارِدُ جَاهِكَ إِلَّا كُلُّ أَفَّاكٍ
 ها قد قَصَدْتُكَ أَشْكُو بِمَعْصِيَتِكَ لِي الذُّنُوبُ وهذا ملجأُ الشَّاكِي
 عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ الصَّلَاةُ كَمَا مَا عَلَيْكَ السَّلَامُ الطَّيِّبُ الرَّازِكِي

والزملكانى يقرر حقيقة كبرى ، فحمد عليه السلام خير خلق الله وماحي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى الباقى من مدحة نبوية بدیعة^(١) :

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَاءَ ضَارِعًا أَخُو عَثْرَةٍ يَرْجُو الْإِقَالََةَ مَذْنُبُ
 فَبَابِكَ يَا أَبُ اللَّهِ مَا عَنْهُ مَهْرَبُ وَطَالِبُهُ مِنْ غَيْرِ بِابِكَ بُحْبَبُ
 أَعْطِنِي تَدَارِكُنِي أَجْزَنِي ظَنَنِي لَقْنِي. إِنْ تَرَخَنِي عَنْ لُطْفِكَ يَنْطَبُ
 وَأَبْعُدْ شَيْءٌ أَنْ تَضَيِّقَ بِرُحْمِي شَفَاعَتُكَ الْعَظْمَى بِنَا فَهِيَ أَرْحَبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه لبقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيب به لائلًا أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس في المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم ، فيغفر برضوان ربه . وللباقى يتوسل^(٢) :

يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ قَدْ بِرَ الْعُقُولَ سَنًا بِهَائِكَ
 إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالَّذِي جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَى وَلَائِكَ
 نَوَى الْوُجُودَ خِلَاصَةً إِلَيَّ كَوْنِينَ صَفْوَةً أَنْبِيَاءِكَ
 إِلَّا نَظَرْتَ لِمَسْتَغِيبٍ سِ عَائِدٍ بِكَ مِنْ بِلَائِكَ
 فَالطُّفُّ بِهِ فَمَا جَرَى فِي طَيِّ حِلْمِكَ مِنْ قَضَائِكَ

والبابي يبحر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور : في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذ وسيلة إلى ربه وشفيعة ، حتى يُلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده .

عبد^(١) العزيز الأنصاري

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأومى الأنصاري ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستغنى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعنى القاضي بترية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتروذ من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حاة وتولى قضاءها لمهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك في زوجه عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويقتصب إمارة حاة بعده السلطان قليج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا في العاشرة

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والحزنة للحموي ص
٢٤٩ ، ٣١٤ ودبراته (طبع مجمع اللغة العربية
بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات
الوليات ٥٩٨/١ وفيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والبر
٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ ولبقات الشافعية

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ . وكان يلمُ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتعتقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها النصور إلى توفي سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعقدُ في هذه البلدان جميعا لمبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماح الحديث عنه ، ومن سمعه منه المحافظ اللمياطي محدث مصر واليوناني محدث دمشق ، ويقول ابن تَفَرى بَرى عنه : «سرع في السّقه والحديث والأدب وأقوى ودرس وتقدم عند الملوك وترسل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا ، وينقل صاحب القوات عن الصفدى في وصف شعره وشاعريته قوله : لا أعرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أبصرى ولا أكثر ، وإن له في لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وحلقته ، لما فيه من النكت والتوريثات الفاتقة والقوافي المتمكة والتزكيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ ، وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعلوية ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدتها تجاه حجرته الشريفة :

بِاخْتِامِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَفَارِجِ الْكَرْبِ الْعِظَامِ بِفَعْلِهِ وَالْمَقُولِ
هَآ قَدْ وَرَدْنَا مِنْ صَرِيحِكَ مَوْرِدًا نَشْفَى بِهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ مُغْفِلٍ
أَدْعُوكَ لِلْجَلَّى وَتِلْكَ شِفَاعَةٌ لَمْ تَرْضَ لِي أَنَّى أَخَافُ وَأَنْتَ لِي
وَلَقَدْ أَتَيْتَكَ مَا دَحَا لَتَجِيزَنِي فِي الْحَشْرِ كَاسَاتِ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغني بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومغنيه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشهد بالناس أوار العطش ولديه - كاسات من الرحيق الصافي . ويقول في مدحة نبوية ثانية :

وَيْلَايَ مِنْ نَوْمَى لِلشَّرِّ وَأَوْ مِنْ شَسْلَى الْمُبْدَى
غَضَنَ نَقَا حَلٍّ عَقْدَ صَبْرَى بِلَيْنِ خَصْرَ يَكَادُ يُعْقَدُ
فَن رَأَى ذَلِكَ الْوَشَاحَ الْهَاصَاتِمَ صُلَى عَلَى مُحَمَّدٍ

أَشْرَفُ مَنْ فِي النَّهَارِ نَاجِي وَغَيْرُ مَنْ فِي اللَّيْلِ نَهْجِي
وغيرُ يَذْعُرُ لِلسَّجِيرِ بِهِ إِذَا نَالَ كُلُّ مَقْصِدِ

وموسيقى الآيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح للمصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كتابة عن نحول خصرها مع لينة ، فمن رآها - كما يقول - صَلَّى عَلَى الرَّسُولِ إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتنهجده ليلاً وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقبلاً منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطراً اقتبس قافية .

وزهديات الأنصاري كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيق في متاع الحياة الدنيا . وفي إحداها يقول :

مُلْكُ الْقَتَاعَةِ عَزْ بُذْهِبُ الذَّلَّةِ فَمَنْ حَوَى كَثْرَتَهُ لَمْ يُؤْتَ مِنْ قِلَّةِ
تُبَا لَدَى طَمَعٍ مُسْتَعِدٍّ وَمَتَى لَا تَسْقُرْ عَلَى رِيٍّ بَلَا غِلَّةِ
يَوْمُ إِبْلَاعَةٍ مِنْ رَيْقِهِ بَلَاءٌ وَلَيْسَ يَرَوِي وَلَوْ أَبْلَعْتُهُ دِجَلَةَ
فَانْقَعُ غَلِيْلِكَ مِنْ نَهْلٍ بَلَا عِلَلٍ وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلْتَ أَغْثَكَ مِنْ أَكَلَةِ

فالقتاعة - في رأيه - عز ما بعده عز ، ومن حوى كثرتها الذي لا يبقى لم يشك من قلة ، ويقول تبا لصاحب طمع يستعده ومتى لا تروى أبداً فداعماً صاحبها يعاني من غلة العطش وحرارته ، وداعماً يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبداً ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكشف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشرية الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشرية الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوى لمن زهد وقع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَأَنْعِ أَنْعَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشَقَاءُ
وَتَنْصَلُ مِنْ خَطْبِهَا تِلْكَ لَهَا النَّارُ جَزَاءُ
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا الْغَنَاءُ
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاءُ الْفَنَاءِ
وَلَا هُلْ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ لَدِي وَقِهِ الْبَقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئته وذنبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة وهم البقاء والديوم .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومربنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النعم حسنة الجرس والاداء .

محمد ^(١) بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحفيظ الشيباني اللمشقي المولود والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ . وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لثاته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عرى المتوفى بلمشقي سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ وما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ إِلَهُ جَلِيلٌ ذَهَلَتْ لَدَيْهِ بَصَائِرٌ وَهَوُلٌ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غرّى نهجهم وضلوا السبيل وسُلب الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الرباني . وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجلنا فقهاء دمشق يفتنون بقطه - كما أفق فقهاء حلب بقتل السهروردي - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد به إلى المحرفات ، والسبب في ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرتعات الصوفية ورحل في البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقى - شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوفا

لحريري في الفوات ٨٨٧/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالمعالي الحمصي في الفوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر في محمد بن سوار شعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والتبجيم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والفوات ١٤٣/٣ وراجع ترجمة علي بن الحسين

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حج ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الحليمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض - فادهاها لنفسه ، فراجع ابن الحليمي وعبثا حاول أن يفتحه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروي ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الحليمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلبسني ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمّ صحى سَمّاً أو أراكِ فرأى مقصدهم أن أراكِ
وإن ترنّمتْ بذكر الحى فرأى عقْدُ ضميرى حاكِ
وإن بكى صَبّاً حياً فما أحب إلا أنه قد بكاكِ
ملأتْ كلَّ الكون عشقا فما أعرف قلبا خاليا من هواكِ

فصنعه إن أمّا به شجر السمر والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوه الذى يحل في كل مكان ، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حياً إنما يبكى لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء ، فما يمشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويمشقونه ، وكان كل شيء مرآة له ، إذ يتزاهى في كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يأمن يشر إليهم المتكلمُ وإليهم يتوجّه المتظلمُ
وعليهم يخلو التأسفُ والأسى ويلدّ لوعاتِ الغرام المُرّمُ
هذا الوجودُ وإن تعدّد ظاهرا وحياتكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقَتْ فى صفات جمالكم وإذا سألتُ الكائناتِ فنكنمُ
وإذا سكّرتُ فن مُدّامه حبكم وبذكركم فى سكرى أنزّمُ
وإذا نظمتُ تنزلا فى صورة فلأجل حُسْنِكُمُ الهجْبِ أنظمُ
أنتم حقيقة كلّ موجود بقا ووجود هذى الكائنات توهمُ

والآيات صريحة في أنه مؤمن بوحدة الوجود . فاقه يحل في الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كأننا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جلاله للشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكروه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناه الليل وأطراف النهار . وهو إذا تنزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهي نفس الأفكار التي تلقاها عند ابن عربي ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورووه بأنه يؤمن بالانحداد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خلا منه طرقي وامثلا منه خاطري فطرقى له شاكٍ وقلبي شاكٍ
ولو أني أنصفت لم تشكُ مُقلتي بعدا وداراتُ الوجود مظاهرُ

فانه يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأهمه ليال يحيونها بالدهوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليال فلقى للمنى من شعره :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه وفيهم هذا السر من هو فاتق

قال ابن الحكم : كسر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كسر ، لكن أنت ماتهم ، وتشوش المجلس . وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس ما يزعاه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرفضها ابن الحكم - يرفضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السني .

ضيف^(١) الدين الطمساني

هو سليمان بن علي بن جده الله الكوفي الطمساني ، وتدل نسبة إلى تلمسان في الجزائر على أنه مغربي الأصل ، كما تدل نسبة إلى الكوفة على أن بعض آباءه نزل الكوفة واستوطنها فيها يدو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والفلسفات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق
ومصرع الرقائق لعبد الله التلمساني ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .
وديوان ضيف الدين طبع قديما بالقاهرة ويعود .

(١) انظر في ضيف الدين وأشعاره وأخباره فوات
الروايات ٣٩٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الحمصي ٤٦٣/٢
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويدور أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات بقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القنوي أحد أتباع ابن عربي ، ويدور أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خاتمه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكث بها مدة ، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القنوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القنوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكد لها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خطوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كرم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف وتقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجان لأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الحيمى المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار :

لولا الحيمى وطلباء بالحيى عَرَبُ	ما كان في البارق الشجيدى لى أَرَبُ
وفى رياض بيوت الحيمى من إضم	وَرَدَّ جَنَى ومن أكماله الثَقَبُ
لا تندر الحُجْبُ أن تُخفى عَاشَتَه	وإنما في سَناء الحُجْبُ تَحَجَّبُ
ياسلما فى الهوى مما أكابده	رققا بأحشاء صَبَّ شَقَه الوَصَبُ
هل السلامة إلا أن أموتَ بهم	وَجَدًا وإلا بُقَيَا هِىَ العَطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد الهيبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حياه ما كان له أمل وراء البارق النجدي ، ولا كان له ولوع بورد الخلود في رياض بيوت الحى من اضم . ويتصور كأن الأقمعة أو الحجب التى تُسَلَّطُ على تلك الخلود هى أكام الورد ، ويقول إن الحجب لا تستطيع أن تحيى محاسنه إذ تلوب في ساء وضياته للشرق . ويذكر أن أحشائه تستمر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى في أن يموت في حب ربه وجدا وهياما ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لا يفيق مما شرب من دَنِّ هذا الحب الإلهى :

لا تحنوا أنى عن حبكم مالى وحكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين قراى وهو منزلكم لاحت يوما أراه منكم حالى
أنتم بقلبي أدنى من جوائحه حقا على رغم حساى وحلى
لوضحتم حببكم طريقكم حاشاكم تهجروني بعد إصالي

وفي البيت الأول تورية واضحة في كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما في « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لا يزال بحبه لربه حاليا لومضانا بجلى بدية . ويقول إن محبوه الإلهى حال بفزاده وأنه أدنى قلبه من جوائحه وما يحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويضرب إلى محبوه الربانى أن لا يجره بعد وصله . ويقول :

يا أصبحاى بنى سلم من أصبحاى وما التلم
أنا عنى اليوم في شغل فادكروني إن نبيكم
وأشبعوا في الجنى خبرى وأذيعوا السر واكتسبوا
لا يراى الحب مُكْتَسَبًا بعد مالاحت لى الخيم
كنت قبل اليوم في حلم وتغضى ذلك الحلم
فزمان كل طرب دونه الأوتار والقسم

إنه على وشك أن يتحقق أمله في الوصول إلى محبوه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بنى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العلى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له أيام محبوه ، كما يقول ، فيطن أنه في شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يتق من طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحن . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع ختمها عبد الغنى النابلسي مع أبيات متصلة بها لم ننشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبد الغنى ^(١) النابلسي

هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيسرية وجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبد الغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق بأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبُّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان ما تخرج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للرمادي سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعني بالتصوف ، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح العمية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذب به إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويردّد دائما : ليس في الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه الله وجود واحد	حكمة فينا حرام وحلال
وهو حق وسواه باطل	قال في القرآن والسج الطوال
أيها أنتم تولوا ثم وج	له الإله الحق محمود الفعال

الرقائق في صريح اللواجيد الإلهية والتجلات الربانية
والفتوحات الأتمسية : طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية
في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

(١) انظر في عبد الغنى النابلسي وأشعاره وأخباره
كتاب سلك الدرر ٥٣٠/٣ ومفحة الرمانة ١٣٧/٢
وتاريخ الجبرتي ١٥٤/١ وله ديوان الحقائق ومجموع

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : (وفيه المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والآية إنما تشير إلى أن أى مكان من المشرق والمغرب بأمرهم الله باتخاذها قبله تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما يذهب النابلسي وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويقول النابلسي متحدنا بلسان الذات العلية :

أَنَا إِنِّ ذَاتِي ذَاتُ كُلِّ الْخَلَائِقِ وَسَلَّ عَنْهُ ذَا عِلْمٍ كَرِيمٍ الْخَلَائِقِ
وَلَا صِفَةً إِلَّا وَمُنَى تَعَيَّنَتْ لِمُوصَفِهَا إِذْ كُنْتُ أَصْلَ الدَّقَائِقِ
أَنَا الْجَوْهَرُ السَّارِي بِغَيْرِ سِرَابِيَّةٍ أَلَوْحٌ وَأَخْفَى فِي جَمِيعِ الْخَفَائِقِ
أَنَا النُّورُ نُورُ الْعَيْنِ مَنِ تَكُونَتْ عَيُونُ الْبَرَايَا مِنْ مَشُوقٍ وَشَائِقِ

فإنه جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل ما في الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرق بين القول بالحلول وأن الله بجله في جميع الموجودات وبين ما يزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكنْ أَنَا الْأَحَدُ وَأَنْتَ الْأَكْبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله - جل جلاله - واحد . وهى نفسها فكرة وحدة الوجود التى يحاول جاهداً الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يجعله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة البائية بالديوان :

سَاتِقَ الْأُظْلَعَانِ يَطْوِي الْيَدَ طَى مَثِمًا مَرَّجٌ عَلَى كُتُبَانِ طَى

يقول : « سَاتِقَ الْأُظْلَعَانِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْأُظْلَعَانِ : النَّاسُ وَكُتُبَانِ طَى كِتَابَةٌ عَنِ الْقَامَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي عَدَّهَا كِرْمَالُ الْكَتِيبِ ، فَكَأَنَّهُ يَلْتَمِسُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَوْصِلَهُ - كَمَا يَوْصُلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ - إِلَيْهَا » . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سَاتِقَ الْأُظْلَعَانِ المتجه إلى منازل طَى على حافى نجد والحجاز ليشمّل قلباً حتى يجيئ من يمر بهم في طريقه إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه . وطبعي وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيراً من

أشعار للتصوفة علمها لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة ينزل في بنية وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الحمر وساجيا وكأسها وشرايا وحجابها وما تحطت في روحه من نشوة وفي عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام وللتكلمين إذ يدعو إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقل الفلسفى لا كما يؤمن للتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشأن بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بدعية في الاستغفار من ذنوبه وخطاياها امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد اختص موشحا له بقوله :

نورُ طَلْعِ المصطفى منهُ جميعُ الكائناتِ وبه كان الدفق في جميع الشرجاتِ
ونحسُّ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفي الديوان موشحات ودويئات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها للمواليا العامية ، وفي الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

٦

شعراء شعبيون

لا نقصد بشعية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلاله عامتها ، فغالبها جمهور الشعراء في كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرسطراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبى وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونفرا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم الهادى في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجعلنا من هدهام من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف صنعا بكل له عيشه ، مثل يحيى الحجاز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزائن طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامة لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامة هي : الزجل والمواليا ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحال » ينوّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطي إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بجلب راوية ثقة من أكبر رواة هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديواني الزجلين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليس حملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويدكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنها كانت بخط مغربي تعسر قراءة بعضه ، فصصح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعتة ، وأجاز له بخطه ما نقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حيثد بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ودرواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التي عثر عليها جتز بروج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيري باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمانه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم ^(١) ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصح استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تُطرد فيها

العامية ، وما يلقانا من طرائفها قول جويان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة^(١) :

أفارقهُ وأول إني قد انسلَّيتُ وريختُ قلبي وزال هم وانتخَلَّيتُ
واذكر مساويه في حق إذا ولَّيتُ وإذا رجعتُ نِسبتُ الكلَّ وانتخَلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة « وانتخَلَّيتُ » المكررة قافيةً لليتين ، والأولى من التخلَّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، ففسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها ويُبعد عن الهم .

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسي سيد قومه الصحابي الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا^(٢) :

البدر والسُّدَّ ذَا شَيْهَكَ وَذَا نَجْمَكَ وَالْقَدَّ وَاللَّحْظَ ذَا رَمَحَ وَذَا سَهْمَكَ
والبغض والحب ذَا قِسَى وَذَا قِسْمَكَ وَالْمَسْكَ وَالْحَسْنَ ذَا خَالِكُ وَذَا حَمَكَ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح وحظها فائق قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجبتها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة « عَمَكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذِي قَابِلِهِ لَاخِنَهَا وَالْقَصْدَ تُسَمِعُنَا مَا النَحْوُ؟ قَالَتْ لَهَا : نَحْنُ بِأَجْمَعِنَا
الرفع والنصب نا وانتي ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نَحْنُ هي نحن بالفصحى . ونظَّم أصحاب المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلُّوا التصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقي في ديوان عبد القى التابلسي بنحو ثمانين مواليا نكتفي منها بقوله^(٣) :

نثرى بردى ١٢٧/١

(١) نوات الوفيات ٢١٨/١

(٢) ديوان الحقائق للتابلسي ص ٢٦٨ .

(٣) راجع في هذه المواليا وتاليفها النبل الصافي لابن

الباطن السابق الظاهر هو للسبق والكل واحد فكن أهل من العيوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامتنق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق
فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى
هي وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها للخنون والنتشودون يفتاد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحورهم
استمدادا للصوم ، وكانوا يختمون كل يمين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت
اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البضاديون وزنه لنظم الحكايات
والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسوا به فنظموا فيه اللواظ والزهديات والحكم كما مر بنا في
قسم مصر . ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة ^(١) منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذي
امتحن به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبد الغنى التابلسي منظومة صوفية منه في
عشرين ^(٢) بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة بجملة عن
أبي العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو ^(٣) العلاء بن مقاتل

هو علي بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ هـ ، ويقول ابن حجر إسناده « تعالى الأدب فسلم
الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الرجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان
هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ هـ ، ويذكر ابن حجر: أن له
زجلا مشهورا في الملك للزيد صاحب حماة (٧١٠ - ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصنى
الحلى . وكان الصنى قد نزل حماة ومدح المريد وابنه الأفضل في أول شعر العقد الثاني وأوائل الثالث
من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموي في خزانة كالا : « وكان الشيخ علاء الدين بن
مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجنده وأبا حنيفة ، ومن سُلِّمَتْ إليه مقابله هذا الفن . وأورد
الشيخ صلاح الدين الصفدي تبليغا من غرر أزجاله في تذكروته وتاريخه تغنى عن الإكثار في
ترجمته . » ويشيد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستله على هذا الخط :

للحموي ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والندرة الكائن في أمهات
لغة الكائن لابن حجر ٢٠٨/٣ وأند التولجي له في كتابه
طود طوك سنة أزجال (انظر فهرس)

(١) تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردى

٣٠٢/٢

(٢) ديوان الخفائق للتابلسي ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبي العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب

قلبي يحب ثيابه ليس يبعثق إلا إياه
 بنز السها لو يطبع
 صغير يحترق في أمرو غزال قهر يمشرو
 رم ابن عشر وأربع
 أذكر نهار نبتو وروحي كنت بعنو
 ارجع ولالي تبع
 كم قدامو وخطفو مشيت مطيع للخطفو
 فإن لم إصنع
 فازمن وقف وحياته يرصد على محياه
 من رام وصاأو يعطب
 لبث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو
 أزدى الأسود وأزعب
 وخيب ما فيه طمعنو فقال وقد سمعنو
 أخشى عليك لتعب
 ورؤمت لكم كفو قال دغ منك وكفو
 من الثريا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ
 بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « ثيابه » تجذب إياه و « حياته » تجذب محياه ، وبالمثل
 « يطبع » في القفل تجذب يعطب . وكأننا في مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم في الزجل اتساقا
 بديعا ، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخضتها ورشاقتها ، فصاحته بدر في السماء
 لاتصل إليه الأيدي ، وهي غزال تقهر بعينها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث
 والنمور . وتهلكها وترعبها رهبا . ونصيحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول ثم
 كفها أو أغلا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهي صنعة زجلية
 رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس للقلوب في الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ،
 فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أرب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبح تقابلها أصعب .
 وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التي لا تخشى فتا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها
 تغريد عندليب مع ما يحمل العنديل أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، ويحق يقول صاحب
 الحزنة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الحزنة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذ الديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم ^(١) أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وبهذا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في اللزومة من البيان والبلاغة ليرسبهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهمي أنباء طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما غنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأدخلوا يشاركون في ديوان الرسائل ^(٢)

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) حتى يصحح زمام ديوان الرسائل في دمشق يد مول هشام هو سالم ^(٣) ، وكان يقن اليونانية وقتل عنها بنقص رسائل لأرسططاليس ^(٤) ، ومعنى ذلك أنه كان متقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعلمه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة ^(٥) واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسري ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوقي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(١) الوزراء والكتاب للجهمي (طبعة الحلبي)

(٢) الجهمي ص ٦٢ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

ص ٢٤ .

(٤) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

(٥) انظر في ذلك الفن وملاحقه في النثر العربي ص

السياسة تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله ، وثانيها من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب اللواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعد الحميد وتُختم بابن الحميد » ^(١) ويقول ابن النديم : « عنه أخذ للقرسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سيل البلاغة فى القرسل » ^(٢) ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التحييدات فى الكتب » ^(٣) ، واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على غرور طائفتهم وأنهم أخطوا بشكّون فتنة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية ^(٤) . وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصنائع إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوّلها إلى اللسان العربى ^(٥) ، وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة ^(٦) طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبدالله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شؤونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد للديوان الإنشاء كبير أثر فى عصر الولاة الطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع للدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحت طوال القرون : الثانى والثالث والرابع متشددتين إلى ديوان بغداد وكتابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى القسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظّل دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سني الدولة^(١) ابن أخى الشاعر ابن الخطاط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العباد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليد ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان عمله عندنا خطيرا ، ومكانه لدينا مكيئا أثيرا ، لاقرين بحاربه ، ولا نظير بمثاله ويأريه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركته أركانها ، وسددنا به مكانها ، وهولنا عليه فيها ، واستنضناه لتوليا ، ورأيناه كخفاها وكافيا ».

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الرشاقة والعلوية . وكتب بعده سلاطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد^(٢) الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوسع وسخن وعصبانة ، ولم يذكر العباد شيئا من كتاباته .

ويُظَلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العباد فيه : « كان نور الدين رفضه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمركأنه أشركه فى الملك معه »^(٣) ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أنظفها حكمه جاء فيه^(٤) .

« وقد علمت - معاشرا رعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المبهضة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيفة عليكم فى أرزاقكم ، ولتؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن تؤرض الله - عز وجل - لنا - تدير أموالكم ، واسترحانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوه شبهة ولا تأولا » .

وبلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر^(٥) شاكِر بن عبد الله للمرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستغفاه من الخليفة سنة ٥٦٣

(٤) انظر طرح الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعده .

(١) انظر فى سنى الدولة الحريدة (بداية الشام) ص

(٥) الحريدة (قسم الهام) ٣٥/٢ وراجع فى أبي اليسر تعريف القدماء بأبى الطلاء ص ٥٠٤ .

(٢) الحريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتعليق تاريخ ابن صاكر ٢٧٧/٧ والتجويد الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الحريدة ١٢٥/١ .

فَأَقَامَ الْعُمَادُ الْأَصْبَهَانِيَّ مَقَامَهُ ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ - كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ - التَّدْرِيسَ فِي مَدْرَسَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ
 لِلْمَدْرَسَةِ النَّوْرِيَةِ الشَّافِعِيَّةِ . وَوَصَلَهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ بِصِلَاحِ الدِّينِ فَرْسَمُ بِاسْتِكَابِهِ فِي دِيْوَانِهِ
 بِالشَّامِ ، وَسَفَرْدَ لَهُ تَرْجُمَةً مَجْمُوعَةً ، وَهُوَ أَكْبَرُ كِتَابِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ فِي دِمَشْقَ وَالشَّامِ غَيْرِ مَنَازِعَ .
 وَتَحَوَّلَ الشَّامَ إِلَى إِنْطَاعَاتٍ بَعْدَ زَمَنِ صَلَاحِ الدِّينِ ، حَتَّى لِيُوشَكَ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ بِلَدٍ أَمِيرٌ أَيْوُبِيٌّ ،
 وَيَتَخَذُ كُلُّ أَمِيرٍ لِنَفْسِهِ كَاتِبَ رِسَالَتِهِ نَابَهُ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ غَيْرُ مَعْرُوفٍ مِثْلُ ابْنِ النَّيْبِ كَاتِبِ الْأَشْرَفِ
 مُوسَى ، وَهُوَ مَشْهُورٌ بَيْنَ شِعْرَاءِ الْغَزَلِ فِي مِصْرَ ، وَمِثْلُ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ شَيْثٍ الَّتِي تُوُفِيَ سَنَةُ
 ٦٢٥ صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ لِلْمُعْظَمِ عَيْسَى الْأَيُّوبِيِّ صَاحِبِ دِمَشْقَ ، وَلَهُ كِتَابٌ فِي عَمَلِ
 الدَّوَاوِينِ وَتَقَالِيدِ الْكُتَابَةِ الدِّيْوَانِيَّةِ لَزِمَنِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ سَمَاءُ « مَعَالِمُ الْكُتَابَةِ وَمَقَامُ الْإِصَابَةِ » وَهُوَ
 مَطْبُوعٌ قَدِيمًا بِبَيْرُوتَ ، وَهُوَ أَحَدُ مَصَادِرِ كِتَابِ صَبْحِ الْأَعْشَى لِلْقَلْقَشَنْدِيِّ . وَيَكْثُرُ مِنْذُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ
 وَدَوْلَةِ الْمَمْلُوكِ أَنْ يَمْعَدَ بِرِيَاسَةِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِمِصْرَ إِلَى مَنْ يَظْهَرُونَ تَفَوُّقًا فِي إِسْنَادِ هَذَا الدِّيْوَانِ
 إِلَيْهِمْ بِدِمَشْقَ ، وَنَذَكَرُ مِنْهُمْ تَاجَ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الْأَثِيرِ الْحَلَبِيِّ الَّتِي تُوُفِيَ سَنَةُ ٦٩١ لِلْهِجْرَةِ ،
 عَمِلَ فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْقَاهِرَةِ فِي عَهْدِ الظَّاهِرِ بَيْرْسَ
 وَقِلَافُونَ ، وَظَلَّ يَتَرَقَّى إِلَى أَنْ وَلِيَ كِتَابَةَ السَّرِّ ، وَيَقُولُ ابْنُ تَغْرِيٍّ بَرْدِي : « لِكَلَامِهِ رَوْنَقُ
 وَطَلَاوَةٌ » وَيَذَكَرُ مِنْ إِنْشَاءِهِ كِتَابًا عَنْ قِلَافُونَ إِلَى صَاحِبِ الْيَمَنِ بَفَتْحِهِ لَطْرَابِلُسَ وَاسْتِيلَاةِ عَلَيْهَِا
 مِنْ أَيْدِي الصَّلَيبِيِّينَ نُورُهُ فِيهِ بِاسْتِعْلَاءِ قِلَافُونَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْحُكَّامِ الْقَاعِدِينَ عَنْ مَنَازِلَةِ حِمْلَةِ
 الصَّلِيبِ الْغَارِقِينَ فِي اللَّهْوِ ، يَقُولُ (١) :

« وَكَانَتْ الْحِفَاءُ وَالْمُلُوكُ مَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ هُوَ مُشْغُولٌ بِنَفْسِهِ ، مَكْبُورٌ عَلَى مَجْلِسِ أُنْسِهِ ، يَرَى
 السَّلَامَةَ غَنِيمَةً ، وَإِذَا حَقَّ لَهُ وَصَفُ الْحَرْبِ لَمْ يَسْأَلْ مِنْهَا إِلَّا عَنْ طَرُقِ الْخَزْمَةِ ، قَدْ بَلَغَ أَمَلُهُ مِنَ
 الرِّبَةِ وَقَعَّ مِنْ يَمْلِكُهُ بِالسَّكَّةِ وَالْخَطْبَةِ ، وَأُمُورَالِ تَنْهَبُ ، وَعَمَالِكُ تَلْعَبُ » .
 وَيُرِيدُ بِالسَّكَّةِ ضَرْبَ النُّقُودِ وَنَقْشَ أَسْمَائِهِمْ عَلَيْهَا كَمَا يُرِيدُ بِالْخَطْبَةِ دَعَاةَ خُطْبَاءِ الْمَسَاجِدِ لَهُمْ فِي
 خَتَامِ خُطَابَتِهِمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . وَتَوَلَّى بَعْدَهُ كِتَابَةُ السَّرْرِ الْقَاهِرَةِ ابْنُهُ عُمَادُ الدِّينِ حَتَّى تُوُفِيَ سَنَةُ ٦٩٩
 وَشَغَلَ مَكَانَهُ أَخُوهُ عَلَاءُ الدِّينِ عَلِيٌّ فِي عَهْدِ مُحَمَّدِ النَّاصِرِ بْنِ قِلَافُونَ .

وَأَكْبَرُ كِتَابِ الشَّامِ الَّذِي رَأَسُوا دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ وَالْقَاهِرَةِ الشَّهَابُ مُحَمَّدُ الَّتِي تُوُفِيَ سَنَةُ
 ٧٢٥ ، وَقَدْ مَرَّتْ تَرْجُمَتُهُ بَيْنَ شِعْرَاءِ الْمَدِينَةِ وَاحْتَفَظَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ فِي صَبْحِهِ بِبَنَازِجٍ كَثِيرَةٍ مِنْ رِسَالَتِهِ

وتوقعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعته التوسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسالته تدخل في ثلاثين مجلداً وأن بعض الفضلاء اختار منها مجملين ، ومن قوله في النهاية بتقليد سيف^(١) :

« وقوله ميتاً : سيفاً تلمع عجايب النصر من غيظه ، وتشرق جواهر الفتح في فريته ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حده ، ومضى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائم ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قواصمه ، وعلم أنه سيفنا الذى على حائق الملك الأهر نجاهه وفي يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان للتويد شيخ أيام نيابته بمشقه ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربا إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بمعهد عن الإمام للمستعين (الخليفة العباسى القيم بمصر حينئذ) للسلطان للتويد شيخ ، وفيه يقول^(٢) :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتصاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات حزمه بائدة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان شيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى وقته الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرءاء ، آمنة من الردى ، وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسلدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيا جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بائدة وبائدة » وه أحكام وإحكام » وه الرءاء : التوب (كتابة عن الأحوال) والردى : الحلاله . ويضج أيضا للسمع الداخلى في المسجمة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

السيف : حاله .
(٢) صحيح الاطلاح ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجم
الزاهرة ١٦١/١٤ .

(١) حسن التوسل إلى صناعته التوسل طبع للطبعة
التركية ص ١٠٠ . وفرنند السيف : لحان صفحه .
والقوام : ربقات الطائر الكبار في جلاله . ونجاه

وعين ابن البارزى في ديوان الإنشاء أدبيا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى في كتابة السراية كمال الدين ، وكان تارة يُعزل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وقاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم في الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة في ديوانها الكبير كُتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها للملك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن ندره في وصف قلعة (١) :

« لا ترى العيونُ بعدَ مرماها إلا شُرَّرا ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفظها كالبحر إلا أن هذا عذب فِرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كُتّاب السر في دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأنير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفي سنة ٧٩٣ وكان بارعا في الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام في رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدهى المتوفى سنة ٨١٦ ولي نظير جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضائها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أدبيا فصيحاً ذكياً (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفي غيرها من بلدان الشام . وتقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابيين .

(١) فوات الروايات ١٥٩/٢ . النظر الشد : للسيف ،

(٢) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٥

فِرات : حلوا . أجاج : شديد للوحدة .

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٢ .

الحمد (١) الأصماني

هو حماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصميان سنة ٥١٩ هـ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصميان سنة ٥٥٢ هـ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفي ابن هبة سنة ٥٦٠ هـ وسُجن الحماد فيمن سُجن من أتباعه ، وودّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يسدّر مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ هـ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقلّعه قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قلّعه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستجد ببغداد ، وبلغ في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ هـ التدريس في مدرسة النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له للمدرسة العادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ عزلت حاشية ابنه إسماعيل الحماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدّم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد ثورا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقلّعه إليه وزيره القاضي القاضي القاضي ، ورغبه في إلحاقه معه بخمسة ، فاستكبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استغفاه من عمله . وزار مصر حيثئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره بصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ .

والحماد الأصماني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يعبد القارسية

الناحية لسبكي ١٧٨/٦ والجمالية والنهاية ٣٠/١٣ ومآذ الجنان ٤٩٢/٣ والفتاوى ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرس) . ولـ كاتيه : البقي القاضي والحريفة أخبار وأقطر كعبة له .

(١) انظر في ترجمة الحماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن حطكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع محققة والجزء الثاني من مفرج الكرب لابن واصل وعبد الحمدي ٢٩٩/٤ والرواي بالرفاهات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَبَّنَا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وخوجانتهما وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وحُصْرَةُ القَطْرَةِ في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونجدة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب المُعْبَى والمُعْبَى في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب لحظة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عجم الهاد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حملة الصليب ومُرُفَهُمْ تخزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يشير بالنصر للمين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه الهاد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كرم ، أنقذها الله من حَيْدِ بنى عَيْدِ الفاطميين وأطلقها بمطلقات أَعْتَبْنَا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شعبة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرننج بها مطيعة لمن حَقَّقَا أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتح لأحصل رَحمته ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام ونغور الاسلام إلى اصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في ييكارها (حربها) مستقاً من كفارها منحلاً لمشائها على غلاء أسرارها » .

وقد جانس الهاد في أول القطعة بين « عَيْدِ وحَيْدِ » وبين « أطلقها ومطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأكل في

جمهوره الأكبر. ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه الهاد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب، وما كان أكثر انتصاراته، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب الهاد سبعين بشارة، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف الهاد فيها المواقع وصفا تفصيليا. ويسوق للورخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد، وفيها يقول، بعد إطنابه في تمجيدها وشكر الله على ما صنع نعمائه على الإسلام والمسلمين.

« هذا الفتح العظيم، والثبج الكرم، قد انقضت للولك الماضية، والقرون الخالية، على حَرْقِ نَمِيهِ، وجيرة ترجيه، ووحشة البأس من نسيهِ (انفكاك عقدته) وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس، وأعادته من الرُّجس، وحقق من فتحة ما كان في النفس، وبذل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحيا ذُلُّ أُمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضللال من البطرك والقُس، وجدة الصليب ومستقبل الشمس.. وأخرج من يته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقع من كان يقول: إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد. وأعان الله بإزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح». والطباقي كثير في القطعة، والجناس يثر فيها من حين لآخر. وقد يُكثر منه في بعض رسائله ككرة مفرطة، بل هو أهم محسن بلدي أكثر من استخدامه، وعابه الصفدي بهذا الإكثار، متمثلا بقوله في جواب مكتبة:

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل قبضه المستبض، وتبليج (إشراق) وجه وجاهته وتأرجح (انتشار) نبأ نباهته ماعرفه من حوارفه (فواضله) البيض».

يقول الصفدي معجبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة: «انظر إلى قلق هذا التركيب وتعضفه في هذا الترتيب». ويقول السبكي مطلقا على كلام الصفدي: «الأمركا وصف، ولقد مجَّ صمى فواتح أبواب كتاب غريدة القصر، لما يكثر فيها من الجناس ورد العجز على الصدر». على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه «حين يخلو كلام الهاد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه، وينسج في الإحسان صَفَمَه (جانبه) ويرشف اللُبُّ مدامه، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيب من تغريد حمامه».

الصفدي^(١)

هو صلاح الدين خليل بن أليك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ هـ وفي أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وانتقل بين دمشق والقاهرة يأخذها من كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرر بموطنه صفد ، يكتب مايقع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حيثئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ هـ وأعجب بالشاب الصفدي ، وعينه في كتابة اللُثث ، حتى يعاونه في عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، ونُخرج على يديه شاعرا ، كما نُخرج على يدي الشهاب محمود كتابا مجيدا . وتوفي الشهاب محمود سنة ٧٢٥ هـ على نحو ما مر بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وتعين رئيسا لديوان الإنشاء بحلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة اللُثث مساعدا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التوقييع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأُضيفت إليه حيثئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفة إلى أن توفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموي للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتبنا ظاهرا ناظرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأبدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموي في خزائنه مرارا ليدكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لحظي شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه : خبز الشعر ، يشير بذلك إلى أن عمله ملموم نفس ملزمة خبز الشعر وأكله : وشعره في جملة متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بَسَمَهُمُ الْحَاطِطُ رِمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجَرِهِ وَبَيَّنْهُ

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١

والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداءة والنهاية لابن كثير

٣٠٣/١٤ وطبقات الناصية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها

وشلوات الذهب لابن العباد ٢٠٠/٦ والدرر الطالع ٢٤٣/١

وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صحيح

الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٢٥١ .

إِنْ مَتَّ مَالِي سِوَاهُ خَصْمٍ فَلَنَه قَاتِلِي بِعَيْنِي

وبعد من أكبر المصنفين في التراجم والأدب والديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته في التراجم كتاب الوافي بالوفيات ، وهو في نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أحوال النصر وأعيان مصر » من الأدباء والشعراء وهو في ستة مجلدات ، وفي دار الكتب المصرية منه مجلدات مفرقة . وألف في مشاهير المكشوفين كتابه : نكت الهميان في نكت العبيان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهي مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع في انسكاب النعم : دمع الهين والعشاق ، وله في المحسنات البيعية كتاب فض الحتام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله في النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبي الحديد) على للمثل السائر لابن الأثير ، والغيث للمسجم في شرح لامية العجم ، وهو شرح ملهى بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بليغ عن ابن سناء لذلك لزاء مااتهم به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامة ، وشرح رسالة ابن زيدون الجلدية بشرح سماه « تمام للتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف معين من المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل للتبادة بينه وبين أدياء عصره .

وكانت رسائل الصفدى اللبوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحفظ منها القلقشندى إلا برائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدير شئون دمشق من أمن وضراب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد بها المتقون ، ومثال النعم للذين عند ربهم يبرّزون ، وهي زهرة ملكنا ودرّة سلكتنا .. تعين أن نتدب لها من جريته بعدا وقربا ، وهزناه مطلقا^(١) وسلكتاه خفيا^(٢) » وخبائنه في مخزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدخّر ، وأحرّ ما يُحبّا ، كم نهى في الأيام وأمر ، وكم شدّ أزرا لما وزد ، وكم غنيت به أماننا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا دُرى رتب تعرّ على الكواكب الثابتة فضلا عن يتنقل في المباشرات^(٣) من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى^(٤) فأعادها ريعا غرد به طائر الإقبال وصفر . فليطق هذه الولاية بالعم الذي نعهده ، والحزم الذي شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذي يعترف الصواب له

(١) مطلقا : سها صفويا

(٢) المباشرات : الأمان

(٣) جمدى : يريد قلعة

(٤) مضا : قلعة

ولا يمحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب ، وتريد نموا وسعوا فضوق الأمواج في البحار
وتفوت القطر من السحاب .

وواضح مافي السجدة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويتمس الصفدى
بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إصراف ، كما يتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير
قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا في اجلاب السجعات . ومن توقعاته توقيع كتب به
لكاتب السر بلمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية
جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد ^(١) بها تبين فوارس
الجلاد في مضائق الجدال ، وتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شمس الجبال فيها لها
من فيض الجبال . والمدرسة الناصرية - أتاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والذرة
الغنية بلا كُفء لها بين قيم نفودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها ^(٢) البناء ، وتخرج عنها
الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العلى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح
وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحر من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاد وجدال »
و « كلام وكال » و « جبال وجمال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك يقع من
نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في
جناساته ، بل هي تأتي عنده تاجرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه للشقة في
التكلف . وكثير من جوانب توقعاته سلس سائع . وكان محيا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل
للودة .

ابن حجة^(١) الحموى

هو قى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى ، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتروّد من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدياء مصر من مثل ابن مكناس الذى مرّت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى موطنه كتابة السربها ، وكانت قد توفقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذ كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحوّل السلطة من الملك للظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر طغرلق ابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حماة ، وظل بها مكبا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعة فى المديح النبوى وما حمل أيتها من محسنات البديع لزمه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا بعرض فيه مختارات نظرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلام ببعض القواعد المهمة التى ينبى أن تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشرحات اللعب لابن العماد ٢١٩/٧ والتجويد
الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه عزارة
للأدب فى مواضع كثيرة ، والبدور الطالع للشوكانى ١٦٨/١
والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض الطاهر للنفائى

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والياغم لابن المبارك بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزنة بباب لإرسال للثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد فى الخزنة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكاني : « قد بأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونفره أحسن من نظمه » . وفى الخزنة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستلال والسجع وحسن الخطاب . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالثام ثم ما أنشأه فى عهد المريد ثم فى عهد الملوك المنقر والظاهر ططر والصادح فى كتاب سماه « قهوة الإنسان » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تأهيل الغرب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشاره له بوقاه النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المريد شيخ :

« وتبدي لطمه الكرم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحسن وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع ^(١) عليه ، وقيل نوره الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فالت غصونها إليه .. وحسن مشهى الروضة فى صدره وحناً عليها حنو المرضعات على القطيم :

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألد من المدامة للتدبير

ورواق مديد بجره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلاته الحمرة فخلعت بجلو الثبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعشاب فاتى الثوى والحب ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبات وأحيا له أمهات الصنف والأب .. ونسى الزهر بجلالة لقاءه مرارة الثوى ، وهامت به مخدرات ^(٢) الأشجار فأرعت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدمر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة .

والسجع فيه علوية ودلالة واضحة على طواحيه فوائده لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، وما غضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

الآيات فلا يريد آيات الشر وإنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات المصنف ، وهو ورق الشجر والزروع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب موزياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى المشب أعداً من قوله تعالى : (ولا كهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى الثمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن طلاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الحوى تورية لأن لها معنيين : المشق والريح ، وأيضاً في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشع لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصوراً علمه :

« هو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفرأهم ، وأبو المهات الذي شَهر من العُدة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرح يأتيها في وجيز تقريره بالعجاب ، وبغيتها من موضح القسمة فإنه يظنينا في إبانته بالباب .. وقد وقع العريه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وهيون المسائل وتاج رموسها والمذهب الذي تهذبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مادخلنا بسطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولا نظرننا إلى حليته الجلالية إلا غبنا عن الصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليحة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجدة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعزيز عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجدة إلى وجيز الإمام الغزالي وتحريره القفال الشافعي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدي في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للقرافي ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهديب للبغوي وأدب القاضي للهاوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد روية وتأمل فيها ابتغاء عنها من توريات .

الرسائل الشخصية

مرَّبنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتباً لها حيثذ من كبار الكتاب من لا تزال أسلؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة^(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ما عُرِف به من إحكام القوافي حتى يروع الأذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العُشاي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية^(٢) تنوج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاغ في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعمموا في رسائلهم الشخصية . ولعل كتاباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد^(٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البهاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكتاباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول التعالي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى التعالي من رسائله كقوله مثباً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطؤود وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقدار لحروفه مطرقة ، نحمده أوليائه ، وتشهد له بالفضل أعدائه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيلنا عُدته ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَرَجَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيضة ٢٣٦/١ وما

بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ وعبر الدهر ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت

(طبع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ٢/٣٤٤ وفي مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، حُثبت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . ولولاها رسالة السَّيِّح وهو القَيْدَح الثامن من قِدادح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كفى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجَّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتصوَّع ^(١) ، وللذكاء نار تشرق وتلعب ، فقد فُتِمَتْ ^(٢) على بُعد الدار أَرْجُ ^(٣) أدبه ، وبها الليل عتا ذكاؤه بطلُّه ، ونحو ^(٤) الأصماع شُتُوًا ^(٥) غير ذاهبة ، وأطلع في سريداوات القلوب كواكب ليست بقارية ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وهب لنا شرف عَظِيم ، وأتَى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحرير ^(٦) ، ومالك أمة النظم والنثر ، قرأته نُسُك ، وغتامة بل سائرهِ يَسُك ، وفي ذلك طينتانس للتنافسون . جلَّ ^(٧) عن الضيل فظلاله المقلَّبة ، ونَزَّه أن يتطل فسحة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة ^(٨) ، على ما ضمن من الملاحاة ، والحشية على دُجى مداده من التزوُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لمكفت عليه الأفواه بالألُّم ، والمولون ^(٩) بالانتشاء ^(١٠) ، والشَّم ، حتى تصير سطورهُ لَمَى ^(١١) في الشفاء ، وغيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظه الدين من القمار لضربنا عليه بالسجة الفائرة ، والثلاثة التي ليست لحظًا

(٧) جل : تَرَّه

(٨) الإلاحة : الإضفاق

(٩) المولون : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب وغيره .

(١١) لَمَى : سمره حسنة في الشفة .

(١) يتصوَّع : يفرح .

(٢) فُتِمَتْ : مَلَأَتْ أُنُوفًا .

(٣) أَرْجُ : شدى

(٤) نحو : أحصى

(٥) شُتُوًا : أفرطاً

(٦) الحرير : العالم

بالخاتمة .. فيا شرفه من صَكُّ بالفخر ، يَبْجَعُ به على الثُّغْرَاءِ حَيْرِيٌّ^(١) الدهر ، موشحًا بكل شَتْرَةٍ أعذب من سُلَافِ العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح^(٢) عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنبح - وهى طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجمة ، بل مع غير لفظ فى كل سجمة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أوكأنما كان يعده زينة بنضى أن لا تخلو منه سجمة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة للبعده فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يسهه أن تكون الكلمة مما دَوَّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشق عنه الطلع من الحيات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمَ الطاء فى الهاء ، فذلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والمهمس ، بمترلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لا تنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت حُرُف شافى ، وإن غبت لم يُجْهَل مكافى ، كيا فى النداء ، والمهلوف من الابتداء ، إذا قَلْتُ زَيْدٌ أَقْبَلُ ، والإبْلُ الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أَلْقَيْتُ فبواجب ، وإن ذُكِرْتَ فغير لازم^(٣) ، إني وإن غدوتُ فى زمن كبير الدِّ^(٤) كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتى بالمنكر ، مع إلفى يرانى فى الأصل كآلف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت^(٥) الرصين ، فهى لا تثبت على طريقة ، ولا تُنْزَكُ لها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل نغمته عناية الله إلى أبد الأبدىين أوكما يقول إلى أن تدغم الطاء

(١) الدد : الدهر والظهر والعب .

(٢) ييجع : يضر . حيرى الدهر : أهد الدهر .

(٣) الحروف المحققة كما سوى حروف اللين والمد .

(٤) يوح : اسم الشمس .

(٥) لازم : لازم .

في الهاء وهي لا تندغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهول الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكد صوته يمين ، فهما من طيحين مختلفتين ولذلك لا بدغان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذ هما بسبب رغبهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جملة معروفاً رفيع الشأن حضراً أو غاباً مثل باء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع اللادى أولم تذكر ، ومثلها للمبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فضول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قيل أن يضمه أبو القاسم في مترته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لَمْ تقول فيها له ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوتاه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع للذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان المقياس في العرية المكس . ولا يكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالسكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الحمزة تبدل أحياناً عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَنَ ، وقد تنطق بين الحمزة المحققة وأختها للسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لا تثبت في العرية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوي لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحجوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك بصمما : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات طلمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشرط الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

للمصطلحات تصويراً لمهارته البائية . ونخل الرسائل بنقد خلق واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكثف بسجمات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أنى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوق إلى سيدى الشيخ شوق البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُمحلة ^(١) ، وانتفاهى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة ^(٢) ، وتثشوق لأخباره تشوق راعى أنعام ^(٣) أجلب فى عام بعد عام ، لبارق ^(٤) يمان ، هوّله مرتقب ممان ^(٥) . وأسنى لفقده أسف وخشيّة ^(٦) ، رادت ^(٧) بالمشيّة ، فخالقها السرحان إلى طلال ^(٨) راد فحار ^(٩) فهى تطوف حول أميل ^(١٠) ، ونرى صبرها ليس يجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم نذى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وقد ^(١١) الأعاجم ، وربّ الماشية ظهور الثبّت الناجم ^(١٢) . »

وبدون ريب تُعدّ رسائل أنى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُتمى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجتين فيها تتفقان لاقى الحرف الأخير فحسب للمقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودالما نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة المعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجاته معارفه الكثرة التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاهدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس التامس مثل : « للمحلة والمسلحة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجاته به وبغيره من محسنات البليغ وخاصة الطباق والتساوير .

(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلال

(٨) الطلال : ولد البقر . السرحان : اللذب

(٩) حارها : بحير

(١٠) أميل : كتيب حال

(١١) يريد : لعلوم ولورد المصحح الأجانب

(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(١) المسحلة : المطرة

(٢) الأريضة : الطية . الغريضة : للبكرة

(٣) الأنعام : الابل .

(٤) البارق : السحاب يلعب فيه البرق ، وجطه يمينا

حتى لا يخلف مطره

(٥) يمان : متناول

(٦) يريد بقرة وحشبه

(ب) رسائل متنوعة

طبعي أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهتين على منصب كبير أو معاتنين أو مشين مادحون أو معتزلين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فقيده عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة يبكون وقد خفتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائي الشاعر الكاتب والفزى إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصماني : « كانت بينها مكاتبات مفيدة وبينها نسب الفضل المؤدة الوكيدة » ويسوق العماد للفزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها ^(١) :
 لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليتفضل المجد حاميا - إذا علق
 بعرض الكرام كان كالتار في المنلى ^(٢) ، يوح بسر طيه الحقى .. فإن وقع من السفهاء إظك
 فدايته ما ظهر لهم من انتائه ، وانتساب مژنته إلى سمائه .

وانتخاب الفزى لألفاظه واضح ، فهو يحمد الكتابة كما يحمد الشعر ، وهو يخفى فيها بالتساوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمته له بين الشعراء نزع عن دمشق إلى قلعة شيزر في الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسرجه إلى دمشق فكتب إليه يستعديه : وأجابه ابن منير برسالة طويلة محتلرا يقول فيها ^(٣) :

« إن جراحى إلى الآن لم تلق حلوة الاندعال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحل والترحال ،
 وبين جرائعى من الأين ^(٤) ، لما لقيتُ بدمشق من الفين ، مالا يحله إلا عقد الكفن ، ولا يرفع
 حده إلا التيمم بصعيد ^(٥) المدفن . ويلفلك فلان وعلان من كل ذى خلق تميم ^(٦) ، وخلق
 ذميم ، وأصل لثيم ، وفرغ زيم ^(٧) ، ووجه لطيم ، وقفا كلم ^(٨) ، وهلم جرا من عذاب ألم ،
 وصراط في الود غير مستقيم . »

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل في

(٥) الصعيد : القلب

(١) الحريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٦) تميم : تميم . ذميم : ملعوم

(٢) المنلى : مرد الطيب

(٧) زيم : دعى

(٣) الحريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٨) كلم : جريح

(٤) الأين : العاء .

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول جواراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاق وتعاانق لجملها في الجرس وحسن الأداء . ويورد الهاد في الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وذير صلاح الدين وكتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحلثا عنه بضمير الغيبة ^(١) :

« ماضى أن يقول مطربه ومادحُه والفضل نُفَّة من بجره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، نفرد به فاله فيه من نظير ، وسبق من تقدُّمه في زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا ترينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأنى بآياتٍ فصاحةٍ كادت أن تُثلى في المحارب ، إذا استنطقتْ ازدحمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودرُّ إلا أن بجره حُرَّ سلسال . »

ونمضى إلى أيام المالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم في دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب في رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوصل إلى صناعة الدرسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الريح في الدرسل البديع » وعنه ينقل كثيرا الفلقشندي في الجزء التاسع من صبحه ، وما نقله عنه رسالة في التهئة بعيد الأضحى جاء فيها ^(٢) :

« جعله الله أربك الأعياد وأسعدها وأيمن الأيام وأجملها ، وأجمل الأوقات وألَّها وأزغدها ولا يرح مسرورا مستبشرا ، منصورا على الأعداء مقتندرا ، مسجودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودا ، مهتئا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبه الله من السعادة أجمل حلة ، ومنحه من المكارم أحسن حلة . »

وكان الشهاب محمود يعنى بترتين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس للمعكوس كما نرى في قوله : « مهتئا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة . »

ونلتقى بعمربن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتباً ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ هـ ، وفيها يقول ^(٣) :

(٣) انظر ديوان عمربن الوردى ، طبع الجواب في

مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣

(١) الخريدة (قسم الثام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأضنى ٤٦/٩

« بلغى انهداد الطود الشامخ ، وزوال الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروه بالتدب وذلك فرض ، فشرقت^(١) أجنان الملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالطوم تبكيه ، والحاسن تترى فيه ، والأفلام تمشى على الرؤوس لفقده ، والمصنعات تلبس حداد المداد من بعده .. ولاخاص إلا حزن قلبه ، ولعام إلا طار لبه » .

وكان يحنح في نثره وشعره إلى استخدام للمصطلحات العلمية ، وقد تصنع في هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والتدب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى بحلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى : التدب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأفلام تمشى على رموسها حزنا وهى فعلا تمشى على رموسها أو عبارة أخرى تكتب برموسها ، فاستغل ذلك في نعزته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سيكيتاً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله^(٢) : « الملوك ينتهى وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء ، وتلقه ماغابت إلا وصلت الأفلام من تقشيرها إلى الحفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب^(٣) ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب .. أنملة صبح تفتت بسواد الدجى ، فوؤذتها بـ (الضحى والليل إذا سجا) .. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، ولقائمتها الحد حافلت الأفلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح في القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر في سجمة معه فجاء بالشفاء والحفا وأصله رقة الحنف ويريد بالمألوفة في تشليب الأفلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الخلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد للضحى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأفلام .

ونحنى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة في تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرمى الكرمى للتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة في معاتبته^(٤) :

(١) شرقت : طفت .

(٢) نصاب السكين : شطبها

(٣) فتحة الرحمة للبحر ١/٢٤٧

(٤) عزارة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُتصر ، أو كالعتقاء والقول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، لظلمهم . . . كلعن السراب ، للمستحيل فيه الشراب ، أو كالحبال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق الهبي في نفحة الرحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها حل لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين الهبي وبين عبد الغنى التابلسي الصوفي ، وله يقول متودداً مثيلاً بشيكا بنسكه وتصوفه وسلوكه اليروحي ^(١) :

« مولاي الذي سار في بروج الفضل سيمر الشمس ، وقامت فضائله في جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال في السكون والحركة ، مراقب الجن والبركة ، يفرح به كل قطر يتأزله ، كأنه البدر والدنيا متأزله ، ومن شايحه مسعود يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دوحك ^(٢) ، وغصن من سرحك ^(٣) ، بل نبت سفته أباديك ، وزهر نفتح بما أفاضته غواديك ^(٤) .

وبطبع نثر الرسائل الشخصية حيث نفث بنفس الطوايع التي رأيناها في أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان المهداني فضل السبق الى استحداث فن المقامات في العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبخوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سد حاجاته في الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القصص فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوي والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لا تعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نفحة الرحانة ١٣٩/٢

(٢) السرجة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٣) الدوحة : الشجرة الكبيرة للشجرة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويدل أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغلها بالحروب الصليبية ثم للغولية حتى منتصف القرن السابع الهجري ألقاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام للمالِك وجلساتها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العتابة منذ النصف الثاني من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لاتعتمد مثلها على أدب منسول وقصص احتمالاته الأدبية قصصا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختطفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت وللشمس لتاج الدين بن حيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق للتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قرناص الخنوى للتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن حنيف الدين التلمسانى الذى ترجمته له بين شعراء الغزل سماها مقامة لومقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتتزه فى الرياض ولقائه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارا طريفا ، وهو يفتحها على هذا النمط ^(١) :

« لم أنزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولع بنظم الأراجيز ، ومذ شب عبرى عن الطوق ، مُرَى بالفرام والقوقى ، وأهيم بالشمول ^(٢) والشمال ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتتزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الفياض ^(٣) ، وولجت ^(٤) بين حياض ودياخص » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة ^(٥) العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى للتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وصنخه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رشف الرحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها ومبانيها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة اللطاعة ^(٦) :

(١) انظر القائمة ملحقة بنيران الظفرى (طبع للطبعة

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن خاكر ٦٥٠/٢

الأدبية بيروت .

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبيصار (طبع دار

(٢) الشمول : الحمر .

الكتب المصرية) ٢٠١/١

(٣) الفياض : أماكن الشجر للثفل

« سألت عن الخبر، ممن غير، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجور كيف انتشرت فيه عَفَاقُ^(١) اللهب اللامع، فبادرت إلى صَحْنِهِ والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعْصَفَرَاتٍ^(٢) ذواتها، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذواتها. . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمي بشرير كالقصر)، فكلم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية، وكلم نفس كانت في النازعات وهي تلو (هل أبتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايلها وتنفى مايسفلها ويعتليها. »

وواضح في سجعاته طلبه للجناس. فهو يحانس بين الخبر وغير، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضي في مثل هذه الجانسات الناقصة، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنائه بالجناس يستخدم كلمة ذواتها مرة من الذوبان جمعا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع للذكر العذبات وهي أطراف المعائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبْثَلَتْ به دمشق وأهلها بلاء عظيما. وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمي بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقد مضى يتصنع للذكر طائفة من أسماء السوء، فذكر (الزمر) أي الجاهعات و(الدخان) و(الجلابية) من الجنو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن اللقمة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حيث كانت على هذه الشاكلة ينقصها القص والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين وثلث في نضجة الرحانة للمصطفى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو^(٣).

« نَرْجِسُ نَفْتَهُ الْفَنُورَ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُورِ.

(١) عَفَاق: جمع عَفِق وهو حجر كرم أحمر شبه (٢) مُعْصَفَرَات: مصبغة بالصفر، وهو صبيغ أصفر

(٣) نضجة الرحانة ٣٥/٢

به الصفي اللهب

وَشَقِيقُ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ^(١) ، قد رسب بقرارتها مِنْكَ قَبِيحٌ
وَأَذْرَبُونَ^(٢) كَأَنَّهُ مِذَاهِنُ عَسَجِدٍ ، على سواعد زبرجد
وسوسن كِيَاضِ السَّوَالِفِ ، أَوْجِيَادُ^(٣) الرِّصَائِفِ
وَقَرْنَفُلٌ كَأَنَّمَا تَوَقَّدَ بِالْجَمْرِ ، وانعقد من الخمر ،
ويظل طويلا في وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيَّار ، بمثل هذه الأسجاع الملية
بالتشبيات والاستعارات .

وروى المهدي لعبد الغني التابلسي الصوفي الذي مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق
عثر فيها على قصر عالي البنيان فدخله ، يقول^(٤) :

« فصعدنا إلى قصر مَشِيد^(٥) ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشَّيد^(٦) ، فيه الغرف
الرفيعة ذات التزيين ، وللمقاصير المصنوعة لقاصرات^(٧) الطُّرُفِ عَيْنٍ . قد طَلَّتْ شَبَابِيكُهُ عَلَى
تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمَوْفِقَةِ ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الزُّشَى والدِيَاكِجِ ، وقد أَطْلَقَتْ
فِيهِ مَبَاخِرُ الطِّيبِ فِرَادَ فِي الْإِبْتِهَاجِ .. فطسَّتْ أَنَا وَصَاحِبِي عَلَى تِلْكَ الْأَرَاثِكِ الْمَنْوَعَةِ^(٨) ،
والفرش للرفوعة ، تتناشد الأشعار ، وتتشبَّثُ بِأَذْيَالِ الْأَفْكَارِ .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ وما يلبث أن يقول له :
« ما ذلك القصر الموصوف سوى جَنَّتِي هَذِهِ وَثَوْنِي هَذَا الصَّوْفِ ، والشبابيك جُيُوه وأطواقه ،
ولا عجب أن تَفَحَّتْ فِيهِ مَبَاخِرُ الطِّيبِ لِظَنِّهَا قِرَاطِيصَهُ وَأَوْرَاقَهُ . » وكأن كل مافي المقامة رموز
صوفية جلاها عبد الغني التابلسي في تصاوير الرياض والقصر ونهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا
عند ابن الوردى أهم كتاب المقامة الشامين .

-
- (١) العقيق : حجر كزرم أحمر . خقيق : قايح .
(٢) الأذريون : زهر شديد الصفرة . والمجد : الذهب
(٣) جِيَادُ هَذَا : جمع جيد أى عتي .
(٤) نسخة الرحمانه ١٥٢/٢ وما بعدها
(٥) مشيد : حال مرتفع .
(٦) الشيد : كل ما طُلَّ به البناء من جص وغيره
(٧) قاصرات الطرف : عجلات حيات . حين :
جذيلات ولسعات الأضيق .
(٨) الأراثك : مقاعد منجدة للمنوعة : أى عن الناس

ابن^(١) الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد في المرة بلدة أبي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر في الدرر : بل نشأ بحلب وهي حاضرة إقليم المرة ، وخاصة على قاضيهام وفقهيهام ومفتيهام الشافعى شرف الدين البارزى . وتقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله في الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملىكانى قاضى قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله في ابن الزملىكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملىكانى فيها بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتضى ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويؤلى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يردّه إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعى في منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاعر : « أجاد في المثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . ودويوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى في ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبده ماله من كتابات أدبية ، ونقصده مقاماته .

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية . ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيها بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم في الحديث هذا الواقف المرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا يستند صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون للنهج الشديد لأسلافهم حتى يقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبر الأطلال ١٤٨/١ والشعرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسالته مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر في ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وغازات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملياً ، وخالفوهم أنفاساً . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فرائعها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول ^(١) :

« حكى إنسان ، من معرة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكربعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بوادٍ وقانا لفحة الرُمضاء ^(٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى نزوع حصاه حالية القَدارى قللتا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبَدَ صَادٍ ^(٣) من تلك العين ، ولكن نُحْصِ منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . »

وقد نصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتكثير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ يثنى مشهورين من الشعر في وصف وادٍ للمَنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرُمضاء وادٍ سقاه مضاعفُ الفيثِ القَسمِ
نزوع حصاه حالية القَدارى فتلَمَسُ جانب العقد النَظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بجادة الحسين ومقطه في كربلاء وطلبه للماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نحض في قراءة المقامة لئلا وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حيثلذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية للمقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضاً شخصاً من للمرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة النجبية ، ومنهج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضاً شخص من للمرة أنه دخلها فرأى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديماً وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بملرسها النورية ، فإذا مدرسها

(١) الديوان (في مجموعة طبعة الجواب) ص ١٣٣ (٢) صاد : عطشان شديد العطش

(٢) الرُمضاء : شدة الحر

القاضي حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذورونب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيت شعر ، سامها ^(١) فضل سر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابي إليك لتتصف بيننا وقد دُلت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضي يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحيتذ رجع للمرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدة وفيها يلقى شخصٌ معرًى أميراً يحدّثه عن الاحضالات واللوازم حول بعض الأضرحة وما يجري فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضي القضاة ابن الزملاكانى الذى أمر بإبطالها وشدد في التكفير عليها ، ويدهو له قائلا :

« لا زال نداء ^(٢) مثل حرف النداء ، كضياء بضم الأقرين والبناء ، من وصل به قال مرّة ^(٣) ، واكتسب تايه على اللفظ والمحل عطفاً ، حتى يكون علمه علماً منصوباً ، وعواطفه للمعارف خبراً مبتدأً به منصوباً ، ولا يرح مرفوعاً بفعل الحسنى ، وسيوف بجوئه ماضية فهي على الفتح ثبتي . »

وواضح لدى مائتكفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحرف عبارات الثناء على ابن الزملاكانى وسجائته ، فلا زال ابن الزملاكانى مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوباً » وأراد بها أن العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر وللبتداء والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائماً ولكن من حين إلى حين تلقائاً في نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامة الخامسة في وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق في وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيراً منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق في

(١) سامها فضل سر . (٢) البرف : المرفوع

(٣) قال بها في السر

(٢) نفاة : كرمه

وصف الحريق . وله رسالة بديعة في وصف وياه الطاهون الذى فك بأسيا وامتد من الصين والمند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميا ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغياى الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كعب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريقة .

٤

المواظظ والآهالال

فرض الإسلام الوعظ في خطب للساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المخططة كانت تنعج بخطب الوعظ وإن لم تمن كعب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأول . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات ^(١) خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل خيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفى مقدمتهم الأوزاعي صاحب الملعب المشهور . وبمثل ظل الوعظ حيا مزدهرا في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وستقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقي بأبي العلاء ، والخطاط وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نلجده يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبية للرقدة الغافلين ، وتعليم من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفري » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابا الفنى وملاحقه في النثر العربى

(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والحسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الحمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون ليثا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظامه قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بمحدث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية اللبينة في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حيثذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لمهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق للمولود بها سنة ٥٠٨ وملتقى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها ، وهو الذى خطب أول جمعة صُلِّيَتْ بالقُدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حيثذ المذهب الدمشقى الذى لقيه الهاد الأصمباني - كما يقول بخرينته - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها الهاد ويُعدُّ سبط ابن الجوزى يوسف بن قزوغل أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزى واستمع إلى مواظبه الرائعة التى نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسميا الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمتزلة العظمى ، وكان له لسان حلو في الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب »^(١) . ويصف أبوشامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجلا ونساء ، والنساء بميزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجليل ، حضرت مجلسه صفرى وكبرى في الموضوعين مرارا ، وكان لا يفارق أجد مجلسه إذا انفصّل إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بين وبين القبة في يوم الجمعة ،

وبيت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسايقه إلى الأماكن ^(١) .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تغليس إبليس » وهي رسالة صغية ، أراد بها أن يُعَلِّمَ شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخطون فيه من الخي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموي فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموي لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (قانتها) : الحمد لله الذي أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحب البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعه ^(٢) » . ولاريد أن الخطابة الدينية اطردها ازدهارها أيام المماليك ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . وتقف عند طاقة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن ^(٣) نباه الفارق

ابن نباه الفارق هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثله فيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباه من خطب الجهاد ليحضر الناس عليه ، ويحتم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبته جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذي الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تترها عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمتادى يتادى كل يوم باعباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٣) انظر في ابن نباه الفارق ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبد الله ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

(٢) غزاة الأدب ص ٢٠

الرجل الرحيل ، هو اللوت الذى مافيه فوث ولا تمجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بدل ، كم ألحق حليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وغليلا من غليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، ظلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم للتمتع فى كماله عن الشيه والمثيل . ولغة ابن نباتة فى خطابه علية سائفة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، قد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرنا عند العاد الأصماني ، وسجعه يلد الأذان حين تصنى إليه ، لسهوته ونخفته وبراوته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحبطوا صيامكم بالقيّة والغيمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شئ يكون الإفطار والسحور ، يا غافلا عن طاعة الله ما هذه الغفلة والفور ، يا هانئا فى نية الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. ياماتلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، يا عادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم الشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأهلان من قلوبهم وأفتدنتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يثائر فى خطابه ببيانه الرائع .

(ب) الفصول (١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء للمرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدئا بآيائه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة (١) للقرآن الكريم ، ولجحد تلميذه ابن ستان الحفاجى الذى مرت ترجمته ينق عن بشقة هذه التهمة (٢) ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودنية
القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زتاني) وقد
نشر القسم الأول منها وبتنقى فى الغايات إلى حرف
الحاء .
(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية).

« الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أنى ألقت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتى سخطه اللؤلؤ ، فهَبْ لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد ونحوف من الله وتقوى وودع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلث حتى يقول ^(١) :

« لو تقلت مياه اللجج على منكبي في قُذاف ^(٢) ، وألغضت على مناكب الجبال ، وجرت كبحان الأرض وصرائعها ^(٣) في جرٍّ أو مشاة ^(٤) ، فألقيتها في الخُضر ^(٥) الدائمات ، حَفَفًا ^(٦) فهُ كُنْتُ أَحَدَ العِزَّةِ المَقْصُرين ، ولو أذن لى وأبَدْتُ فَأَبْنَيْتُ مَرَاهِصَ ^(٧) من الثرى الأسفل إلى الثرى ، ومن الرند ، لَشَحَذْتُ من حود إلى وَتَدِ السُّعُودِ ^(٨) ، لم أَوْدُ ما يوجب جلال الله ، فكيف وأنا أَقْصُر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومها أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو تقل مياه اللجج الزائفة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جركبحان الأرض كبحا وراء كعب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو اجتنب من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها حنان السماء إلى الثرى أو لو اتخذ من أوتاد العبدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهه وقصوره أمام ما توجبه تجلته الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان اللمع يطفى غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غامتا شَتَّى ^(٩) تَبْلَانِ ^(١٠) الصباح والمساء ^(١١) » إنه سيظل ما عاش باكيا ذارفا للدموع سائلا من ربه رضاه وودوانه . ولهذا الصبغة أغوات كثيرة في الكتاب ، فأبو الطلاء فيه دائما يتاجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) مراهى : طبقات

(٣) قذاف : جرة

(٤) جد : سعد الأعشى : نجوم مروة

(٥) صرائم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل

(٦) شتى : من الشاء ويريد سحابا قائم للطر

(٧) جر ، سقاء : زيل

(٨) تَبْلَانِ : تهلان ، من التويل وهو للطر القير

(٩) الخضر : اللجج

(١٠) الفصول والغايات ٢٥٩/١

(١١) حَفَفًا : عذمة

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غايته الألف دائماً . وليس هذا كل ماصحبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيراً ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يملأها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشياً خليقاً أن يضاف إلى فصوله وغاياته وقرره فيه ، من ذلك قوله مستظهراً لبعض مصطلحات علم الصرف ^(١) .

« لا يجملنى ربُّ محتلاً كواو يقوم ، ولا مبتدلاً كواو موقن من الباء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستثناء ، كواو جدول وعجز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربُّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولا غناء ، مشيها لا يحسب من الثمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، قلبت الباء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعلوم أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحسده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيراً من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطاً وتفصيلاً وتحليلاً .

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محي^(١) الدين محمد بن الزكي على من سلالة حنان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاء قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محي الدين حاضرا فحسبها تطاولت الأحقاق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعد من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال ^(٢) فيها .

والحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومنزل الشوك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قلر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضلته ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظهاره وإعزازه لأولياته ونصره لأنصاره ، وتطهيره يته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا بروضان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة^(٣) ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة ^(٤) الشوك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار . وهذا هو الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت ^(٥) بأنواره وجوه الظلمات ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقُرّب به حبّبا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بمروئيتها نجا وحُصم ، واحلّوها من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محي الدين في طبقات السبكي

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفي اللط :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبير الدهلي ٢٠١/٤

الحكمة ضالة المؤمن

والبدابة والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إماطة : تحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلّجت : أفرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين

ورجع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفره .
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَنُو وَفُوح الشام ومصر والقادسية
وهجأت خالد والصحابه الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن^(١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور
لزمته المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا :
« قد وضعت كتابي هذا مترجما عما استغلته من الحيوان يرمزه ، والجماد بغمزه ، وما خاطبني به
الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسعيت كشف الأسرار عن حكم الطيور
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة للنوى الأبصار والاستبصار . ويقول إنه
خرج يوما ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقنسيمها وغنى عنديها ، وكان
وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم
صنعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار
وأحد عشر نوعا من الأزهار استلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقى فالوقت
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكسيت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا للزور ، ومن طمع في
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدور ، والعيش المحرور ، أني حينما نبت رأيت
الأشواك تزاحمني وتجاورني ، فانا بين الأدغال مطروح ، ونبال شكوى مجروح . وهذا دمي على
حنّلى يلوح ، وهذا حالي وأنا ألفت الأوراد ، وأشرف الورد ، فن صبر على نكد الدنيا بلغ
المراد » .

وعن ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مما أذاقت الناس فيها من حلاوة
العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وآس وسرور وحزن ،
وحري بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأمله . ويقول على لسان شجر البان الذي ظلما
ذكر المخبون في لينة وتمايل أعضانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أتمد ، وإلى الحب وقد
انتمد ، وإلى النصف اليابس قد اكتسب بطعنا انجبد ، وإلى اختلاف المطامع ومشربها قد أتمد ،
واعلم أن خالقها أحد ، وصانها صمد ، وموجدنا بالقدرة قد انفرد ، لا يشركه في ملكه أحد ،
ولا يخفى هو إلى أحد ^(١) لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وهي عظه بليغة على لسان البان ، فالرياح أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد :
وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحسب النار قد انتمد ، واكتسب النصوص بعد العرى وسقوط
الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تنسج بماء واحد
وتختلف ثمارها وطعمها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشركه فيها
أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثل شيء وهو على كل شيء قدير .

ويستغل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيوار ، ويستغل كلامها
بكلام المزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا المائم أللهفان ، إذا رأيت فصل الريح قد حان ، تجنني في الرياض
فرحان ، وفي الفياض ^(٢) أردد الألحان . . وأرقص على الأخصان كأن الزهر والنهر لي
عبدان ^(٣) ، وانت تحسني في ذلك حاتبا ، لا والله العظيم ولست في يميني حاتبا ، أنا أنوح حزنا
لاطربا ، وأبوح زحانا لا فرحا ، لأجد روضة إلا نُعت على انصمحلها ، ولا خضرة إلا تلبلت
على زولها ، لأنني مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمزرت ، فقرأت في تمثال
العرقان ، كل من عليها فان .

والمزار في أول العظة فرح بمقدم الريح ، وسرحان ما يفكر في انتهائه ، فيتعب وينوح ،
إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها
من صفاء لا يلبث أن تغشا كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلو لا يلبث أن يتقلب عيشا مرا ،
بل إن كل ما فيها هالك فان . وسيد من كُتبت له السعادة ، وشقي من كُتب له الشقاء . ويستغل إلى

(١) النباه : جمع خيفة وهي الشجر للثقل للمروءة

(٢) عبدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان الخلة إذ تقول :

« إذا رمالك الدهر بمرمى قسم له ، وإذا رأيت من تها للسير فسر قبله ، ولا تمكن في تدبير جيشك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ، وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أذخره من الحب لقوى ، في بيوت » .
والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، وإعيا لحكمة الله في خلقه ، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأصواء تنير له دنياه ، وتعدده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ أبدية غريبة ، وتخطئه أبيات شعرية سائفة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .



أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خلفت الشام في هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قبل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب في البرزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي العلاء للرعى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسلم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والليل ، وسفر لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضا رسالة ^(١) طريفة ليعمر بن عيسى للتوفى شابا سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها معاشر الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تدمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقتل . وبفيض في وصف الصيد وماركبوها فيه من خيل وماحملوها فيه معهم من فهود وكلاب وبيزاة وشواهين ، وبطيل في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصار جمع فيه منظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنبوءات والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتبان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحليم من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو للنازل والديار ألقه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ ألقى على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأتقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الحروب ، فإن الزمان جرح عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها ^(١) حوله وحيله ^(٢) ، فأصبحت (كأن لم تكن بالأمس) موحشة العرصات بعد الأسى ، قد دكر عمارتها ، وهلك سكانها ، فسادت مغانيها ^(٣) رسوما ، والمسرات بها حشرات وهوما ، وهو كتاب ضخيم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى للنازل والديار والمخاني والأطلال والربيع والظنن ^(٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت ويكاه الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونفى إلى زمن المالك وبقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطيعة والطير والحیوان والأخلاق وسنم به عما قليل .

ونلقى فى زمن المالك بابين حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادير وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحق والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانيها : منازها

(٤) الظنن : آثار الديار

(١) تعفيتها : فقورها وطمسها

(٢) الحبل : لفحول والقوة

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بآبن حرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرده له كلمة .

وننظم إلى أيام العثانيين ، ونلتقى ببياه الدين العامل الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله الخلاصة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شفرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمصنوفة ومظلفة ولشعراء الغزل والحكمة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أحوال أدبية .

(١) رسالة (١) الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعل بن منصور الحلبي المعروف بآبن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نبوض آبن القارح من قعر يوم البعث ويتصور له نزعة فى الجنة يلتقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المشرق ليصور أحواله وأحوال الصراط مع الناس انتظارا لمصيره وقد ظل فى المشرق واقفا حتى نمع من شدة الحر والظما ، وكان معه صك التوبة فذكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه ليلسنتها ونظم القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن ينشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوصل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويحذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقم آبن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وحطباء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصلى إلى مدائن غربية ، ويطلع فىرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) تنظر فى رسالة الغفران (طبعة أمين خندبة) الطرف

(وطبعة د. بنت الشاطى) وهى طبعة مختلفة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه ، ثم يترنم من عتار دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالحطيط والحنساء وهي تنظر إلى أخينا صخر في الجحيم ، وينظر مثل الحنساء ، فيجد إبليس وبشارا ولمرأ القيس وعذرة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التظلي وعناورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام ويبيض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّبَاز ، وعناورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من عذاب في الجحيم ومن نعيم لا يحاطه نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العلمية ، إذ كتب داتق الشاعر الإيطالي للتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استلها أبو العلاء بالتناء على ابن القارح لولائه في زمن يعز فيه الوفاء : ونحلت عن حرقة الأدب وهومها ، ودفع عن التنبئ ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألفا كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دجل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وخلافة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالحنود وبالحلول من الصوفية كالحلاج ، وأصلى ابن الراوندي الزنديق^(١) هو وكتبه : التاج والدامغ والقضب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريع ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندي الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأف وأف ، وجورب وشفّ وهما واديان يجهم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتزيه وتمثله جالسا للوعظ في مسجد بجلب ، ويلم بأول سماعه عنه وشيوعه ويبعض علماء حلب وبطيات العرب في الجاهلية ويبعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندي وإلحاده والرد عليه كتاب

من تاريخ الإلحاد في الإسلام ، لعبد الرحمن بدوي

والرسالة نغيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّر فيها المهتر والمجيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكره من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بلم حنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لكل أحدا من أدباء العرب على مر أزمتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المهسات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده في العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة^(١) النسر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان اللمشقي ، ترجم له العباد الأصمعي في غريبته . وقال إنه زاره في مدرسته الهادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسماها « بالنسر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. ثم ذكر - فيها يلو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهدا روعا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وقتة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أني ملك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا ييب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النقط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هب نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق^(٢) وانغرق قيص الفسق^(٣) مشهور بالقسر^(٤) ، موسوم بالنسر ، والبلبل قد شاب ذؤابه^(٥) ، وايضت فته ..

(١) انظر الرسالة في الحريدة (قسم الشام) ٣٤٠/١ (٣) الفسق : اللبل .

وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في (٤) القسر : القهر

كتاب المحدثون من الشعراء والواق بالوفيات ٣٣٠/٢ (٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رشيق ^(١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء .. يقبض أجنحته ويسط ، ويصعد إلى السماء ويبسط يمرح بأسنة قواده ^(٢) أعطاف القبول ^(٣) وأطراف الصبا ، وَيَقْدُ الشمال بخوالف ^(٤) كأنها غروب ^(٥) الظبا ، ويفتق بخوابه ^(٦) جُوبَ الجنوب ^(٧) ، ويغرق بصدده صدر الرياح في المبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض ^(٨) . وظلٌ حريص ، وأنهار متدفقة ، وأشجار موقفة ، وظلٌ مشور ، ووَرْدٌ ومشور ^(٩) ، ومكان بهج ، وزهر أريج . . فن ورد فضى الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافورى الصبغة ، مسكى الصبغة ، مائى الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت ^(١٠) الصبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وقشعت الجَنوب أكمامه ، وحسرت ^(١١) اللُهور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو حدود البحر في القصور ، ظهرت في غلاتل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفرق ، وترتفع وتنحني ، والناسم ثعلٌ عَقْدُ أززار الزهر ... والشمس تُسفر وتتقب ، وحاجب الغزالة ^(١٢) يبدو ويحتجب .. فوق [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وينا هو صاف الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحري على وَكْر شجرى ، يتأخى الناسم بنغمة مزماره ، ورنّة أوتاره .. وألحان أحلب من نقرات المزار ، ينثردا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف اختانه بين أفئانه ^(١٣) ، ويرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى ^(١٤) جنوهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافع في المزار ، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ريع أحزانه .

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح

(٣) القبول : ريع الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هي الريش في مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :

جمع ظبة وهي الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوائى : الريش القصير في الجناح

(٧) الجنوب : ريع جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المشور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسرت : كشفت . والبعور ريع نهب من المغرب

(١٢) الغزالة : الشمس .

(١٣) أفئانه : ألحانه .

(١٤) هم للمسكون الأتقياء تتجافى جنوهم عن

المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان الهاد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو قرائنها ، فلنا زناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد انتضح جمال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعا يطير عن الأفواه بجففة لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويُقنّ النسر صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيجبه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المصحب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصفران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشان ماينها في القيمة والشرف ، ولا الأدنى كالقيل ، وبينها بؤن في التفضيل .. وأما النعمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فلاني رصعت شئرها^(١) في عقد ألعاني على نغم بعض الأغاني . »

ويذكر البلبل للنسر أنه كَوْنُ ألعانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع نغماته ، إذا ولّى النهار وصَبَحَ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشَمَلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف المحور والولمان وترجّع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم في لهو وسماج وطرب ، ومنهم أخذ ألعانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يخلو حطوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى البيت في الروض غير أنه يتم ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووَجَّه إليه اللام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطلب للمهلب في العظة من هذه القصة وأن يلغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، ويصدق الطلب يُدْرِكُ الأرب . ويقول الهاد إن المهلب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدل في طلب النى هون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن النغلة وما يشبه النغلة .

(ج) كتاب الاحبار^(٢)

ملذكات طريقة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والملذكات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشار : قطع اللعب وصغار القزق

(٢) نشر بلبل حتى هذا الكتاب في برسمون سنة

١٩٣١ راجع ماكتبته عنه في كاتيا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شيزد حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنتقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة وللوصل .. ووصف مشاهدته واشترك فيه من المارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الثورة القاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفا حيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله يتزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بأنهم فصيل الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخري حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انقضت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد صلحهم غير على نسايم ، ويصورهم متخلفين في الطب غلظا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجب طبهم أن صاحب المنيطرة (في أقال الشام) كتب إلى عمى أمير شيزد يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طيبا نصرانيا يقال له ثابت لما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت للمرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله ذئلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس ليخة ففتحت الذئلة وصلحت . وحببت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء (فكيف) يداويها ؟ وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا إلى فارسا قويا وقاسا قاطما ، فحضر الناس والقاس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالقاس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة لما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، اخلقوا شعرها ، فحلقتوه . وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ للوسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبق لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فبحث وقد تعلمت من طبهم ما لم أعره . »

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وماأخلوه من العادات الإسلامية الشرقية في اللطم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفي ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممنوع لاتصنع فيه ولا تنكف ، فلا سجع بدائخله ولاحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيته يصف ما شاهد وصفا نابضا بالحياة في لغة سهلة ، حتى تقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل في الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح ، وجعل هذا المنكى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفريقية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمنه . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حرة وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(٥) نسيم " الصبا "

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طريقة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عيّن محسبا بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والحليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النيه في أيام المنصور (قلاوون) ونيه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المنائب ، والمفتى في ذكر فضائل المصطفى .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والثناء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحرية كالسلاح والعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينها من الفراق أو بضمه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدح وضمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشر دائماً بالقدره على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها حُبابه :

« هزَّتْني رِيَّاحُ الأَمَلِ البَسيطِ ، إلى امتطاء نَجَجٍ ^(١) البحرِ المَهِيطِ ، فأُنِيتَ سَفينَةُ طَيبِ السَّفَرِ مَتَواها ، وَرَكِبْتُ فيها (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَها وَتَرسَها) .. بِأَها سَفينَةُ ، على الأُمُوالِ أُمِينَةُ ، ذاتِ حُسْبٍ ^(٢) وألواح ، تَجْرى مع الرِياحِ ، وتَظهِرُ بغيرِ جَنَاحِ ، وتَمْتاضُ عن الحادِى ^(٣) بِالمَلَأَحِ ، تَخْوضُ وتَلَبُّ ، وَتَرْدُ ^(٤) ولا تَشْرَبُ ، لها قِلاعُ كالقِلاعِ ^(٥) ، وشِراعٌ بِمَجْجِ الشَّعاعِ ، وَسَكِينَةُ سَكَّانٍ ^(٦) وَمَكَانَةُ وإِمْكانِ ، وَجُوجٌ وَقَوارٍ ^(٧) ، وَأَضْلاعٌ عَمَكَةُ بالقارِ ^(٨) .. بَعِيدَةُ ما بَيْنَ الشَّحْرِ وَالنَّحْرِ ^(٩) ، من أَحْسَنِ الجَوارى ^(١٠) المُنشآتِ في البَحْرِ ، مَحْفُودَةُ بِنَواصِياها ^(١١) الخَميرِ كالخَيْلِ ، لا تَمَلُّ من سَيرِ النَهارِ ولا من سَريِّ اللَّيْلِ :

(٧) الجُوجُجُ : صدر السفينة . القفار : جمع قفارة

(١) نَجَج : ونط .

وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٢) دسر : حبال :

(٨) القار : القطار

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحذاء وهو الغناء للإبل

(٩) السحر : الرقة ، النحر . أهل الصدر

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(١٠) الجوارى : السفن

(٥) قلاع الأول : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع

(١١) نواصيا : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في

الثانية : جمع قلعة وهي الحصن

مقدمة الرأس

(٦) سَكِينَةُ : وقار . وسكان السفينة : دُفَّها

ما رأى الناس من قصور على الماء . سواها تَسِيرُ سِيرَ الْقِدَاحِ (١)

كَأَنهَا وَجِلٌ (٢) يَنْحَطُّ مِنْ شَاهِقٍ ، أَوْ عِرْيَاضٍ (٣) سَابِقٍ بِحُلَّةٍ سَاقٍ ، أَوْ عَقْرِبَ شَائِلَةٍ (٤) ،
أَوْ عُقَابٍ صَائِلَةٍ (٥) .. حَاكِمَهَا (٦) عَادِلٌ فِي حِكْمِهِ ، عَارِفٌ بِتَقْضِ أَمْرِهَا وَيَرْمِي (٧) ، يَيْتَدِي
بِالنَّجْمِ ، وَيَيْتَدِي بِاسْمِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ .. وَيِينَا نَحْنُ مِنَ الْبَحْرِ فِي قَامُوسِهِ (٨) ، كَسْبُ الْجَوْ حُرُوفِ
الْغَيْمِ فِي طَرُوسِهِ ، وَثَارَتْ رِيحُ عَاصِفٍ ، يَتْبَعُهَا رَعْدُ قَاصِفٍ ، هَالَتْ بِنَا الْفُلُكُ (٩) وَاضْطَرَّتْ ،
وَدَنَتْ شَفَتَهَا مِنْ رَشْفِ الْمَاءِ وَاقْتَرَبَتْ ، وَاسْتَمَرَّتْ تَطْوِي عَلَى الْأَوْتَادِ (١٠) ، وَتَهَيَّجُ فِي كُلِّ وَادٍ .
وَتَضْرِبُ فِي الْكِبُودِ نَارَ نَاجِرٍ (١١) ، إِلَى أَنْ (بَلَفَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (١٢)) .. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا مِنْ لَأَ
نَحْنُ عَلَيْهِ السَّرَائِرُ ، وَأَمَرَ الْجَارِيَةَ (١٣) بِحَمْلِ عَيْدِهِ إِلَى بَعْضِ الْجَزَائِرِ .

ونزلوا الجزيرة وتزهبوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحسابوه ددر . ويمضي ابن
حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذي يمتع الآذان والأنهان
يجرسه وما بين الألفاظ من ملامعات تجعل السجع بلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين
تسمع إليه . ويحق يقول ناصر الدين بن البارزي في الكتاب مقررًا له : « لقد أشبه الدر في
انتظامه ، والثغر في ابتسامه ، وقطر الندى في انسجامه ، وزهر الروض في البكر إذا غنت على
غصونه مطربات حامه .. فهو في اللطافة كالماء في إروائه ، وكالهواء المتدل في ملامة الأرواح
يبحر صفاته ، وكالسلك إذا انتش جهره وأجيد في انتقائه » . وقد خُصمه ابن حبيب بفصلين
بديعين في الحكم والمواظ ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

(١) القِدَاح : السهام

(٢) الوجِل : ماهر الجبل الوحشي

(٣) العِرْيَاض : البحر الضخم

(٤) شَائِلَة : رافعة ذنبا

(٥) صَائِلَة : واثبة جائلة

(٦) حَاكِمَهَا : ربانها

(٧) يرمي الحبل ضد تقفه والاستدارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لغة العظيم

(٩) الْفُلُك : السفينة

(١٠) الْأَوْتَاد : الجبال

(١١) نَاجِر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أَمَى نَبَتْ عَنْ أَمَاكِنَهَا فِي الصُّدُورِ بَلَفَتْ

الْحَلَالِمَ ، وَالْآيَةُ كِتَابَةٌ مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَ الْقُلُوبَ مِنْ

الْفَزَعِ

(١٣) الْجَارِيَة : السفينة

(هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد اللمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طائفة تيمور ومحاصرته للدمشق ونهب جنوده التار لها وإشغالهم التيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُببت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان المماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان المماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخصص حيتله للدرس والتصنيف ، وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جغتو (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوابغ تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويمجد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزيان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة . وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى الحسن حسان يرويا عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يحترم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

٢٨٠/٧ والبر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة

الخلفاء »

(١) طُبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه

النجم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والفضة اللاع للخلوى ١٢٦/٢

وكذلك كتابه التبر للسبوك ص ٣٢٥ وشلوات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وتُقل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهوراً بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة نحكي ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الحاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع خنته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعاً تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق النobile ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كلبلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلاً إن الحكمة إذا قُلت على ألسنة الوحوش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيّار وسائر المهن مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراء ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقننا الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعاً قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يفرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكر خان الذي طمّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجُ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يتفق فى مصالحها وحوادثها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائماً لقارته الأخلاق الحميدة والشائى الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المبنية على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلمها يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إختلاها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أو نارية . ولانثك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأكاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصالحهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كلبلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألفتا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وجعله كحكم هذا الكتاب ترود بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما بطم من شئون السياسة والحكم وما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتب ، ووذائل تجنب ، وما أروع الحكمة التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يا بنى اكتسبوا العلم والفضل وأدخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنىم عنه كان جمالا » .

خاتمة

تحدثنا في هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدهى في عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إلامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاية العباسية ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإعشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها خفية من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسوا بها مآلهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرها وخطفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستقل منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر للتوسط وما وراءه خفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جماعات التتاريين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينم به من الرخاء إلى أن حكمه التتاريون حكما ظالما غاشيا فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أعطت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية زلزلية وهى المسماة بالفدائية وبالحشاشين . وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والمناقشات والطرق الصوفية والدروش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفلت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية غصبة ، وتكاثر في بلدانها المدرس منذ أيام السلاجقة ككرة مفرطة ، وكان طيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي المائة بطون الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما حُثيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجري يتألق اسم كثر من تحتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن بعش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا حرييا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، وتلقى بحلقة نقدية مجلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام التتاريين ،

وتنشط بها الدراسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبد الغني النابلسي في بدميته للشهورتين. وتُمنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزري في القرن التاسع الهجري. وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه التابعون، وبالمثل تنشط دراسة للمذاهب الفقهية الكبرى، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووي الشافعي وابن تيمية الحنبلي، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعري. وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء.

وكانت الشام قد أخلت في التعرب قبل الإسلام لاحتل الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقم النبط والفسانة بطعم فحسب، بل أيضا في داخل البلاد الشامية، وفيها وحل الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين، وكانوا يدينون بدينهم المسيحي. وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامي، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين. ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المنتشرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها، وطوال عصر بني أمية كان يغد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيديّة إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبي تمام والبحتري. وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاد سيف الدولة، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في البيعة.

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العهد الأصيلاني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة. وترعرع كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجري وما بعده. ويكثر الشعر الدوري والرياضات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أئمة المهجوي والمخار الحلي، وبلثلل البديعيات والتحقيدات، ويروج سوق للمبيع ورواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخطيب وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك. وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبي العلاء المعري ومنصور بن مسلم وابن الجزري. ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيوس وبهاء الدين العاملي.

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء القزل وما يثير في النفوس من

المواطف والمخاطر والمشار على نحو ماقرأ عند عبد المحسن الصوري وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملثوا الدنيا ضجيحا بمفاخرهم وبسالهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو ماقرأ عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عتير من جهة ثانية . وولتق بكثيرين من شعراء المراثي والشكوى مثل ابن سنان الحجاجي والغزي وفتيان الشاغوري ومصطفى الباي . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بحال الطبيعة ويشفون بمجالس اللهو في المنتزهات والأديرة على نحو ماقرأ عند الواواء الدمشقي وابن قسيم الحموي وبجير الدين بن نعيم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبدالعزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وخفيف الدين التلمساني وعبد الغني التابلسي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعيون قصروا شعرهم على الأرجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتمت الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوية والمملوكية على نحو ما نجد عند العاد الأصماني الناصر الشاهر والصفدي وابن حجة الحموي وكانا أيضا نائرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للزراء وكثيرا ما كانوا يرأسلون ، من ذلك مراسلات الطفراني والغزي ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى المزول . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أدب منسول كما كانت عند الحريري ، إذ تمتنى بالوصف أو بالوعظ أو للمفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت نخوص في موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواظ وفي مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لهدى الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتكثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهرس

صفحة

٥ مقدمة
٥٩- ١ الفصل الأول: السياسة والمجتمع
١ ١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى
 (أ) فتح العرب للشام
 (ب) زمن الدولة الأموية
 (ج) زمن الولاة العباسيين
 (د) الطولونيون - القرامطة
 (هـ) الإخشيدون - الحمدانيون (سيف الدولة)
 ٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكي
٢٣ (نور الدين)
٢٩ ٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون
٣٧ ٤ - المجتمع
 ٥ - التشيع: الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدرزي - الإسماعيلية
٤٥ النزارية أو القداوية أو الحشاشين
٥٢ ٦ - الزهد والتصوف
١١٩- ٦٠ الفصل الثاني: الثقافة
٦٠ ١ - الحركة العلمية
٧٠ ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
 (أ) علوم الأوائل
 (ب) علم الجغرافيا
٨١ ٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة
٩٣ ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١١١ ٥ - التاريخ
١١٨-١٢٠ الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء
١٢٠ ١ - عرب الشام
١٢٤ ٢ - كثرة الشعراء
١٢٨ ٣ - شعر دوري - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

(أ) الشعر الدورى

(ب) الرباعيات

(ج) الموشحات: أبهر الميموى. المخار الحلى

(د) البيهات

(هـ) التعقيدات

١٤١ ٤ - شعراء المديح

ابن الخطاط - ابن القيسرائى - ابن الساعق - الشهاب محمود - منجك

١٦٣ ٥ - شعراء الفلسفة والحكمة

أبو العلاء الميموى - منصور بن السلم - حسين الجزرى

١٨٣ ٦ - شعراء التشيع

كنشاجم - ابن حوس - بهاء الدين العامل

٢٩٤-١٩٩ الفصل الرابع: طوائف من الشعراء

١٩٩ ١ - شعراء الغزل

عبدالمحسن الصورى - ابن منير - الشاب الطريف - حسن البورى

٢١٦ ٢ - شعراء الفخر والمجاء

أبو فراس الحمدانى - عرقلة - أسامة بن منقذ - ابن عتير - ابن النحاس

٢٤٠ ٣ - شعراء المراثى والشكوى

ابن سنان الحفاجى - الغزى - فتان الشاهورى - مصطفى الباهى

٢٥٧ ٤ - شعراء الطهبة ومجالس اللهو

الوآء اللمشقى - ابن قسيم الميموى - مجير الدين بن تمم - ابن النقيب

٢٧٢ ٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

عبد العزيز الأنصارى - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمسانى -

عبد الفى النابلسى

٢٩٠ ٦ - شعراء شعيون: أبو العلاء بن مقاتل

٣٤٧-٢٩٥ الفصل الخامس: النثر وكتابه

٢٩٥ ١ - الرسائل الديوانية

الماد الأصهبانى - العفدى - ابن ججة الميموى

٣١٠ ٢ - الرسائل الشخصية

(أ) رسائل أبى العلاء

(ب) رسائل متنوعة

٣١٨ ٣ - المقامات: ابن الوردى

صفحة

٢٢٥ ٤ - المواعظ والابتهالات

(أ) خطب ابن نباتة الفلوقم.

(ب) الفصول والغايات

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحي الدين بن الزكي

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

٢٢٤ ٥ - أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل

(أ) رسالة النفران

(ب) رسالة السر والبلبل

(ج) كتاب الاعتبار

(د) نسيم الصبا

(هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرفاء

٢٥٠-٢٤٧ خاتمة

